خواطري عن القرآن

المفكر الاسلامي

آية الله الشهيد السيد حسن الشيرازي

المجلد الثاني

(٩)

سورة التوبة

مدنية

وهي مئة وتسع وعشرون آية

سورة التوبة: الإطار العام

هذه السورة، سورة عقاب في الدنيا؟! وسورة عذاب في الآخرة؟!

هل يبست الرحمة، فنفرت السيوف تمتص آخر نبض باكر يعاني هاجس التجربة؟! ونفضت جهنم عطاء المغفرة، فقفزت من فوق سور الآخرة إلى حرم الدنيا، تلتقط اللاجئين تحت مظلة الرحمة المهداة؟!

وهل تهدم الأمل بالإنسان الخارج على الله، فحتى لا محاولة، وحتى أقيلت السورة عن استقلالها، ونزع عنها تاج (بسم الله)، حتى لا يهتك (الرحمن الرحيم) عنق الظلام، وحتى لا يكون – من أول المبدأ – سياج ولا باب، أمام الرياح الوحشية، التي هاجت لتوقف دورة الزمان، وتغسل الأرض من آخر تعبير للشيطان؟!

فالقتل... القتل... للأدنى والأقصى، في كل مخبأ ومهرب:

((... فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم...)) (١)..

((... فقاتلوا أئمة الكفر...)) (٢). .

((ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم...)) (٣) .

ولا يكفي الجهد البشري في قتلهم، فلا بد من الاستعانة بالله في قتلهم:

((قاتلهم الله أنى يؤفكون...)) (٤) .

والعــذاب... العذاب... للمشــرك والكتابي، واغتيلت المعاني، فأســفرت الكلمــات الربيعية عن لوافح الخريف:

((... وبشر الذين كفروا بعذاب أليم۝)) (٥) .

((... فبشرهم بعذاب أليم۝)) (٦) .

((... والله لا يهدي القوم الكافرين۝)) (٧). .

لقد اهتزت شــجرة القربى البشــرية، فتناثرت أوراق العهود والاتفاق، لتترك مكانها لأشواك الثأر تغري بالتشفي:

((... ويشف صدور قوم مؤمنين۝)) (٨).

هل وقفت مركبة الشمس، وانمحى لفظ الأمس، وانتهت الدنيا، فلا همس ولا حنين: فالبراءة، من مصدر الرحمة ومظهرها:

((براءة من الله ورسوله...)) (٩).

والنجس، والابتعاد عن مهبط الخير:

((إنما المشركون نجس، فلا يقربوا المسجد الحرام...)) (١٠).

والصراحة الفاضحة تنزف رياضية المعركة:

((اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله...)) (١١)؟

فكل شيء في ذمة معركة جادة يلحنها الفناء.

أو هي – حقاً – كلك؟!

كلا... إنها إعلان حرب محددة شريفة، على أثر نقض غادر ولئيم، لمعاهدة سلام بين جانبين متحاربين: جانب مؤمن، لا يطالب إلا بحقه في الحياة. وجانب مشرك يريد أن لا يشاركه غيره في الحياة. وكانت بينهما معاهدة سـلام، فنقض الجانب المشـرك معاهدته، وقتل عدداً من الجانب المؤمن، فكان من حق الأخير أن يباغته، بالحرب أو بالانقضاض على من تحت رحمته من الجانب الملحد. ولكنه لم يحاول استقصار حقه، لأنه يتورع عن الدم – مهما اسـتطاع –، وإنما حاول إرجاع الجانب المشـرك إلى المعاهدة، توفيراً لفرص السلام له، فـ:

١- أعلن إلغاء المعاهدة من قبله، كرد طبيعي على عدم التزام الجانب الآخر بها:

((براءة من الله ورسوله، إلى الذين عاهدتم من المشركين۞)) (١٢). .

وأعلن أن إلغاء هذه المعاهدة، لا يعني إلغاء كل معاهدات السـلام التي كان الجانب المؤمن طرفاً فيها، وإنما تبقى سارية المفعول من قبل الجانب المؤمن طالما الجوانب الأخرى باقية على التزامها بها:

((إلا الذين عاهدتم من المشـركين، ثم: لم ينقضوكم شـيئا، ولم يظاهروا عليكـم أحداً. فأتموا إليهم عهدهم إلى مدَّتهم، إن الله يحب المتقين۞)) (١٣).

ويأتـي التأكيد على الالتزام بالمعاهدة التي عقدت عند المسـجد الحرام – بصورة خاصة –، فهي نافذة المفعول ما لم ينقضها الجانب الآخر:

((... إلا الذين عاهدتم عند المسـجد الحرام، فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم. إن الله يحب المتقين۞)) (١٤).

إذن: لـم تنته الدنيـا، ولم ينقلب الجانب المؤمن إلـى رواد حرب، وإنما لا معنـى لمعاهدة من جانب واحد.

وإعلان إلغاء المعاهدة لا يساوي الحرب، وإنما يساوي الاستعداد للحرب، الذي يمنع من الحرب.

٢- أعلن إمهال الجانب الآخر أربعة أشهر، وهي فرصة كافية للعدول عن الإصرار على الحرب:

((فسيحوا في الأرض أربعة أشهر...)) (١٥).

((فإذا انسلخ الأشهر الحرم، فاقتلوا المشركين...)) (١٦).

إذن: فلا حرب عاجلة من الجانب المؤمن، وإنما هو يعطي المبادرة للجانب الآخر، لينال أقصى حريته في قرار الحرب أو السلام.

٣- أعلن أن المعاهدة قابلة للتجدد من جانبه تلقائياً، بمجرد إعلان الجانب الآخر عودته إلى الالتزام بها:

((فإن تبتم فهو خير لكم، وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله...)) (١٧).

((... فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، فخلوا سبيلهم. إن الله غفور رحيم۞)) (١٨)، ((فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، فإخوانكم في الدين...)) (١٩).

إذن: فهذا الإعلان محاولة شريفة لإعادة الجانب الآخر إلى صوابه، ودفعه إلى الاستغناء عن الحرب بالسلام.

٤- أعلن أن إلغاء هذه المعاهدة لا يعني سلب حرية اتخاذ القرار عن رواد السلام وإن كانوا أفرادا، فالقادة لم يلتزموا بالمعاهدة ـ وعادة يحترق الأفراد بنار القادة – ولكن الجانب المؤمن لا يحرق الأخضر باليابس، فالباب مفتوح أمام أي فرد يريد السلام أن يحاوله، وسيوفره له الجانب المؤمن. فهو يتيح لكل فرد حرية اتخاذ القرار، وعلى هذا الأساس يتعامل مع القادة والأفراد سواء بسواء:

((وإن أحد من المشركين استجارك، فأجره حتى يسمع كلام الله، ثم أبلغه مأمنه...)) (٢٠).

إذن: فالجانب المؤمن داعية سلام، ويراه حقاً مشروعاً للجماعات والأفراد. وأما تجار الحروب، فعليهم أن يعلموا: أن الجانب المؤمن قادر على تطويقهم، وامتصاصهم، وممارسة الحرب ضدهم.

٥- أعلن كل ذلك في المؤتمر العالمي، لينور الرأي العام، ويضعه أمام مسؤوليته، عساه يسعى إلى حمل الجانب المشرك على العودة إلى المعاهدة:

((وأذان من الله ورسوله، إلى الناس يوم الحج الأكبر: أن الله بريء من المشركين ورسوله...)) (٢١).

٦- أعلن أنه إذا قام بحرب فعلية، إنما يقوم برد الاعتداء، والاعتداء بدءاً من الجانب المشــرك، والبادئ هو الظالم:

((ألا تقاتلون قوما: نكثوا أيمانهم، وهموا بإخراج الرسول، وهم بدؤوكم أول مرة...؟!)) (٢٢).

وأما اســتخدام ((براءة مــن الله))، ((قاتلهم الله))، ((يشــف صدور قوم مؤمنين))، ((إنما المشــركون نجــس))، ((اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً))... فهذه.. مواد تســتخدم في الحرب النفســية، ليعلم تجار الحروب مدى غنى الجانب المؤمن الباحث عن الســلام، حتى يتهيبوا المغامرة بالحرب، فلا يخوضوها إلا بعد ألف حساب... وحساب... والحساب يؤدِّي إلى التروي والأناة، وهما يمنعان من نشوب الحرب.

بالإضافة إلى: أن ذلك كله، واقع بالنسبة إلى جانب مؤمن، يقوده رسول يعبر عن الله.

وهنا... يرتسم سؤال:

هل الدين الحق يأذن بالعنف؟ وهل يمكن أن يكون العنف من الدين، ومن الله؟؟

والجواب:

أن العنف نوعان:

١- العنف الفعل، وهو العنف المســتأثر. والعنف المستأثر تصاعد مستمر في عنف أقسى، لأنه موجه إلى الداخل، أي: إلى الذات الإنســانية نفسها، ضد الإنسان الآخر الذي هو الوجه الثاني لـ (أنا). وإذا توجه عنف الإنسان إلى الذات، يتوسع، لأنه وليد التنافس والمزاحمة. وإذا انقاد الإنسان للتنافس، فإنه لا يقف عند حد لأنه لا يستطيع أن يغزل طريقه إلى القمة إلا إذا سقط كل الناس في دربه، ولا تطمئن فيه غريزة التنافس ما دام هنالك رأس واحد يرتفع أمامه.

وهذا العنف ليس موضوعياً، لأنه ليس ضد الطبيعة من أجل السيطرة عليها، ولا ضد العدو الأصيل الذي يحاول إنهاكه وإذلاله – وهو الشيطان –؛ وإنما هو عنف شخصي محض، عنف الآكل للمأكول.

وحين يتجسد هذا العنف في صيغة استيطانية، فيصبح نظاماً يجمع حوله المبررات – كالشرك مثلا –، فإنه ينحط من مستوى الإنسان إلى مستوى الوحش.

ومجرد القبول بهذا العنف – أو السكوت عنه – أشد خطراً منه، لأن العنف المستأثر – بذاته – ظاهرة قد تحدث بعوامل كثيرة، كبقية الأمراض الاجتماعية. وأما القبول به – أو السكوت عنه – لا يعني تمريره فحسب، وإنما يعني – إلى ذلك – تسويغه، وتوفير الإمكانية له ليتوسع ويترسخ، بتمييع الإرادة الإنسانية تجاهه، والانجراف فيه.

ومن هنا... كان الساكت عن الحق، شيطاناً أخرس.

٢- عنف رد الفعل، وهو العنف المحرر، والعنف المحرر تخفيف مستمر للعنف، لأنه موجه إلى الخارج، ضد العدو الأصيل – الشيطان – متجسداً في شخص؛ من أجل تصعيد الحياة إلى مستواها، وخلع الإنسانية على الناس.

ومهما يكن العنف المجرد قاسياً، فإن مسؤولية التضحيات لا تقع عليه، وإنما تقع على العنف المستأثر، لأنه رد فعل، فهو من نتائج الفعل – الذي هو العنف المستأثر –، وكل فعل يتحمل نتائجه.

أضف إلى ذلك: أن التضحيات التي يسببها العنف المجرد، أقل – بما لا يقاس – من التضحيات التي يسببها العنف المستأثر، لأنه إسقاط رأس واحد لترتفع كل الرؤوس، والعنف المستأثر إسقاط كل الرؤوس ليرتفع رأس واحد.

صحيح: أنه لا يمكن تفضيل العنف الأقل على العنف الأكثر، فليس هناك عنف أقل وعنف أكثر، إنما هنالك عنف ولا عنف. وأما العنف، فهو واحد قلَّ أو كثر، والموقف منه يجب أن يكون واحداً في الحالين، فنصف العنف أو ربعه... عنف كامل، تماماً... كالخير والشر، فليس هنالك نصف خير أو نصف شر.

ولكن: العنف المحرر ليس عنفاً، وإنما هو لا عنف، لأنه سعي لتخليص المجتمع من العنف، بتوجيهه إلى الطبيعة والشيطان، وجعل الإنسان رأس ماله الأعلى الذي تجري كل الحسابات على أساسه. وأما العنف المستأثر فهو عنف، لأنه سعي إلى تأسيس المجتمع على العنف: بدءاً من البيت والعائلة، ومروراً بالمؤسسات والتنظيمات الاجتماعية والثقافية والتشريعية، وانتهاءً بالحكم؛ بتوجيه العنف إلى الداخل، وجعل الإنسان رأس ماله الأدنى، الذي يرخص على مذبح كل الممارسات، حتى يسف به الهوان إلى أن يكفي مجرد كونه حاملاً لوجهة نظر غير رسمية، لينفى من الحياة الاجتماعية: سجنا، أو تشريداً، أو قتلاً...

فالدين الحق، لا يأذن بالعنف، ولا يمكن أن يكون العنف من الدين أو من الله، وإنما هو اللاعنف قد يتقمص صيغة العنف.

وصفوة القول: قتل الإنسان أكبر الجرائم العملية التي يعاقب عليها كل الشرائع والقوانين بعنف شديد، وهو – بالفعل – أكبر الجرائم العملية التي لا بد أن يعاقب عليها كل الشرائع والقوانين بعنف شديد، لأنه تعطيل لهدف الكون، فالكون وجد للإنسان، فإذا تعرض الإنسان للقتل فقد تعرض هدف الكون للعطل.

ومع ذلك: نجد كل الشرائع والقوانين، تفرغ خيرة الناس، وتزودهم بأفضل الأسلحة المصنوعة بالضرائب الرسمية المعقولة، وتدربهم، وتدفعهم إلى القتل بصورة علنية، وتكافئهم عليه... أ ليس ذلك غريباً؟!

ولكن: هنالك ظاهرة أخرى تشبهها في الغرابة، فالجرح مما يعاقب عليه كل الشرائع والقوانين بعنف، ومع ذلك: نرى كل الشرائع والقوانين تثقف خيرة الناس بالجرح، وتوفر لهم كل الإمكانات اللازمة، وتأمرهم بالجرح... والناس – أنفسهم – يسعون نحو الجراحين، ويدفعون إليهم الأموال ليجرحوهم، وهذه الظاهرة، غريبة أيضاً.

وظاهرة ثالثة: أن الناس يجهدون لكسب الأموال، ثم تأمرهم الشرائع والقوانين بدفع بعضها أو كلها، وهم يدفعونها بعمق الرضا.

هكذا... الكثير من ظواهر الحياة. فالحياة العامة أسست على التعامل، الذي هو الأخذ والعطاء، فكل أخذ يعادله عطاء معقول، تأمر به الشرائع والقوانين، أو تباركه، لأنه يؤسس الحياة العامة، وكل أخذ لا يعادله عطاء معقول، تطارده الشرائع والقوانين بعقاب، لأنه يربك الحياة:

فالقتل – الذي هو أخذ الإنسان من الوجود –: إن كان يعادله توفير الوجود للآخرين، فهو قتل صحيح، وإن كان بدون توفير الوجود على الآخرين، فهو قتل ملعون.

والجرح – الذي هو فتك بعضو ـ: إن كان مقابل تأمين الأعضاء الأخرى، فهو جرح واجب. وإلا، فهو جرح مكروه.

وأخذ الأموال من الناس: إن كان عوضاً عن مالٍ صحيح، فهو حلال. وإلا، فهو حرام.

الأفصح والقتل البدائي، هو الذي يعطل هدف الحياة، فتمنعه الشرائع والقوانين. والقتل التعاملي =

العقاب المناسب، فهو الذي يؤصل هدف الحياة، فتأمر به الشرائع والقوانين.

المحتوى والإطار

((أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله؟ ! لا يستوون عند الله، والله لا يهدي القوم الظالمين *)) . [(سورة التوبة: الآية ١٩)] .

في كل مجتمع متخلفون روحياً، كما في كل مجتمع متخلفون صحياً.

غير أن المتخلف قد يكون واقعياً في توقعه من المجتمع، فيرضى أن يعامل على أساس أنه متخلف، ولا يغضب إذا أعطيت الأفضلية للمتفوقين. وربما تزداد واقعيته، فيهلل لهم اعترافاً بتفوقهم.

وأما المتخلفون الذين يتوقعون من المجتمع أن يعاملهم كمتفوقين، فحسابهم عسير مع أنفسهم أكثر مما عسير مع المجتمع، فسرعان ما يتجاوزهم المجتمع، ولا يقف للإجابة على توقعاتهم، وإنما يتركهم يتجرعون توقعاتهم أو تجرعهم توقعاتهم.

فكلما لمع متفوق ينجز دوراً باهراً، تشاغلوا بدور باهر، ونعوا على المجتمع جهليه، لأنه يكبر ذاك.. ويحقرهم، وكأنهم إذا غالطوا أنفسهم غلطوا على المجتمع حسابه.

ويقف معهم القرآن وقفة موضوعية – في الآية – ليتأكدوا من أن المغالطات لا تغير شيئاً من الواقع.

صحيح: أن الأمة الحية يجب أن تتحرك، حتى لا يفوتها الدور، ولا تبدوا في غيبوبة: هائلة الحجم. ولكن: حركة تختلف عن حركة.

فالحركة نوعان – غالياً –:

١- الحركة حول النفس، وإلى جانب الأزمات. وهذا... هو النوع الأسهل والأتفه، إذ يبدو – معه – الناس يتحركون بينما هم في أمكنتهم، فهم يريدون إيهام أنفسهم – وأمتهم – بأنهم باذلون قصارى جهدهم، فيما هم يوجهون حركتهم إلى داخل الأمة كبراءة ذمة، لأنه – في خارج الأمة – ضائعة، كلحن بغير صدى. لأن العالم – خارج الأمة – لا يجري حساباته على أساس وقع الخطى ورنين الكلمات، وإنما يجري على أسا قياس الطاقات، فكل حركة لا تعبر عن طاقة قادرة على التأثير، صخب تائه.

٢- الحركــة نحو الهدف، وأمام الأزمات لمواجهاتهــا. وهذا... هو النوع الأصعب والأجدى، إذ يتقدم إلى ســاحة الأزمة، ويصبح طرفاً مباشراً فيها، ويتحمل مسؤوليته في إدارتها وتوظيفها لصالح الهدف الذي يسعى إليه.

ويكمل هذا التنويع تنويع آخر، هو أن الحركة نحو الهدف نوعان:

١- حركة غير محســوبة، تمليها نــزوة عاطفة أو نوبة انفعال. والذين يقومون بها يجدون أنفســهم في ســاحة الأزمة فعلاً، ولكنهم ليســوا طرفاً مؤثراً فيها وإنما طرفاً متأثراً بها، ولا يصبحون قوة فاعلة، وإنما ضحية خاســرة، فبينما يتقدمون إليها ليمدوا يد المســاعدة إلى غيرهم، سرعان ما يجدون أنفسهم متلفتين بحثاً عمَّن يمدُّ إليهم يد المساعدة.

٢- حركة محســوبة، تمليهــا إرادة عاقلة. والذين يديرونها يرون هدفهــم – منها – بوضوح، ويميزون وسيلتهم بدقة.

وهذه... هي طريق الالتزام المسؤول، الذي يستثمر الجهد المبذول، مهما كان قليلاً وهامشياً.

والآية تقارن – في اســتفهام استنكاري يرتسم أمام المتعنت – بين سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام من جهة، والإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في ســبيله من جهة أخرى: فســقاية الحاج وعمارة المســجد الحــرام، من الفرعيات الديكوريــة، التي لها الدور الأخير، ولا هدف منها غير المســاعدة على الحج. فيما الإيمان بالله واليوم الآخر، هما الأســاس الأول، والهدف الوحيد من كل العبادات. والجهاد في سبيل الله، هو الوسيلة الوحيدة لتحقيق ذلك الهدف الأساس. فلا قياس بين هذين النوعين من العمل.

ولكــن = وكأنمــا – يحاول القرآن إعــذار هؤلاء المتخلفين، الذيــن يقومون بهذه المقارنــة التبريرية، فيحذرهم بأنهم متخلفون، ويقف منهم موقف المعلم النصوح:

((لا يستوون عند الله)).

الإنسان بين القيم والمصالح

((قل: إن كان: آباؤكم، وأبناؤكم، وإخوانكم، وأزواجكم، وعشيرتكم، وأموال اقترفتموها، وتجارة تخشون كسادها، ومساكن ترضونها؛ أحب إليكم من: الله، ورسوله، وجهاد في سبيله؛ فتربصوا حتى

يأتي اللهُ بأمره، واللهُ لا يهدي القوم الفاسقين*)). [(سورة التوبة، الآية ٢٤)].

لكل شـــيء ثمن بقدره: فلا تولد حبة قمح، إلا إذا ضحَّت الشمس والأرض والهواء والماء... بشيء معادل لحبة القمح، ولا تسـقط قطرة من المطر على نبتة، إلا ويتحرك السحاب والهواء والبحر... بمقدار ما تتطلبه حركة قطرة، ولا يكسب الإنسان شبعاً أو رياً أو غيرهما...؛ إلا إذا كان قد بذل جهداً مساوياً لما اكتسب.

وهنالك من يريد الله والرســول والآخرة، ولكن من دون أن يدفع شيئاً، وهذا... ما لا يكون. فالكون – كله – منتظم بمقاييس، لا تخطأ حركة ذرة أو خلية: فمن أحبَّ شيئاً، وأراد تحقيقه، عليه أن يضحي بشيء قد أحبه من قبل. ومن أحب ولم يضحِّ له بحب سابق، فقد برهن على أن حبه الأول أقوى، وأنه لا يريد تحقيق حبه الثاني.

وبما أن عاطفة الإنســان تتحرك قبل عقله، فهو يحب – بعاطفته – كل ما ألف من آباء وأبناء وإخوان... ثم يحب – بعقله – الله ورســوله والآخرة. فإذا لم يضحِّ بحبه العاطفي، كان حبه العقلي ضعيفاً لم يبلغ قوة المحاولة. فهو لا يســتثمر ذاته حتى يتوقع نتيجة، وإنما ينتظر ما تمليه إرادة غيبية. ومعلوم، ما تمليه الإرادة الغيبية، لمن يتمسك بحبه العاطفي على حساب حبه العقلي.

وهذا... منشأ الصراع بين التجرد في التقييم والهوس في التقييم، أو بين الواقع وبين – ما تعودنا أن نسميه بـ – المصلحة. فللواقع أحكامه، وللمصلحة أحكامها، وكثيراً ما تتناقضان. ولا يمكن أن يتجاوب الإنسان مــع الواقع: إلا إذا ألغى مصلحته، فالمصلحة تعني صلاح الوضع القائم، وما دام الإنســان أسـير مصلحته لا يســتطيع التغيير، ولا يوجد الأفضل إلا بتغيير. بل ما دامت المصلحة توجِّه الإنسان، يكون الإنسان مجرد إرادة لتصوراته القديمة، فيوجه كل وضع شيء إلى طريق مشابه للذي كان عليه أو أسوأ، فيوجه أناس – ضد أنفسهم وغيرهم – لمصلحتهم، ويظلون يتخبطون ويئنون ما لم يتحرروا من المصلحة.

والإنســان يحتاج – في حياته – إلى الاســتقرار على ركيزة ثابتة، تلملم تلفتاته وبعثراته، وترد شــذوذه وانعطافــه؛ حتــى ينفض القلق مــن أعصابه وتصرفاته. ولا يمكــن أن تكون المصلحة هــذه الركيزة، لأن المصلحة – ذاتها – قلقة متقلبة، فهي تحتاج إلى ركيزة تثبتها. بينما القيم المنطلقة من الإيمان بالله، يمكن أن تكون هذه الركيزة، لأنها ثابتة مستقيمة.

ثم: أن المصلحــة إذا كانت قيمة تربك الحياة، لأنها تغري بالتزاحم، فالصراع، فيحتد التوتر، وتنفصم العلاقات التي بدونها يصبح كل فرد غريباً تائهاً، لا يجد من يطمئن إليه ويشاطره مشاعره.

ونقطة أخرى: إذا لبَّت المصلحة رغبة الفرد، بطر بها، فتجاوز على الآخرين. وإذا تنكرت المصلحة له، استبد به الشعور بالتفاهة، فاسترخص الحياة، ووضع لها حداً بالانتحار، فخسر رأس ماله.

فيما القيم المنطلقة من الإيمان، تقوم الحياة، فتنسق الأفراد في تلاحم عضوي صادق، فيأخذ كل عنصر حياتي حدوده، وينتهي التناقض.

فإذا سيطرت القيم على المصلحة، كان الالتزام والاطمئنان، وإذا سيطرت المصلحة على القيم، كان الانحلال، وتقننت الجريمة. فلا بد أن تبقى المصلحة موجهة بتوجيه القيم، وأن تبقى القيم سيدة إرادة الإنسان.

والآية، تأخذ بالخطوط الرئيسة للمصلحة، وتعمل لتركيزها في مكانها المناسب. وتأخذ بالخط الرئيس للقيم – وهو الإيمان –، وتعمل لإعطائه مكانه المناسب.

ومن جهة ثانية: تعمل الآية لفرز الأفراد، على ضوء مواقفهم، فلا بد أن يعلن كل فرد موقفه: فأما أن يقف في صف الإيمان، وأما أن يقف في صف المصلحة، ولا يمكن أن يضطرب بين الصفين، إلا إذا شاء أن يخسر الجانبين.

ومدرسة (أرسطو) تذهب إلى أن القائد الصالح، لا يصدر منه إلا الصالح، فلا يتصرف – في مجال النظام والشعب – إلا التصرف الصالح. ومتى التزم جانب الصلاح، يكون النظام والمجتمع صالحين، وهو يحميهما من الانحراف والانجراف. وهذه النظرية، بقيت – مع منافستها – في عالم النظريات والحوار البيزنطي: فالقائد الصالح، لا يعد منفذاً صالحاً ما دامت له مصالح ورغبات يجب تحقيقها، ولا يوجد نظام يحدده ويكشف ما له وما عليه، والأفراد والجماعات، لا يصلحون مشرعين – مهما حاولوا التحليق إلى المثاليات – ما داموا لا يستطيعون التحرر المطلق من مصالحهم ورغباتهم.

والحق – في هذا المجال – أنه: لا النظام الصالح وحده، ولا القائد الصالح وحده، يستطيع صياغة المجتمع الصالح. بل لا بد من تداعم النظام الصالح والقائد الصالح – معاً – في صياغة المجتمع الصالح. وهما لا يستطيعان ذلك، ما لم تحرسهما القوة المطلقة، التي لا تنتابها المصالح والرغبات.

أساس المجتمع الصالح

{ (هو الذي أرسل رسوله بـ: الهدى، ودين الحق. ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون *) }. [(سورة

التوبة، الآية ٣٣) .

تختلف النظريات في تحديد أساس المجتمع الصالح: فمدرسة (أفلاطون) ركزت (المدينة الفاضلة) على أساس النظام الصالح، مدَّعية أن النظام الصالح يقود المجتمع وقادته إلى الصلاح، وأن الشعب – متى عرف النظام الصالح – يحرسه، ويراقب قادته، فيصون المجتمع من التأرجح والانهيار.

وهذه المدرسة فشلت، و (المدينة الفاضلة) بقيت حلماً إلى جانب النظرية التي انبثقت منها: فالنظام الصالح لو وجد، سرعان ما يشوهه القادة، بالملاحق التي يذيلون بها نصوص النظام. كما شوه الحكام الزمنيون وذيولهم، نصوص القرآن، بالتفسيرات المصلحية والأحاديث المختلقة.

ومن هنا... كانت الحاجة إلى التدخل الإلهي المباشر، في وضع النظام الصالح وحمايته، وتعيين القائد الصالح ورعايته.

وهكذا... كان التدخل الإلهي المباشر، بإرسال القائد، لا بتعيينه فقط. فالقائد الصالح يصمم عند الله، وعندما يكمل بناؤه يرسل لقيادة البشر. ويعبر عن ذلك، الرسول الأعظم بقوله: ((كنت نبياً وآدم بين الماء والطين)) (٢٣) ، كما تعبر عنه التعبيرات القرآنية: ((أرسل رسوله)). إذن: فالله ((هو الذي أرسل رسوله)).

وهكذا... كان التدخل الإلهي المباشر بإنزال النظام الصالح من عنده إلى البشر (بالهدى ودين الحق).ثم كان التدخل الإلهي المباشر، برعاية القائد الصالح. فالقائد البشري ـ مهما تسامى ـ يبقى قائداً بشرياً معرضاً للتأرجح، لولا الرعاية الإلهية:

((ولولا أن ثبتناك، لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً ﴿)) (٢٤) . فكانت العصمة، شرطاً أساسياً من شروط القائد الأعلى.

وكان التدخل الإلهي المباشر، بحماية النظام الصالح. فالبشر – بتركيبته المعروفة – يحاول أن يعلو على كل شيء حتى لا يبقى عليه حاكم، فإذا ترك له النظام فإنه لا يترك النظام على وضع معين، فيكون النظام معرضاً للتجاوب مع كل تقلبات البشر:

((إنا – نحن – نزلنا الذكر، وإنا له لحافظون ﴿)) (٢٥). . فكانت الحماية الإلهية، شرطاً أساسياً من شروط النظام الصالح.

هكذا... أرسل الله الرسول شفعاً بالقرآن، ولم يكتف بأحدهما عن الآخر، ثم عصم الرسول وحفظ القرآن لتأسيس المجتمع الصالح.

ومن بعد الرسول، قام بدوره أهله الأطهار، وأعلن استمرار أهله بدوره قائلاً: (إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي) (٢٦).

وهكذا... أرسل الله القائد والنظام معاً، حتى يتكامل الحاكم المؤلف من شقَّي: القائد والنظام، ليكون الإسلام أقوى وأمتن من كل النظريات والمبادئ الحاكمة في المجتمع:

((ليضهره على الدين كله))، سواء أ كان مما يسمى ديناً أو مما يسمى نظرية ومبدأ...

((ولو كره المشركون۞)) الذين لا يريدون الإخلاص لله، وإنما يشركون معه غيره من مصالحهم ورغباتهم، فيريدون أن يعبدوا الله وأنفسهم، ويكرهون أن يروا أنفسهم تحت سلطة حاكم كامل من شقَّي القائد والنظام.

الهجرة، والنبي، وأبو بكر

((إن لا تنصروه فقد نصره الله : إذ أخرجه الذين كفروا ، ثاني اثنين إذ هما في الغار ، إذ يقول لصاحبه : (لا تحزن ، إن الله معنا) . فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هي العليا ، والله عزيز حكيم*)) . [(سورة التوبة ، الآية ٤٠)] .

- ١ -

((إن لا تنصروه)) أيها المسلمون! فلا تظنوا أنكم تخذلونه بتخليكم عنه، فانتصاراته ليست من صنعكم، وإنما هي من صنع القوة المطلقة، من صنع الله الذي زوَّده بقوة ((الحكمة)) (٢٧) في تصريف الأزمات، وبقوة (العسكرية السماوية): ((جنود لم تروها)). نصره في أحرج المواقف التي استبدت به في حياته. فهو منصور بالله، كنتم أو لم تكونوا حوله، والله الذي نصره يوم لم تكونوا معه، لا يتخلى عنه إذا تخليتم عنه. ((فقد نصره الله)) في أشد موقف يمكن أن يتصور، وكانت مواصفات ذلك الموقف كما يلي:

١- كان مشرداً من وطنه: ((إذ أخرجه الذين كفروا)) من مكة = موطنه: الذي سمع استهلاله وهو يعلن دخوله في حلبة الحياة. وشهد خطرات صباه وهو يسابق الريح، أو يتخطى الرقاب في جوار الكعبة حتى

يطمئن إلى أحضان جده (عبد المطلب).

وسـجل تلفتات فتوته وهو يرمي الأصنام المسـندة فوق الكعبة بنظرات ازدراء حيناً، ويلف أسـياد مكة الذيـن يرتعون في مقدرات الجماهيـر بنظرات عارمة حينا آخر، ويحتضن الجمـوع بالكوابيس والأغلال بنظرات إشـفاق ثالثاً. وردد نبضات نبوته، وهي تخترق جدران السـجون التي حصر الناس فيها مطامحهم، وتكسر الأغلال التي قيدوا بها مواهبهم...

إنه يودع – بحسـراته الملتهبة المكظومة – موطنه الذي: روّى رماله الظامئة بعاطفته الرقيقة، ونثر على روابيه المجندة حول الكعبة، ذكرياته وأفكاره وأحلامه؛ عن قيمة الإنسان، وكرامة الحق، وقدرة الإيمان بالله علـى الترفيع والتطوير. يترك – الآن – موطنه المفعم بأصدائه، بدون أبهة أو هيبة، مع أحد أفراده، بشـكل متواضع لا يميزه عن صاحبه، حتى لو نظر إليهما ناظر لم يعرف لهما أولاً وثانياً، وإنما كل واحد منهما أحد اثنين، وكل منهما ((ثاني اثنين))، ماشـيين على الأقدام، يخترقان الظلام، يختبئان في الهوينا، ويتوجسان فـي نقل أقدامهما، عبر الرمـال المتقلبة والصخور المتعجرفة، تاركاً عنفـوان الظلام. اتجه إلى الصحراء، تاركاً كل رأس ماله من الدنيا، وكل عدته لرسالته: (علياً – فاطمة) (عليهما السلام) في بيت، ترعاه شفرات السـيوف كالأهداب على العين، فلا ينبض قلبه بومضة سـيف حول قلبه، الذي حمل عاطفة قلبه وعصارة فكره: (علي – فاطمة) (عليهما السلام).

٢- كان محصوراً – هو وصاحبه – في (غار ثور):

((إذ هما في الغار))، بعيداً عن كل أقربائه وأنصاره، قريباً من كل الاحتمالات، أعزل بلا زاد أو راحلة.

٣- كان معزولاً، لا يجد حتى من صاحبه الذي معه، لا سـلوة ولا كنفاً، وإنما كان صاحبه بحاجة إلى سلوته وكنفه:

((إذ يقول لصاحبه: لا تحزن))، فصاحبه حزين يشعر بأنه خسر كل آماله. وصاحبه لم يكن خائناً، وإنما كان حزينـاً، لأن الخـوف هو توقع مكروه لم يقع، والحزن هو التفجيع على مكروه قد وقع، فمن يخشـى أن ينكل به عدوه فهو خائف، وإذا نكل به عدوه حزن على معاناته. وقد كان موسـى بن عمران خائفاً (يوم الزينة) فقال الله له:

((لا تخف، إنك أنت الأعلى﴾)) (٢٨)، لأنه كان يخشى تنكيل (فرعون).

وكان صاحب النبي حزيناً في الغار فقال النبي له:

((لا تحزن، إن الله معنا))، لأنه كان يعاني خسارة ثمار جهوده السابقة. فما كان في موقف يهيئه لإسداء أي عون إلى النبي، وإنما كان النبي يجد نفسه مضطراً إلى اعتزال التفكير في نفسه، والتهيؤ لإسداء العون إلى صاحبه، وتذكيره بأن آماله التي تبخرت بمرافقة النبي لا تعني خسارة، فمع النبي كل شيء، معه الماضي الميت منشوراً في المستقبل المتحفز، فلا حزن مع النبي:

((إذ يقول لصاحبه: لا تحزن)) على ما فاتك، فـ:

((إن الله معنا))، وهو كل شيء.

في هذه الأزمة الخانقة، نصر الله نبيه، فأنزل عليه قوتين:

١- قوة روحية لمواجهة الأزمة بمعنوية أعلى من الأزمة:

((فأنزل سكينته عليه)) حتى يتصرف – هو – في الأزمة فيديرها كما ينبغي، ولا تغمره الأزمة فتحجب رؤيته، وتدفعه إلى اتخاذ موقف مترجرج.

٢- قوة مادية دفعت (قريش) عن اقتحام الغار، بعدما تتبعت آثاره، واستهدت إلى الغار. ولعل فعل (العنكبوت) التي نسجت على فتحة الغار. وفعل (الحمام) الذي عشش وباض عندها؛ كانا من مظاهر نلك القوة المادية:

((وأيده بجنود لم تروها)).

وهكذا... ألقى الله خطة الكافرين على الماء، فأحبط تآمرهم، وأعلن أن إرادتهم ساقطة مهزومة:

((وجعل كلمة الذين كفروا السفلى)). وأما إرادة الله، فهي الإرادة العليا التي لا تطاول، مهما تكاثفت المكائد وتركزت: ((وكلمة الله هي العليا)) فلا يمكن أن ترجرج أو تهزهز.

((والله عزيز حكيم۞)).

- ٢ -

١- إعطـاء الدور الثانوي للنبي الأعظـم (ص) في لقطتين من لقطات هذه الآيـة، وإعطاء الدور الأول لصاحبه فيهما، رغم أن صاحب القضية هو النبي لا صاحبه؛ دلالة على أن القرآن أراد إبراز صاحب الرسول بهذه الصورة. فلقطات هذه الآية – كلها – مركزة على شخص الرسول:

((إن لا تنصروه))، ((فقد نصره الله))، ((إذ أخرجه الذين كفروا))، ((فأنزل الله سكينته عليه))، ((وأيده بجنود لم تروها)).

وهنالك لقطة مشتركة:

((إذ هما في الغار))، تمهيداً لانتقال العدسة إلى صاحبه. فارتكزت العدسة على صاحبه في داخل الغار:

((ثاني اثنين))، ((إذ يقول لصاحبه: (لا تحزن، إن الله معنا))).

فالهجرة هي قضية الرسـول وحده، ليس لصاحبه دور فيها. فالعدسـة – في: أصل الهجرة، ومقدماتها، وتوابعها – مرتكزة على الرسـول وحده. ولكن في داخل الغار، حيـث توقفت حركة الهجرة مؤقتاً، لتتابع المسيرة بعد استراحة المهاجر؛ فإذا بالعدسة تنتقل إلى صاحب المهاجر، لتظهره حزيناً على تحقق الهجرة، والنبي ينهاه عن حزنه، ويحذره فإذا النبي ثاني الاثنين وصاحبه أول الاثنين، وإذا للنبي دور المعزي والناهي والمحذر، وصاحبه صاحب القضية فهو حزين.

٢- إن النهي عن الخوف، يدل على:

أن الحزن لم يكن على النبي، وتألب المشركين عليه، وإلجائه إلى الهجرة. لأن مثل هذا الحزن، فضيلة لا ينهى النبي عنها.

ولم يكن الحزن على تركه بلده وأسـرته خلفه، وهجرته – هو – تحت تأثير شـخصية الرسول، وأمره باتباعه. لأن الحزن على ترك البلد والأسرة، حزن مشروع أذن الله – تعالى – في القتال على أثره:

((أذن للذيـن يقاتلون، بأنهم ظلموا، وإن الله على نصرهـم لقدير ۞ والذين أخرجوا من ديارهم بغير

حق، إلا أن يقولوا: (ربنا الله)...)) (٢٩) ؛ فلا ينهى النبي عنه.

وعندمـــا نجد أن النبي نهـــاه عن الحزن، وأقر الله نهي النبي فأثبته في القـــرآن؛ نعرف أنه كان حزناً غير مشـــروع يضع علامة الاســـتفهام على هذا الموقف من صاحب رســـول الله. وإصرار القرآن على إبراز هذا الموقف، دون أن يكون موقفاً مشرفاً، يؤكد صحة علامة الاستفهام هذه.

٣- أن تكتيك النبي في هجرته، يرتكز على انفراده بالهجرة. فلم يخبر أياً من المسلمين بهجرته، ولم يستصحب – معه – أحداً من المقربين منه. حتى (أبا ذر) الذي كان مع النبي ساعة هجرته، وخرج مع النبي من داره؛ لم يستصحبه الرسول، وإنما أبقاه في مكة، وسار في الطريق وحده. و (أبو بكر) بالذات، لم يخبره الرسول بنيته الهجرة، ولا طلبه لمصاحبته في هجرته. ولكنه، عندما فوجئ به في الطريق، استخدم تكتيكاً آخر، فاستصحبه، بينما لم يستصحب ـ حتى ـ (أبا ذر). وهذا التكتيك الجزئي المغاير لتكتيكه العام، يضع علامة استفهام جديدة على هذا الشخص بالذات.

٤- النبـــي لم يكن حزيناً ونزلت عليه الســـكينة، وصاحبه كان حزيناً ولم تنزل عليه الســـكينة. رغم أن القرآن كلما ذكر نزول السكينة على النبي، عممها على من معه، كما عممها في قصة واقعة بدر:

((... فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين...)) (٣٠).

٥- إن جملة ((إن الله معنا)): إن وردت بعد الأمر أو ما هو في مقام الأمر – كالتشجيع على شيء – كانت للتطمين، كما لو ورد (قاتل، فإن الله معنا) وأما إذا وردت ؟؟ النهي أو ما هو في مقام النهي ـ كالشفيري شيء للتحذير كما لو ورد لا تحزن فالله معنا أي لا ؟؟ فان الله معنا وهو يراقبنا ويسجل حركاتنا ويحاسبنا ويعاقبنا عليها وفي هذه س؟؟؟؟؟؟أو الانطلاق من هذا الحزن في تحرك كان النبي يوجس صدوره منه، ويمنعه من القيام به. وهذا... ما يضع علامة استفهام ثالثة على موقفه: لماذا كان حزيناً؟ وماذا كان النبي يتوجس منه؟

٦- تكتيـــك النبي في هجرته؛ أن لا يطلع المســـلمون على هجرته. وأن لا يســـتصحب معه أحداً، لما يلي:

أ) حتى لا يتسرب الخبر بمكانه؛ أو مسيره إلى الطريق، فيزعجوه.

ب) أن يبقى المسلمون في داخل مكة ليثيروا المشاكل الداخلية على المشركين، أو يكون وجودهم في مكة تهديداً بإثارتها، حتى لا يرتاح بال المشركين من الداخل، فيوجهوا قوتهم للقضاء على النبي – ومن

معه – في الطريق. والمسلمون غير مستعدين لقتال، فإبقاء المسلمين داخل مكة نوع من إلهاء المشركين بالداخل، حتى لا يسهل لهم الهجوم على المسلمين في الخارج. ولم يستثن من هذا التكتيك عدا صاحب الغار، لسبب واحد هو: أن النبي فوجئ به في الطريق، ولم يكن وضعه كوضع أبي ذر، حتى يستطيع صرفه، والاستمرار في هجرته وحده، كما فعل بأبي ذر.

- ٣ -

في ثلاث لقطات الأولى، العدسة مركزة على النبي (ص) والقضية هي قضية الهجرة، والمشاهد كما يلي:

- الرسول مطارد.
- الكفار يخرجونه من بلده.
- المسلمون يتخلون عن نصرته.
- الله يتدخل فينصره.

والرسول – في هذه المشاهد – هو البطل الذي تدور الأحداث من حوله، وله الدور الأول. وفجأة، وفي مضاعفات مشاهد الهجرة، تقفز قضية أخرى صغيرة ولكن حساسة، وهي قضية حزن صاحب الغار. فحجبت دور الهجرة، فتركزت العدسة عليه، وأعطي للنبي دور ثانوي، وجاءت المشاهد:

- يبرز صاحب الغار، فيكون أول الاثنين، ويكون الرسول ثاني الاثنين.
- صاحب الغار حزين، والرسول يعزيه.
- الرسول ينهاه عن الحزن.
- الرسول يعده بأن الله معنا.

وبعد ذلك، تعود العدسة والأضواء لتتركز من جديد على رسول الله:

((فأنزل الله سكينته عليه...))

وهنا... تتبادر أسئلة:

س:

١- على ماذا كان حزيناً؟

ج: لعله كان شريكاً في المؤامرة، فحزن على فشل المؤامرة.

س:

٢- مـــا هو الذي يربط بين حزنه وبين قول النبي له – معزيا –: ((إن الله معنا))؛ والحزين لا يعزى بمثل ذلك، وإنما يعزى بمثله الخائف؟

ج: لعل النبي كان يريد أن يقول له: (إن أدوارك لا تنتهي بفشـــل المؤامرة، فلك جولات قادمة باســـم الله والإسلام).

س:

٣- صاحب الغار كان حزيناً والرسول معزياً، فلماذا أنزل الله سكينته على رسوله دون المعزى؟

ج: لعل حزنه كان يؤثر على مســـيرة الهجرة، وتنقلب نتائجه على رسول الله الذي كان صاحب الهجرة، فطمأنه الله بأن المناورة بالحزن لن تؤثر على مجرى الهجرة.

الساقطون في التجربة

((فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا، وتزهق أنفسهم وهم كافرون *))
[(سورة التوبة، الآية ٥٥)]

نعـــم... يريـــد الله ليعذبهم، ولكن نتيجة لســـوء تصرفهم، فهي إرادة نتيجيـــة لإرادة مبدئية. فأنت – يا

محمد! – لا تتأسف عليهم، لأن الأسف على الشخص ينتج من استمرار الأمل فيه، وهؤلاء خرجوا من دائرة الأمل فقد سقطوا في التجربة، وقطعوا على أنفسهم خط الرجعة، وانتهى أمرهم – بإرادتهم – إلى الانغلاق كالمريض إذا مات، لا يداوى، لأنه انتهى.

الصدقة صدق عملي

((إنما الصدقات ل: الفقراء، والمساكين، والعاملين عليها، والمؤلفة قلوبهم، وفي الرقاب، والغارمين، وفي سبيل الله، وابن السبيل. فريضة من الله، والله عليم حكيم*)). [سورة التوبة: الآية ٦٠].

(الصدق) هو الاستقامة الواضحة في: الحديث، أو في العمل، أو في غيرهما... فكل شيء لا التواء فيه ولا غموض، فهو صدق؛ حتى ولو كان جماداً: فالجدار المتداعي داخل مظهر قوي متين، جدار كاذب. والمتظاهر بواقعه، صادق. وإن كان الصدق يظهر – بسرعة أكبر – في الحديث منه في الأعمال والأشياء.

و (الصدقة) هي الوحدة الصادقة من العمل: فكلمة حق، صدقة. وكلمة علم، صدقة. وكل ما يقوم به إنسان تجاه الآخرين – إذا كان تعبيراً دقيقاً عما ينطوي عليه – صدقة...

فليست (الصدقة): يداً عليا مستطيلة ببخس العطاء، ويداً سفلى متوسلة بذل السؤال. إنما هذه... صورة مشوهة، يوحي بها سوء استعمال كلمة (الصدقة) في غير معناها النزيه.

الذنب واقع، يستدعي استغفاراً واقعياً

((استغفر لهم أو لا تستغفر لهم؛ إن تستغفر لهم سبعين مرة، فلن يغفر الله لهم. ذلك: بأنهم كفروا بالله ورسوله، والله لا يهدي القوم الفاسقين*))[(سورة التوبة، الآية ٨٠)]

-١-

(الذنب) ممارسة غير صحيحة من جملة ممارسات الإنسان. وكل ممارسة من ممارسات الإنسان، تخلع على كيانه المزدوج: الروحي والجسدي، أثرها. فكما أن كل طعام يتغذى به يولد فيه خلايا معينة، وكما أن كل هواء يستنشقه يوجد فيه تفاعلات محددة، وكما أن كل حركة يبعثها ترفد إليه طاقة خاصة...؛ هكذا.. كل ممارسة يباشرها تترك فيه أثرها الطبيعي.

وكما أن الأكل والاستنشاق والحركة، تنقسم إلى: صحية ملائمة للتركيب الكيمياوي للجسم، وغير صحية متنافرة مع التركيب الكيمياوي للجسم – حسب مقاييس الصحة –، كذلك الممارسات تنقسم إلى:

صحيحة ملائمة للتركيب المعنوي للروح، وغير صحيحة متنافرة مع التركيب المعنوي للروح – حسب مقاييس الشرع –.

وكما أن مقاييس الصحة لا تفرض أشياء وهمية، وإنما تنظر وقائع تفاعلات التركيب الجسمي؛ هكذا... مقاييس الشرع لا تفرض أشياء وهمية؛ وإنما تنظر وقائع تفاعلات التركيب الروحي.

وكما أن آثار الأعمال الصحية وغير الصحية، تبقى ثابتة في الجسم، ولا تزول بشتى المحاولات، ولكن قد تغطى وتستر؛ كذلك: انعكاسات الأعمال الصحيحة وغير الصحيحة، تبقى ثابتة في الروح، ولا تزول بشتى المحاولات، ولكن قد تغطى وتستر.

وكما أن الأعمال غير الصحية، تولد انحرافاً في الجسم نسميه بالمرض – الذي يعني تحطماً في الخلايا الحية للجسم –؛ هكذا... الأعمال غير الصحيحة، تولد انحرافاً في الروح نسميه بالذنب – الذي يعني تراجعاً إلى الذيل للروح –. فالذنب يؤدي إلى رجعية، تترك تخلفاً لا يمكن محوه، وإنما يمكن تغطيته فقط، وعملية التغطية هي عمليه الغفران. كما أن المخالفة الصحية تؤدي إلى صمود، يترك تخلفاً لا يمكن محوه، وإنما يمكن تغطيته فقط، وعملية التغطية هي عملية المداواة.

وكما أن الله – سبحانه – يشفي من الأمراض بالمزيد من الممارسات الطبية، التي تغطي آثار الممارسات غير الصحية؛ ونسميها بالمداواة؛ كذلك: الله – سبحانه – يهدي من الذنوب بالمزيد من الممارسات الصحيحة، التي تغطي انعكاسات الممارسات غير الصحيحة، ونسميها بالتوبة.

وكما أن هنالك خبراء في الجسم نسميهم بالأطباء، هكذا... هنالك خبراء في الروح نسميهم بالأنبياء.

وكما أن الله يشفي بعملية المداواة، لا بمجرد الندم على الممارسات غير الصحية، كذلك: الله يتوب بعملية التوبة، لا بمجرد الندم على الممارسات غير الصحيحة.

فالذنب والتوبة والغفران، ليست من المعاني الميتافيزيقية، وإنما هي وقائع في مجال الروح، تماماً... كالمخالفة الصحية ومراجعة الطبيب والمداواة، في مجال الجسم.

وكما أن الطبيب لا يستطيع منح الشفاء طالما المريض مصرٌّ على المخالفة، هكذا... النبي لا يتسنى له الغفران طالما المذنب مصرٌّ على المخالفة. فكيف إذا كان المريض مصراً على الانتحار، أو إذا كان العاصي مصراً على الكفر – الذي هو انتحار الروح؟؟!!

إذن: فالتوبة عملية التصحيح، لا كلمة: (تبت إلى الله)، ولا انحناءة ندم؛ كما أن الاستشفاء عملية التصحيح، لا كلمة؛ (عدلت عن المخالفة)، ولا صدمة مخالف.

والاستغفار عملية التغطية: لا مجرد: (أستغفر الله)؛ كما أن الاستشفاء عملية التغطية، لا مجرد: (أستشفي الله).

فالله يغفر ولا يغفر سواه. كما أن الله يشفي ولا يشفي سواه. وأمامه مجال الروح ومجال الجسد سواء، سواء في السلبيات أو في الإيجابيات، في المخالفات أو في الالتزامات. وعملية التوبة والاستغفار، عملية إيجابية، تماماً... كعملية المداواة والاستشفاء.

فالنبي مهما حاول غفران الكافر لا يتسنى له، كما أن الطبيب مهما حاول مداواة المنتحر لا يستطيع. لا لقصور النبي أو عجز الطبيب، وإنما لفقدان المشاركة المفروضة بين مصدر التوجيه ومورد التوجيه، تلك المشاركة التي أعلن القرآن حتميتها بقوله:

((... ولو أنهم – إذ ظلموا أنفسهم – جاؤوك، فاستغفروا الله، واستغفر لهم الرسول، لوجدوا الله تواباً رحيماً ۞)) (٣١).

فاستغفار الرسول – وحده – لا يجدي، كما أن إرشاد الطبيب – وحده – لا يجدي. وهكذا العكس: فاستغفار العاصي – بدون توجيه الرسول – لا يكفي، كما أن استشفاء المريض – بدون إرشاد الطبيب – لا يكفي.

وبكلمة أدق: عملية الغفران من جملة الأعمال الكونية – في مجال الروح – والله تعالى جعل للأعمال الكونية نظاماً لا يخترقه. وهذا... يبدأ بتحرك الإنسان في الخط الصحيح، الذي ينتهي إلى الهدف الذي يحاوله، فلو انحرف عن ذلك الخط – عمداً أو خطأً – لا ينال هدفه:

فلو زرع وأخطأ الزراعة، أو صنع وأخطأ الصناعة، أو تاجر وأخطأ التجارة...؛ لا يحصل نتيجة من عمله، مهما توسل وتضرع إلى الله، لأن الله أتم حجته عليه عندما أوضح له سننه في الحياة.

هكذا... العمل الروحي – باعتباره جزءاً من الأعمال الكونية – فله خط لو انحرف الإنسان عنه، عمداً أو خطأ، لا ينال هدفه: فلو صلى وأخطأ الصلاة، أو جاهد وأخطأ الجهاد، أو زكى وأخطأ الزكاة، أو استغفر وأخطأ الاستغفار...؛ لا يحصل نتيجة من عمله، مهما توسل وتضرع إلى الله، لأن الله أتم حجته عليه عندما أوضح له سنته في الحياة. نعم... يحصل نتيجة التوسل والتضرع، ولكن تفوته نتيجة العمل الذي أخطأه.

وربما يشير – إلى نوعية معاملة الله للعباد الذين يتجاوزون سنته، ويضغطون على التوسل والتضرع، حتى يغير الله لهم سنته – حديث الإمام الصادق (ع):

(أربعة لا تستجاب لهم دعوة: رجل جالس في بيته يقول: (اللهم! ارزقني)، فيقال له: (أ لم آمرك بالطلب)؟!، ورجل كانت له امرأة فدعا عليها، فيقال له: (أ لم أجعل أمرها إليك)؟!، ورجل كان له مال فأفسده، فيقول: (اللهم! ارزقني)، فيقال له: (أ لم آمرك بالاقتصاد؟! أ لم آمرك بالإصلاح؟! ثم قال: ((والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا، وكان بين ذلك قواما ۞)) (٣٢)، ، ورجل كان له مال فأدانه بغير بينة، فيقال له: (أ لم آمرك بالشهادة)؟!) (٣٣).

وقول النبي للأعرابي الذي لم يداو بعيره، معتذراً بأنه يداويه بالدعاء: (أضف إلى الدعاء شيئاً من القار) (٣٤)، ،وقوله للأعرابي الآخر الذي أرسل بعيره، معتذراً بأنه تركه متوكلاً على الله: (اعقل وتوكل) (٣٥)...

وإذا اتضح أن الجانب الروحي من الأعمال الكونية، كالجانب المادي من الأعمال الكونية؛ ظهر – بوضوح–:

أن من يطلب المغفرة بمجرد التوبة الشفوية، يشبه من يطلب الزرع بمجرد الزراعة الشفوية، وظهر: أن كل تغيير – روحي أو مادي – عمل، لا كلام. وأن دور الكلام، هو دور التعبير، لا دور التغيير. ويجهر القرآن بهذا الواقع:

((إلا الذين تابوا – من بعد ذلك – وأصلحوا، فإن الله غفور رحيم ۞)) (٣٦).

فأنت – يا رسول الله! – لا تحاول في المحل غير اللائق فـ:

((استغفر لهم أو لاتستغفر لهم)) سواء، فأنت رغم ما منحك الله من قدرة عظيمة على التصحيح، ((إن تستغفر لهم سبعين مرة))، وتمارس سبعين لوناً من المحاولة، تذهب محاولاتك سدى، لأنها من محاولات في المحل غير اللائق، ((فلن يغفر الله لهم))، لعدم التجاوب من جانبهم.

ولا تقــل أنا أحاول، ويكفينــي – خدمة لهم – أنني حاولت، فلتكــرس المرونة فيَّ بمحاولة حتى ما لا يتحقــق من أجلهم، وليكرس التعنت فيهــم برفضهم كل المحاولات الحميدة والبناءة المبذولة لخدمتهم فالمحاولات الحميدة للمتعنتين، تصور لهم أنك في مركز الضعف، وأنهم في مركز القوة. وجدير بمثل هذا الموقف، أن يزيد من تعنتهم.

ولا تقس موقفك من الكافرين، على موقف إبراهيم الخليل من عمه (آزر)، حيث استغفر له رغم كفره، لوجود الفارق من جهتين:

١- إن إبراهيم كان قد وعد (آزر) بالاستغفار له – في حالة خاصة، لحق سابق لآزر على إبراهيم، حيث تولى تربيته – فإذا كان إبراهيم لا يســتغفر له بعد وعده إياه، كان إخلافاً منه بالوعد، وعقوقاً لمعنى الأبوة التي تمثلت فيه. وأنت لم تعد أحداً من الكافرين بالاستغفار له، لعدم وقوعك في حالة مماثلة:

((مــا كان اســتغفار إبراهيم لأبيه)): عمه الذي تولــى تربيته، فاعتبر أباه، ((إلا عــن موعدة وعدها إياه)) (٣٧).

٢- إن إبراهيــم عندمــا وجد التعنت من عمه، حدد من تعنته بقطــع كل صلاته به، وفي قطع ابن الأخ صلاتــه بعمه ما يحدد من تغطرســه. وأنت لســت قريباً من الكافرين، حتى يكــون قطع صلاتك بهم أثيراً فيهم:

((فلمــا تبين له)): لإبراهيم، ((أنه)): عمه، ((عدو لله)) وســادر في غيه، ((تبــرأ منه)) (٣٨) فقطع كل صلاته به.

- ٢ -

س: – هــذه الآية، ومجموعة من الآيات، تدل على أن اســتعداد المغفــرة كان متوفراً في النبي لكثير من المنحرفين، ولكن الله كان يمنعه من الغفران.

مثل قوله: ((ولا تصل على أحد منهم مات أبداً، ولا تقم على قبره...)) (٣٩). . ومثل قوله: ((ولا تقم فيه أبداً...)) (٤٠)...

فهل يعني ذلك، أن النبي أسرع مغفرة وأوسع رحمة؟

ثم: الشفاعة تعني، عدم وجود المبرر للرحمة من قبل الله لولا الشفيع:

((ولسوف يعطيك ربك فترضى ۞)) (٤١). . فهذه... تدل على أن المغفرة لإرضاء النبي؟

ج: إن النبـــي (ص)، رحمـــة مهداة من الله إلى العالمين، فهو يمثـــل بعض رحمة الله. فالله يريد أن يرحم، ولكنـــه يريد أن لا يحطـــم المقاييس التي قررهـــا للكون، فيوجد المبـــررات لإيجاد التطابـــق بين الرحمة والمقاييس. والنبي والشفاعة، من جملة تلك المبررات.

وهنالك حقيقة تســـاعد على بيان الموضوع، وهي: أن رحمة الله مطلقة لا يغيب عنها شـــيء، وبالمقابل عـــدل الله مطلق لا يغيب عنه شـــيء، وهذان المطلقان يلتقيان بمطلق ثالـــث هو حكمة الله، وهي التي تنظم الرحمة والعدل وفق المقاييس التي قررها بحكمته.

والنبـــي معلم البشـــرية جمعاء، ولكنه بحاجـــة إلى توجيه الله في تنظيم صفاته حتـــى لا تخرج من دائرة الحكمة، كما هو بحاجة إلى وحي الله في نطقه حتى يبقى خارج محيط الهوى:

((وما ينطق عن الهوى ۞ إن هو إلا وحي يوحى۞)) (٤٢).

فليس من حقه أن يستأثر بها أو أن يحتكرها، وإنما من حق المجتمع عليه أن يسيرها...

مدخل إلى الآيات

(من ٨١ إلى ٩٦)

هذه الآيات تدور حول الذين يتهربون من مســـؤولياتهم، ويتذرعـــون بأعذار. والأعذار لا تعدو أن تكون كلاماً، والكلام لا يغير شـــيئاً من الواقع. فبعد الاعتذار يظلمـــون – كما كانوا من قبل الاعتذار – مقصرين، والمقصر آثم. لأنه جمع بعضاً من طاقات المجتمع: الاقتصادية، أو السياســـية، أو العســـكرية، أو غيرها...؛ ولم تكن ملكاً له، وإنما كان شـــريكاً، بمقدار ســـعيه فقط، لا بمقدار ما جنى من مســـاعي الآخرين. فطالما شـــاءت الظروف أن يســـيطر عليها، فليس من حقه أن يسيرها في مجاريها المتناســـبة، إلى تحقيق أهداف المجتمع.

والمعذرون من الأعراب – إذ يحتكرون ما يستولون عليه من طاقات المجتمع، ويسخرونها لأنفسهم،

ثم يمنعونها من المجتمع، صاحبها الحقيقي – هؤلاء... ســراق، يســرقون طاقات المجتمع وأهدافه. فهم – في منطق القرآن – رجس:

((ســيحلفون بــالله لكم – إذا انقلبتم إليهــم – لتعرضوا عنهم. فأعرضوا عنهــم، إنهم رجس، ومأواهم جهنم؛ جزاء بما كانوا يكسبون ﴿)) (٤٣).

ويستثني من المعذرين أربعة أصناف من الناس:

١- الضعفاء، وهم العجزة من الكبر.

٢- المرضى، بالأمراض التي تقعدهم عن القيام بواجباتهم العامة.

٣- الذين لا يجدون ما ينفقون.

ولكنهم معذورون، إذا كانت منطلقاتهم سليمة. فمع أنهم لم يتحركوا تحت القيادة الصحيحة للمسلمين، ولكنهم ظلوا معاً بمواهبهم الفكرية والبلاغية، فأعطوا ما يملكون من فكر وكلمة:

((ليــس على: الضعفاء، ولا علــى المرضى، ولا على الذين لا يجدون مــا ينفقون؛ حرج إذا نصحوا لله ورسوله. ما على المحسنين من سبيل، والله غفور رحيم ﴿)) (٤٤).

فهؤلاء... لا يؤاخــذون على قصورهم، لأنهم وضعوا مواهبهم تحت القيــادة الصحيحة والإرادة العامة، ولكن مواهبهم كانت محدودة، ومحدودية المواهب ليست تقصيراً، بل هؤلاء... يصنفون في المحسنين، و ((ما على المحسنين من سبيل))، لأن طاقاتهم في الإحسان كانت قليلة.

٤- الذين تحركوا بكل مواهبهم العضلية والفكرية، ولكنهم لم يحققوا هدفاً، لأن الموقف كان يستدعي طاقات أكبر:

((ولا علــى الذين – إذا أتــوك لتحملهم، قلت: (لا أجد ما أحملكم عليــه) ـ تولوا وأعينهم تفيض من الدمع، حزناً أن لا يجدوا ما ينفقون ﴿)) (٤٥).

هؤلاء.. معذورون، رغم أنهم لا ينجزون شيئاً لأنهم من سقط التاج.

فالناس ثلاثة أقسام:

١- ينتج كثيراً، ولكنه يسيطر على قليل ويستهلك قليلاً.

٢- ينتج كثيراً أو قليلاً، ولكنه يسيطر على أكثر مما ينتج، ويستهلك كثيراً أو قليلاً.

٣- ينتج قليلاً أو لا ينتج، ولكنه يسيطر على أقل مما يحتاج.

فالقسم الثاني يأخذ الفائض من القسم الأول، فعليه أن يدفعه إلى القسم الثالث، حتى يسير المجتمع – كله – بأمان.

فإذا رفض أن يحمل القسم الثالث، فإن القسم الثالث يسخر – بفكره – القسم الأول: (العمال، والفلاحين، والطلبة...)، ويثوران على القسم الثاني، لإبعاده عن موقعه، وربما تصفيته.

المعذرون

((وجاء المعذرون – من الأعراب – ليؤذن لهم، وقعد الذين كذبوا الله ورسوله. سيصيب الذين كفروا – منهم – عذاب أليم *)). [(سورة التوبة، الآية ٩٠)]

للكائنات الحية سيرة حسنة في تطويق نقاط الضعف، وهي تركيز ما يمكن من الطاقات لإخراجها من منطقتها وإعادتها إلى منطقة القوة، ثم الاستغناء عنها إن فشلت المحاولة لعاهة قاهرة.

وهذه السيرة جارية في النبات، وحتى الجماد، ولكنها تبدو أكثر وضوحاً في الحيوان. فكلما تعرض عضو حيواني لإصابة، تفتحت الشرايين فيه، ونشطت حركة الدم ومشتقاته، وبدا العضو متورماً، في محاولة – بحجم الإصابة – لإزالة آثار الإصابة، وإنقاذ العضو من العطل. فإن استجاب العضو للمحاولة، وإلا سحب الجسم نشاطه، وأعلن استغناءه عن العضو الكسول، ورشحه لمبضع جراح يبتره. فالجسم الحي، لا يتحمل عضواً عاطلاً، يحسب عليه ولا يتجاوب معه.

وكما هي سيرة الكائنات الحية، فهي سنة الأمة الإسلامية، لأنها كيان حي تجري عليها سنن الحياة. فهي تركز على المستفيدين الذين يريدون الإسلام ملجأ يحتمون به، ولا يريدونه نظاماً يتحركون به.

ويختار القرآن – هنا – أسلوب تسليط الأضواء عليهم، لإسقاط الأقنعة التي يبررون بها كسلهم، وكشفهم للرأي العام، علهم يحتشمون أو يتهيبون من معاملة الرأي العام الإسلامي لهم كمحسوبين، فيعودون إلى الأمة كأعضاء منسجمين.

وعادة المستفيدين: أنهم من صميم الأمة عند الرخاء، ويختلقون الأعذار في الشدة.

فالأعذار المختلقة، لا تبرر الغيبة عن مقدرات الأمة وكما يريد أي فرد أن يشترك في المكاسب العامة، كذلك: تريد الأمة أن يشترك كل فرد في الضرائب العامة.

إذن فلا اعذار مختلقة في الإسلام، وهذه الآية ترفض الأعذار المختلقة.

وإذا أردنا أن نتبع سيرة الكائنات الحية، نجدها ترفض قبول الأعذار الواقعية: فالشجرة لا تمد الغصن المعطل بالغذاء، وتغري به مقص التشذيب. والجسد يهمل العضو المشلول، ويتركه للجفاف...؛ فهل يمكن أن تعترف أمة حية بأصحاب الأعذار، مهما كان نصيبها من الواقعية؟!

ويكفي الأمة الإسلامية إنسانية أنها تنظر في المعذرين، وترصد للصادقين منهم الصدقات. ولكنها لا يمكن أن تساويهم بغير المعذرين، وتبقيهم في أدوارهم. فالعذر يسقط صاحبه من دوره، أو يسقطه من الأمة.

إذن: فلا عذر مختلق في الإسلام.

المنافقون من الصحابة

((ومن حولكم من الأعراب، منافقون، ومن أهل المدينة. مردوا على النفاق. لا تعلمهم، نحن نعلمهم. سنعذبهم مرتين، ثم: يردون إلى عذاب عظيم*)). [(سورة التوبة، الآية ١٠١)]

((و)) جمع ((من أهل المدينة)) – كأهل أية مدينة أخرى – باعتبارهم مجموعة من البشر. وأية مجموعة بشرية، تبقى متنافرة المواقف من أية فكرة – جديدة أو قديمة –، مهما تناسقت وتظافرت عليها دواعي التناسق وعوامل التوحد، لأنها مؤلفة من البشر. والبشر مختلف المواقف من كل شيء، وإن اتحد غذاؤه الفكري، كما أنه مختلف الأشكال وإن اتحد غذاؤه الجسمي؛ تبعاً لاختلاف نواه الروحية كاختلاف نطفه المادية.

واختــلاف النوى يؤدي إلى اختلاف النتائج، مع وحدة المــوارد التي يتغذى بها. وكما يصح ذلك في النبــات والحيــوان – مع تعدد الأنواع – يصح ذلك في البشــر مع تعدد الأفراد، لاختــلاف تيارات الأرواح وتراكيــب النطــف. ونتيجة لاختلاف تيــارات الأرواح وتراكيب النطف، فجمع من أهــل كل مدينة – ومن ضمنهم أهل المدينة – ((مردوا)) وجبلوا ((على النفاق)). لأن الصراحة والنفاق سجيتان من السجايا البشرية المتنافرة، تبعاً لتنافر ذاتيات البشر وتياراته الروحية. فالمنافق (٤٦) يجد – في ذاتياته – ما يريحه إلى الرقص على حبلين، كما أن المصارح يجد – في ذاتياته – ما يريحه إلى توحيد مخبئه ومظهره.

والمنافقون – عادة – أذكياء، لأن غير الأذكياء لا يستطيعون التفريق بين مخبأهم ومظهرهم، وينكشفون – بسرعة – إذا لبسوا قبعتين.

والمنافقــون – عادة – يوظفون أقصى ذكائهم، حتــى يغطوا عليك، فيحكموا عملية الالتفاف، ويظهروا أمامك بموقف يختلف تماماً عن موقفهم الواقعي وراءك، دون أن تكتشفهم.

فأنت – يا محمد (ص)! – ((لا تعلمهم))، ولا تكشــفهم بذكائك البشــري الطبيعي، الذي يفسر الناس على ظواهرهم، وينظر إلى الناس – جميعاً – بمنظار واحد. وإنما ((نحن)) – يقول الله تعالى – ((نعلمهم)). وأنت بحاجة إلى أن نســلط نحن عليهم الضوء = الإيكس، لتــرى ضمائرهم الغامضة، ومواقفهم الداخلية المعاكسة.

ونحن ســوف لا نتركهم يلعبون بمقدرات الناس كما يحلو لهم، بل ((ســنعذبهم مرتين)): مرة في الدنيا بكشفهم لك – وللرأي العام من خلالك –، وحبط خططهم الجهنمية التي طالما أرهقوا أنفسهم لتمريرها، وإســقاط اعتبارهم حتى يتجنب الناس منهم حتى فيما يصدقون، فيصبحوا منبوذين. وذلك: بإظهار نواياهم عبر كلمات وحركات تنفلت منهم، فتلقي الضوء على هويتهم المكتومة؛ كما قال الإمام علي (ع): (ما نوى امرؤ شيئاً إلا وظهر في: صفحات وجهه، وفلتات لسانه) (٤٧).

ومرة في الآخرة، بجعلهم في الدرك الأسفل من النار (٤٨).

شهيد المعركة، وشهيد خدمة

((إِنَّ اللهَ اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون. وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن، ومن أوفى بعهده من الله؟ ! فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به، وذلك: هو

الفوز العظيم *

التائبون، العابدون، الحامدون، السائحون، الراكعون، الساجدون، الآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر، والحافظون لحدود الله. وبشر المؤمنين *)).

[(سورة التوبة، الآيتان ١١١ – ١١٢)]

(الموت) هـو انتهاء طبيعي لدورة الحياة، في هيكلية معينة من مركبات الأحياء. فيموت الإنسـان، كما يموت الحيوان، وكما يموت النبات، بل وكما يموت الشـهاب وتموت النجمة، وكما تموت الخلية، وكما تموت الصخرة بتفرق أجزائها، وكما تموت المركبات الصناعية، وكما يموت كل شيء مما خلقه الله... سواء في ذلك: المركبات المادية، والمركبات الطاقية. فلكل شيء أجل، إلا لخالق الأشياء، فهو خالق الآجال، فلا يحتويه أجل. ولا يمكن الهروب من الموت، لأنه من سنن الله في خلقه.

والموت بالنسبة إلى الإنسان على أقسام:

١- الموت الطبيعي. وهو الذي يحدث نتيجة لتعطل أحد الأجهزة الرئيسـة في الجسـم، لانتهاء قدرته الطبيعية على مواصلة العمل، وهو ما يسمى بالموت حتف الأنف.

٢- الموت شـبه الطبيعي وهو الذي يحدث نتيجة لتعطل بعض الأجهزة الرئيسـة في الجسم، لعارض في الطبيعة العامة، يؤثر على الفرد، كالطوارئ الكونية من: الزلازل، والانفجارات، والانهيارات، والبراكين، والفيضانات، والحرق، والغرق، والحر، والبرد...

ويلحق بها: الأمراض، والآفات، والعاهات...

٣- المـوت = القتل. وهـو الذي يحدث بدون إرادة المقتول، بل بـإرادة القاتل. كالقتل الذي يقع بفعل الطواغيت، والحيوانات المفترسة.

٤- الموت = الانتحار. وهو الذي يحدث بإرادة المقتول نفسـه. سـواء: أ كان بفعله هو، كتناوله المواد المميتة. أو بتعرضه لما يؤدي إلى قتله. كإلقاء النفس في التهلكة.

ويلحق به: ارتكاب الجرائم التي تؤدي إلى قتله ولو كان قصاصاً.

٥- الموت = الشهادة. وهو الذي يحدث نتيجة لتحدي الظالمين، الذين يحاولون تغيير حكم من أحكام الله.

والقسم الأول: لا ثواب عليه، ولا فضيلة له. لأنه مجرد انتهاء، لا أكثر.

والقسم الثاني: يثاب عليه المقتول، لتحمله انحراف الطبيعة دون أن يكون له يد في ذلك الانحراف. ولكن لا فضيلة له، لأنه لم يستقبل الموت بإرادته.

والقسم الثالث: وإن كان يكفر عن ذنوب المقتول، لأنه ذهب كفارة ذنبه من حيوان أو إنسان؛ إلا أنه لا فضيلة له أيضاً لأنه ذهب بلا هدف.

والقسم الرابع: يعاقب عليه المقتول، لأنه تعاجز عن تحمل سلبيات الحياة، ورفض الحياة التي هي تحية الله إلى خلقه، وأهم عطية من عطاياه.

والقسم الخامس: يثاب عليه المقتول، وله فضيلة كبرى. لأنه أرخص حياته في سبيل تنفيذ إرادة الله في الأرض.

وهنا... نستطرد إلى ذكر أمرين:

١- الشهيد على قسمين، شهيد معركة وشهيد خدمة:

فشهيد المعركة، هو الإنسان الذي يراق دمه دفعة على أرض معركة، يتقابل فيها الحق والباطل من خلال جبهتين.

وشهيد الخدمة، هو الإنسان الذي ينفق دمه قطرة... قطرة... لأداء خدمة رسالية، من خلال بناء شخصية أو تثقيف جاهل.

وفي المعركة: الضحية شهيد، والبطل مجرم والمستفيد من الشهادة غيرهما ممن اعتبر بتلك الشهادة.

وفي الخدمة: الضحية شـــهيد، والبطل هو المســـتفيد من الشـــهادة، أي: ذلك الشـــخص الذي تلقى شخصيته أو ثقافته من الشهيد.

وشـــهيد المعركة وإن كان يقتل مرة، وشـــهيد الخدمة يقتل كل لحظة مرة؛ إلا أن المقصود من (الشهادة) الواردة في القرآن والســـنة، هي شـــهادة، رغم أن بعض مصاديق شـــهيد الخدمة، قد يكون أفضل من شهيد المعركة، كشهيد (العلم الديني) الذي أشار إليه الحديث: (مداد العلماء، أفضل من دماء الشهداء) (٤٩).

٢- الشـــهادة تكـــون – غالباً – في مجتمع يتمـــزق ويتعذب، ويتحكم فيه الأغبيـــاء، وتفرض معادلات القوة نفســـها على مصائر الشـــعوب. فيندفع أصحاب القيم نحو الموت، ليشـــهروا منه ســـلاحاً على منطق القوة، واســـتبداد الأنانية. فتكون الشـــهادة تأكيداً للمعنى في مقابل المادة، وللعام الإنساني في وجه الخاص الحيواني.

والإنسان حين يحتضن هموم أمة وآمالها، لا يبقى هو ذاته، وإنما يتجاوز حدوده المادية، ومحاور الزمان والمكان، وعلاقات السبب والنسب، ويكبر... ويكبر... حتى يسع الأهداف التي حققها، ويتجرد ليدخل كل العقـــول والقلوب التي حرَّكها فيغدو رمزاً معبراً عن المعنى الإنســـاني في أنقـــى حالاته. وهذا... هو الخلود الحياتي.

فالخلود – في هذه الدنيا – أن يتحول إنسان أو حادث، إلى حقيقة دائمة التفاعل مع الناس، فيعودوا إليه كلما ألحَّ بهم القحط والجدب، فيلبي حاجة دائمة في العقل والقلب، ويرفد المطامح والآمال.

دروس من غزوة (تبوك)

((لقد تاب اللّٰه:

على النبي،

والمهاجرين والأنصار، الذين اتبعوه في ساعة العسرة، من بعدما كاد يزيغ قلوب فريق منهم. ثم تاب عليهم، إنه – بهم – رؤوف رحيم *

وعلى الثلاثة الذين خلفوا. حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم، وظنوا أن لا

ملجأ من الله إلا إليه . ثم تاب الله عليهم ليتوبوا . إن الله هو التواب الرحيم *)) .

[(سورة التوبة : الآيتان ١١٧ – ١١٨)]

هذه الآية تعرض مضاعفات الأزمة وذيولها – من خلال الأزمة التي عصفت بالمسلمين في غزوة: (تبوك) – فأما مضاعفات الأزمة، فهي أن أية جماعة تتعرض لأية أزمة، تنقسم فيها إلى ثلاثة فرقاء:

١- فريق يمتص الأزمة، فيرشح للمكافأة.

٢- فريق يستسلم للأزمة، فينهزم، فيرشح للعقاب.

٣- فريق يتردد، فيرجف، ولكن لا ينهزم، فيرشح للعتاب.

وأما ذيول الأزمة، فهو تتلخص في مواقف القائد الأعلى من هذه الفرقاء الثلاثة:

فهل يكافأ الفريق الأول؟

وهل يعاقب الفريق الثاني؟

وهل يعاتب الفريق الثالث؟

والله – تعالى – يكافئ الفريق الأول، على سنته في مكافأة الحسنة بعشر أمثالها. ويفتح – أمام الفريق الثاني والفريق الثالث – باب الاعتذار، طالما كانوا نادمين على سوء نيتهم.

١- لأن الأزمة قد انطوت بفضل الفريق الأول، فلماذا خسارة هذين الفريقين؟

٢- لأن فتح صفحة جديدة أمامهما، قد يساعد على محاولتهما محو العار الذي لحقهما، بأعمال إيجابية.

٣- لأن تعريض الفريق الثاني للعقاب والفريق الثالث للعتاب، يؤدي إلى شقهما عن تلك

الجماعــة، وتكتلهما في جانب معاكس، وقيامهما بأعمال ســلبية. خاصة: وإن هذين الفريقين يشــكلان أكثرية الجماعة – غالباً –، لأن الصامدين قليلون، وليس هناك إلا المنهزمون والمترددون.

وفي معالجة ذيول الأزمة – بهذه الموضوعية الهادئة – توجيه تربوي للقادة، بعدم معالجة ذيول الأزمات بالعاطفة، وتوزيع العقاب والعتاب بالجملة.

- ((لقــد تــاب الله على النبي)). لم يخلق الله من هو أطوع مــن النبي لله، وهو خير صفوة الله من خلقه، وخيــر مــن رضي الله عنهم ورضوا عنه، وكان النبي – منذ ميــلاده – مرضياً عند الله، ولم يرتكب – في أي حين – ما يحجب مرضاة الله عنه. فمنذ كان، كان مغموراً بمرضاته تعالى وتحصيل الحاصل محال، فكيف تاب الله عليه؟

١- إن ((ساعة العسرة)) كانت تجربة جديدة للنبي، كما كانت تجربة لأصحابه، مع الاحتفاظ باختلاف مســتوى التجربة: فتجربة النبــي كانت تجربة القائد مع المقود. وتجربة أصحابــه، كانت تجربة المقود مع القائد، لاختبار مدى ثباته أمام الزعازع. فالتجربة تكون لتصعيد المستوى: فهي بالنسبة إلى القائد، لتصعيد مســتوى قيادته. وبالنســبة إلى المقود، لتصعيد مستوى انقياده. فلما تصرف النبي في ((ساعة العسرة)) كما ينبغي، وخرج من التجربة بنجاح؛ أزلفته إلى الله موجة جديدة من مرضاته تعالى.

٢- صحيح أن الله كان راضياً عن النبي منذ ميلاده، ولكن بما أن (ســاعة العســرة) كانت تجربة صعبة للمهاجرين والأنصار، وكان انقيادهم للنبي في هذه الساعة نجاحاً كبيراً لهم؛ أجازهم الله بجائزتين:

أ) رضاه عنهم.

ب) عرض رضاه عن النبي وعنهم في تعبير واحد، لإشــعارهم بدقة تقييم الله لموقفهم. فكما وقفوا مع النبي في تلك الســاعة، اعتبــر الله نبيه أحد أفراد هذه المجموعة التي عبرت التجربة بنجاح، فأشــملها الله برضاه عنها. ومن أقصى أنواع التكريم، أن يســتعرض الله أعظم أنبيائه مع عدد من خلقه؛ لمرضاته تعالى. ومعنى ذلك: أنه فضلهم على هذه البلايين المتلاحقة من خلقه.

((و)) هل تــاب الله على جميع ((المهاجرين))، وهم كل الذين هاجروا إلــى (المدينة المنورة) ليكونوا مع النبي، سواء أ كانت هجرتهم من (مكة المكرمة) أو من غير مكة. وعرضهم الله بعد النبي مباشرة، لأنهم نجحوا في ســابقة، هــي تجربة (الهجرة)، فرضوا التضحية ببلادهم – وبكل ما يشــدهم إليها من علاقات – من أجل إعلاء دينهم؟

((و)) هل تاب الله على جميع ((الأنصار))، وهم أهل (المدينة) الذين وضعوا تحت تصرف النبي أنفسهم – وكل ما لهم، وفي حوزتهم – لنصرة دينهم؟

كلا... وإنما تاب الله على ((الذين اتبعوه)): النبي، ((في ساعة العسرة))، من المهاجرين والأنصار، لا عليهم جميعاً. فكل عمل رتيب كدقات ثابتة، ينقل خطواته على أرض واضحة؛ تكون قيمته محدودة، ولا تبلغ مرضاة الله.

وأما العمل الإبداعي، الذي يرمي في مجاهل المستقبل الغامض لتطويره؛ فلا بد أن تتربص به أزمة في كل مخبأ: فإذا شق طريقه عبر الأزمات، تكون قيمته غير محدودة فتقابل بمرضاة الله. وإذا تقهقر بالهزيمة، عد خيانة كبيرة، تخفض معنويات المبدعين، الذين يسابقون الزمان.

وكل عمل حياتي، يعتمد على القلائل الذين يعرفون كيف يوظفون شحنات الأزمات في عزائمهم، ولا يعرفون انهيار المنهزمين. وهم – في كل عمل كبير – أفراد معدودون بأصابع اليد الواحدة – ربما –، وربما بأصابع اليدين، ولكنهم – غالباً – لا يتجاوزون هذا العدد. وهم المحرك والوقود، أما الجماهير التي تلتف حولهم: فليست أكثر من القشور والأوراق التي تلتف حول اللباب والثمر، وليست أكثر من الأشواك التي تحفظ الورود من الأفواه والأقدام؛ لا بد من وجودها:

١- لأن يكون للعمل حجم محترم، ووزن يبرر دخوله في الموازين.

٢- لأن يكون لأولئك الأفراد العاملين أرضية وعمق. فالجماهير أرضية يمكن للعاملين أن يقفوا عليها، ويظهروا من خلالها – لأن العاملين أفراد مجهولون من الجماهير، تكتشفهم التجارب – والجماهير عمق للعاملين، تمدد وجودهم، وتوسع أفقهم في المناورات.

ولكن العاملين يبقون هم المحرك والوقود، اللذين بدونهما لا تجدي الجماهير، وهم الذين تاب الله عليهم.

((من بعدما)) تصاعدت الأزمة فانهزم من انهزم وتردد من تردد، حتى بلغ فعل الأزمة أن ((كان يزيغ قلوب فريق منهم)) عن أصل الإسلام.

وهؤلاء المنهزمون والمترددون، يشكلون القسم الفاشل في التجربة.

((ثم)) لما هدأت المشاعر، وسكنت خفقات الأرواح؛ لم يعرض المنهزمين والمترددين للعقاب والعتاب، وإنما ((تاب عليهم))، وقلب الصفحة، وفتح لهم صفحة جديدة، ((ليتوبوا))، فيثبتوا حسن نواياهم بأعمال إيجابية في المستقبل.

التقوى، والقيادة الصادقة

أرضية العمل الصالح

((يا أيها الذين آمنوا! اتقوا الله، وكونوا مع الصادقين ★)).

[(سورة التوبة: الآية ١١٩)]

-١-

لخط المؤمن الحياة جزءان:

١- التقوى من الله، بتنفيذ إيمانه في المجال العملي، لـ:

أ) أن الإيمان لا يحصر في القلب، وما القلب إلا جزء من الإنسان. فإذا آمن الإنسان آمن قلبه وآمنت جوارحه كلها، وإذا لم يؤمن الإنسان لم يؤمن – كله – قلبه وجوارحه. أما أن يؤمن قلب الإنسان ولا تؤمن جوارحه فقط، فمعنى ذلك تناقض الإنسان لنفسه، فكيف يمكن أن يؤمن القلب وهو قائد ولا تؤمن الجوارح وهي جنود؟ فإذا لم تؤمن الجوارح دلَّ على عدم إيمان القلب.

ب) أن الإيمان طاقة، فإذا لم تمارس تضاءلت وتلاشت، كأية طاقة في الإنسان: فالعلم إذا لم يمارس يفقد معالمه، والقوة البدنية إذا لم تمارس ترجع إلى الحد الأدنى، والذاكرة إذا لم تمارس تفقد فاعليتها... والإيمان إذا لم يمارس، أصابه الضمور.

ج) أن الإيمان ليس مجرد معلومات عن الله والكون والحياة، حتى يمكن أن يبقى قائماً بنفسه من دون تعبير عملي عنه. وإنما الإيمان نور يشرق في القلب، نتيجة للمعلومات الصحيحة عن الله والكون والحياة. وهذا النور إذا أشرق في القلب بصيص منه، يلزم تغذيته بالعمل الصالح، حتى يبقى ويقوى. وإذا انقطع عنه الإمداد العملي، وناقضه السلوك؛ خفت وانطفأ، وترك مكانه لظلام الكفر.

د) أن الإيمان كيف يمكن أن يكون في القلب ولا يتأثر به الإنسان في عمله؟! والإنسان يتأثر حتى بأبسط معلوماته:

فلو علم أن هذه المادة (سم) تجنبها، وإذا علم أن تلك المادة (دواء) تجرعها... وإذا خالف بعض معلوماته لمؤثرات متناقضة، فلا يخالفها باستمرار، ولا يخالف إذا تأكد من شدة الضرر وكثرة المنفعة، وإنما يتهاون في الأمور البسيطة إهمالاً لها، أما في الأمور الحاسمة فيحتاط، حذراً من أبسط مخالفة، ومن احتمال مخالفة. فكيف يمكن أن يكون الإنسان مؤمناً، ويعرف المخاطر الرهيبة والمنافع الهائلة، ثم يخالفها باستمرار؟! ومن أين ينبع العمل، إلا من القلب؟! فإذا كان القلب مؤمناً فكيف يوحي بالإجرام؟!

ولذلك ورد في الحديث: (الإيمان: تصديق بالجنان، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان) (٥٠). فمن أراد ان يكون مؤمناً دون لسانه أو دون أركانه، فليطمئن إلى أن الإيمان الواقع ليس في قلبه أيضاً، وإنما هو إيمان وهمي يتخيله، ليوقف تأنيب الضمير، من باب خداع النفس.

فالذي يقول: (نظف قلبك)، إنما يسوِّل لنفسه شيئاً لا يعترف به – هو – في أي مجال حياتي:

فإذا كان مديراً لدائرة، فهل رضى أن يكون موظفوه مخلصين له بقلوبهم ومخالفين له بأعمالهم؟!

وإذا كان رب بيت، فهل يقبل من أبنائه أن يتوددوا إليه ويناقضوه في كل تصرفاتهم؟!

وإذا كان صاحب معمل، فهل يوافق أن يكون عماله موالين له حتى درجة الفداء، و – في نفس الوقت – سراقاً مهملين كاذبين محتالين؟!

وإذا كنا لا نقبل ممن تحت أيدينا شيئاً، فكيف نريد أن يقبله الله منا؟!

ثم: كيف يمكن تنظيف القلب، إلا بالعمل؟! فإذا كانت الأعمال – كلها – نكراء قذرة، فبم ينظف القلب؟!، إن القلب يوحي بالعمل المناسب ويستلهم من العمل المناسب، فالتجاوب ثابت بين القلب والعمل، فإذا ساء أحدهما دلَّ على سوء الآخر، وإذا حسن أحدهما دلَّ على حسن الآخر، ولا يمكن فصل حساب أحدهما عن حساب الآخر، إلا إذا أمكن فصل المؤثر عن المتأثر، وتجزئة الدليل عن المدلول.

٢- اتباع ((الصادقين)). فالصادقون الذين عينهم الله لقيادة عباده، يحصنون المؤمنين من الزلل والانحراف: فمن سار معهم، لا يتسرب إليه الهوى في تحديد الخط العام. ومن شذَّ عنهم، تملي عليه

مصالحه خطأ، كلما سار فيه ازداد بعداً عن الخط السوي.

ثم: إن الالتزام بالخط القيادي جزء مهم من الدين، وربما يكون الجزء الأهم، كما توحي به مجموعة من الروايات.

فهذان الأمران: (التقوى، واتباع الصادقين)، يؤديان إلى النتيجة المرجوة، وهي صلاح الأعمال. والأعمال التي يصلحها (التقوى واتباع الصالحين) ليست الأعمال العبادية فحسب، وإنما هي أعمال الإنسان كلها، الدينية والدنيوية على حد سواء. ومن لم يصلح الدين دنياه حريٌّ به أن يعيد النظر في دينه، ومن لم يؤمن دينه دنياه الظاهرة الواضحة كيف يمكنه الاطمئنان إلى أن دينه يؤمن آخرته المستورة الغامضة؟!

أوليس في الحديث: (من لا معاش له لا معاد له) (٥١) ؟!

وقد قال أمير المؤمنين (ع): (إن المتقين أكلوا الدنيا بأحسن ما أكلت، وسكنوها بأحسن ما سكنت، ونكحوها بأحسن ما نكحت...) (٥٢).

نفير معركة، ونفير فكرة

((وما كان المؤمنون لينفروا كافة.

فلولا نفر من كل فرقة – منهم – طائفة: ليتفقهوا في الدين، ولينذروا قومهم – إذا رجعوا إليهم – لعلهم يحذرون*)).

[(سورة التوبة: الآية ١٢٢)]

هذه الآية تصنف النفير إلى نفيرين: نفير معركة، ونفير فكرة. فالنافر إلى المعركة، يقاتل أذناب الشيطان، ليدافع عن نظام إيماني. والنافر إلى فكرة، يقاتل أشباح الشيطان، ليدافع عن عقيدة إيمانية. والنفير الأول يحتاج إلى كمال جسماني، والنفير الثاني يحتاج إلى كمال عقلاني. وإذا كان الكمال الأول متوفراً لأكثر الناس، فالكمال الثاني نادر ندرة العقلاء.

فلا يحق لكل المؤمنين أن يتطوعوا للقتال، كما لا يحق لهم – جميعاً – أن يتجندوا للعلم، وإنما هنالك مواهب ترشح للأعمال: فالذين يتمتعون بالكمال الجسماني، عليهم أن يتطوعوا لحمل السلاح. والذين

ينعمون بالكمال العقلاني، عليهم أن يتجندوا للتبليغ والإنذار.

(١٠)

سورة يونس

مكية

وهي مئة وتسع آيات

أولياء الله

((ألا . . .

إن (أولياء الله) : لا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون *

الذين : آمنوا ، وكانوا يتقون *

لهم البشرى في : الحياة الدنيا ، وفي : الآخرة .

لا تبديل لكلمات الله . ذلك : هو الفوز العظيم *))

[(سورة يونس : الآيات ٦٢ – ٦٤)]

((ألا)) فانتبهـوا – أيهـا الناس! – إلى: ((أن أوليـاء الله)) يتمتعون بنفوس شـامخة، تتجاوز – بمداها – كل التأثرات. فـ ((لا خوف عليهم))؛ لأنهم لا يأبهون بالإصابات الجسدية، ((ولا هم يحزنون))؛ لأنهم لا ينهزمون للانهيارات الروحية.

لأن أولياء الله، هم: الذين أنموا صلتهم بالله – تبارك وتعالى...، حتى أصبحت واقعية، لها فاعلية عملية، فيتعاملـون – بتلك الصفة – مع ما حولهم من الأشـياء والأفكار ومن وثقـت صلته بما وراء الطبيعة، حتى استطاع التصرف بها في الطبيعة، يزهد في كل شيء، حتى في: جسده واعتباراته الخاصة لأنه لا يعيش بها، ولا يعيش لها، وإنما يعيش – حياته الخالدة – بما هو أقوى وأشمل: فيعيش لها دون سواها.

فمن هم أولياء الله ؟

(الوليُّ) هو: صاحب (الولاية)، الذي يتمتع بالصلاحية التي تخوِّله (حق التصرف) بلا منازع: فـ: (ولي اليتيم)، من له صلاحية في تصريف شؤونه المختلفة. و (ولي الوقف)، من له هذه الصلاحية بالنسبة إلى العين الموقوفة. و (ولي الله)، من له هذه الصلاحية – من قبل الله – على الكون، فيستطيع التصرف في الشؤون الكونية المختلفة، بدون استخدام الوسائل المادية، وإنما بمجرد الإرادة، ففي (الحديث القدسي) – عن جبرائيل، عن الله تعالى: (عبدي! أطعني، أجعلك مثلي، أقول للشيء: كن، فيكون. وتقول للشيء: كن، فيكون) (٥٣). فالله – تبارك وتعالى – يخول أولياءه هذه الصلاحية التنفيذية. وإن كانوا – عادة – لا يستخدمون هذه الصلاحية، إلا لإثبات الحق في موارد التحدي، وهو ما يسمى بـ (المعجزة).

فما هي خصائص الولي؟

الولي، عندما ينال تلك الصلاحية العظيمة – صلاحية التصرف في خلق الله – يصبح على بينة من أن الله – تبارك وتعالى – قد قبل أعماله، وتقبله بقبول حسن. فلولا أن الله ارتضاه واصطفاه، لما أولاه تلك الصلاحية. فبمجرد وضع الخلق تحت تصرفه، دليل بعد دليل، على أنه بلغ درجة: (القبول)، التي تحدَّث القرآن عنها – في معرض ذكر مريم ابنة عمران – بقوله:

((وإذ قالت (امرأة عمران): رب! إني نذرت – لك – ما في بطني محررا، فتقبَّل مني، إنك ـ أنت – السميع العليم ۞ فلما وضعتها، قالت: رب! إني وضعتها أنثى – والله أعلم بما وضعت –، وليس الذكر كالأنثى، وإني سميتها: (مريم)، وإني أعيذها بك – وذريتها – من الشيطان الرجيم ۞ فتقبلها – ربها – بقبول حسن، وأبتها نباتاً حسناً، وكفَّلها (زكريا). كلما دخل – عليها – زكريا المحراب، وجد – عندها – وأنبذها رزقاً، قال: يا مريم! أنى لكِ هذا؟ قالت: هو من عند الله، إن الله يرزق – من يشاء – بغير حساب ۞)) (٥٤) ؛ وإنه اكتسب: (رضوان الله)، الذي وضعه القرآن في أعلى مستويات الثواب، عندما قال:

((وعد الله المؤمنين والمؤمنات: جنات تجري من تحتها الأنهار، خالدين فيها. ومساكن طيبة، في جنات: (عدن). ورضوان – من الله – أكبر. ذلك: هو الفوز العظيم ۞)) (٥٥).

فهو – إذن – كامل العبودية، فلا يربكه القلق على أعماله، ولا يتوجس من أن يحشر – يوم القيامة – بأعمال مرفوضة، وصحيفة مثقلة بالسيئات. وعندما تتوثق علاقته بالله، يزهد في غير الله: فلا يخاف من نازلة أو مكروه، لأن الخوف لا يكون إلا من توقع خسارة في نفس أو علاقة... ولا يحزن على بلاء أو جفاء،

لأن الحزن لا يكون إلا على خسارة في نفس أو علاقة... ومن اطمأنَّ من علاقته بالله – بذلك المستوى –، لا تكون الخسائر لديه خسائر. فأجلى ظاهرة تطبع حياة الولي، أنه لا يخاف ولا يحزن.

فكيف يكون الولي؟

يكون (الولي) بشيء واحد – فقط – لا غير. وهذا الشيء من: (السهل – الممتنع)، الذي يسهل التحدث عنه، ويصعب الالتزام به. وهو: (فعل الواجبات، وترك المحرمات). فيكفي أن تلتزم بحكم الله، حتى تكون ولياً لله، ولا يساورك الخوف والحزن. أولم يقل الله – تبارك وتعالى –:

((إن الذين قالوا: (ربنا الله)، ثم: استقاموا؛ تتنزل – عليهم – الملائكة: (أن لا تخافوا، ولا تحزنوا، وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ۞ نحن أولياؤكم في: الحياة الدنيا، وفي: الآخرة. ولكم – فيها – ما تشتهي أنفسكم، ولكم – فيها – ما تدَّعون ۞ نزلاً من: غفور، رحيم ۞)) (٥٦) ؟!

فـ (ولي الله) ليس واحداً على الأرض، وإنما كثير: كثرة من يلتزم بحكم الله، عقيدة وعملاً... كثرة من يقول: (ربي الله)، بكله، لا بقناعته العلمية فقط، ولا بحركته العملية فقط، وإنما بهما معاً...

وقد نبَّه الله إلى كثرتهم، بقوله:

((ألا... إن (أولياء الله): لا خوف عليهم، ولا – هم – يحزنون)).

وإن كان (أولياء الله) غير معروفين – بهذه الصفة – لدى الرأي العام، فذلك: لا يدلُّ على عدم تواجدهم، بل قد يحاولون التكتم، ابتعاداً عن الضغوط التي يمارسها عليهم، من يبتغي إلى الله الوسيلة من أصحاب الحاجات.

ولكن: صاحب الولاية الكبرى – وهم الأئمة المعصومون عليهم السلام في كل عصر – لا يزيد على واحد، حسب مجموعة من الأدلة. وإذا تعدد من له تحمل (الولاية الكبرى) في عصر، فلا يعهد بها إلا إلى أحدهم. فإذا مات، استخلف غيره، كالحسن والحسين – عليهما الصلاة والسلام –.

(١١)

سورة هود عليه السلام

مكية

وهي مئة وثلاث وعشرون آية

العنصران الأهمان: الزمان والصفر

((وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وكان عرشه على الماء . . .)). [(سورة هود : الآية ٧)]

((السماوات)) هي: كل الفضاوات والغازات والكرات، التي تبدو وكأنها محيطة بالأرض. و ((الأرض)) هي: كرة التراب التي نعيش عليها. وكأن التأكيد على ذكرها – كلما ذكرت السماوات – مع أنها كرة صغيرة في طرف مجرة صغيرة من المجرات الضخمة المتحركة في الآماد الشاسعة من الفضاء؛ لأن البشر يعيشها، ويعرف من أطوارها ومعادنها أكثر مما يعرف من سائر الكرات الأخرى.

((في ستة أيام)). اليوم – هنا – لا يعني دورة الأربع والعشرين ساعة. لأن هذه الدورة ناتجة عن حركة الكرات، ولم تكن كرات في ذلك الحين. ولأن اليوم – كما يعني هذه الدورة الزمنية المحدودة بالأربع والعشرين ساعة، الناتجة من حركة الأرض حول نفسها – كذلك: قد يعني دورة زمنية محدودة بحركة حالة من الحالات، كما نقول: (أيام العباسين، وأيام الفاطميين، وأيام الحمدانيين...)، وكما نقول: (الدهر يومان: يوم لك، ويوم عليك)، فكل حالة: يوم. والله – سبحانه وتعالى – خلق الكون في مراحل، فكل (يوم) تعبير عن حالة من الحالات، وإن كانت تقدر بالملايين – أو المليارات – من السنين.

((وكان عرشه على الماء)): ربما لأن أول ما خلق الله (الماء). وربما لأن أول ما خلق (الغاز) الذي يحسن تشبيهه بالماء، كما في قوله تعالى: ((ثم: استوى إلى السماء وهي دخان...)) (٥٧). . وربما لأن أصل الأنواع (الخلية الحية)، والماء يشكل أكثر الخلية الحية.

و (العرش) سرير الملك. واستخدام هذا المفهوم بالنسبة إلى الله، الذي ليس جسماً حتى يستقر على عرش أو غيره؛ باعتبار أن (العرش) رمز السيطرة والسلطان، فيكون المعنى: (وكان سلطانه على الماء)، إذ لم يكن – ذلك الحين – خلق غيره، فيكون الماء أول ما خلق الله من الماديات، ثم تطور الماء في ست مراحل، حتى خلق منها الإنسان.

وفي هذه الآية، توجيه تربوي لمن يفكر في العمل الجاد لبناء المستقبل، بأن:

١- يعتمد على مراقبة الزمان له – حتى لا يهدر منه شيئا –، بوضع الخطط الشهرية أو السنوية أو الخمسية... فيقسم أعماله إلى مراحل، مفترضاً أن كل عمل معين لا بد أن يستغرق مقداراً معينا من الزمان لا أكثر ولا أقل، فالله خلق السماوات والأرض في ستة أيام. إذن: على الإنسان أن يحاول الإفادة من مقياس الزمان، فلا يستعجل ولا يتأنى، وإنما يعطي كل يوم مقداره من العمل.

٢- يبدأ من الصفر كل من يرث ما يبدأ به. فالله – تعالى – بدأ خلق الكون من (الماء) الذي هو بمثابة الصفر بالنسبة إلى الكون، وصار الكون. فكل شيء يمكن أن يتحقق وإن كان الابتداء به من الصفر، فلا مبرر لليأس. على أن البشر لا يبدأ من الصغر، لأن أفقر الناس يخلق بين المواد الكافية لبناء مستقبل يحلم به، ويملك جهده. وبهذا الجهد، يستطيع أن يربط بين هذه المواد لتكون له مستقبلاً زاهراً: فالأموال متوفرة، والكراسي كثيرة، والجمال منتشر، والمباني متزاحمة، والثمرات متدافعة... والطرق إلى جميعها رحبة معروفة، وعلى من يريد أي شيء منها أن يتحرك في اتجاهه ليناله. فقط: يتحرك بوعي وحكمة، حتى لا يصطدم بغيره، فيتفجر ويفجر، لأن الله خلق الحياة حلبة للسباق لا للصراع.

الشقي والسعيد

((. . . فمنهم : شقي ، وسعيد *))[(سورةهود : الآية ١٠٥)]

كما أن بذرة (البرتقال) تلخص أطوار ورؤى وطبائع أمها الشجرة، ولكنها تبقى ركائز غامضة ترفض التفسير، حتى إذا وجدت المناخ المناسب تتفتق البذرة، وتبدأ عملية التعبير عن ذاتياتها، حتى تصبح شجرة يافعة، تعطي جميع التفاصيل، بكامل انفتاحات وتعقيدات الشجرة الأم.

هكذا... الإنسان، يجمع كل أراشيف حياته وهو يهمُّ بالانتقال من الحياة السابقة إلى هذه الحياة الدنيا، ويتلخص جنيناً، ثم طفلاً يلفُّه الغموض والانكماش. حتى إذا وجد مناخه المتناسب مع ركائزه، تبدأ ذاتياته بالتعبير، فيعطي جميع التفاصيل، بكامل الإيجابيات والسلبيات التي طبعته في الحياة السابقة، بصورة أوسع وأكمل.

وكما أن حبة المطر التي تسقط على الأرض، لا تنسى هويتها، وإنما تتبخر عائدة إلى الأجواء العالية لإعادة التجربة، أو تتسرب في شرايين الأرض المتعرجة في طريقها إلى أمها البحر.

كذلك: الإنسان، الذي يأتي طفلاً بائساً إلى هذه الحياة الصاخبة المكفهرة، لا يفقد أدنى ذبذبة من حنينها الذي أتى به من العالم السابق، وإنما يبدأ البحث الحثيث – منذ اللحظة الأولى – عن مطامحه وأهدافه: فيصطدم بالمعاكسات التي يعلن استنكارها ببكائه، ويستقبل المناسبات التي يعبر عن استرضائها بابتسامته. ويواصل بحثه الدؤوب، حتى يستقر في القالب الذي تفرغ منه وأعدَّ له.

ولذلك: نجد كل إنسان يختار لنفسه ما قد لا يناسب بيئته وأسرته، بشكل يصعب التكهن به من قبل.

وكما أن ذرات الكون تلتقي مثيلاتها حتى تشكل وحدات أعظم: فمثلثات الحرارة تتصاعد، ومربعات البرودة تتهابط، وجزئيات الأوكسجين تتجاذب، ورشاش الماء تتجمع، ورذاذ التراب تتراكم، والسوارح والطيور تتجاوب في قطعان وأسراب متجانسة... لأنها – جمعاء – تنطلق من موقع واحد، وبدافع واحد، نحو هدف واحد؛ فمن الطبيعي أن تنساق في خط واحد.

مثلها الإنسان: فكل ما في جسمه من ذرات، وكل ما في روحه من موجات؛ تعبر عن حنينها، وتتعرج به في منعطفات الحياة والمجتمع، حتى يلتقي وسطه، فيطمئن إليه، ويرتكز عليه، ويبدأ دورة تكامله من خلاله.

وهذه الحالة الذاتية في الأفراد، هي التي تؤدي إلى ظاهرة خروج الكثيرين من الناس على أسرهم، واستقرارهم في أوساط لا تناسب بيئتهم، واختيار أوضاع يصعب التكهن بها من قبل.

الاستقامة جحيم تنتهي إلى جنة

((فاستقم – كما أمرت – ومن تاب معك، ولا تطغوا. إنه – بما تعملون – بصير *)). [(سورة هود: الآية ١١٢)]

هذه الآية: تركيز للرسول، ومحاولة لتركيز من وراءه من المسلمين.

فهي تركيز للرسول فعلاً، لأن أمر الله يعني التنفيذ المباشر من جانبه – وكذلك: من جانب كل المعصومين، الذين عصمهم الله من الزلل، وآمنهم من الفتن – من دون تقدير للعواقب. لأن الرسول – والمعصومين من آله – وقفوا أنفسهم على تنفيذ إرادة الله، مهما كانت النتائج، فأصبحوا (عدل القرآن) (٥٨)، كما صح عنه (ص).

ومعنى أنهم عدل القرآن: أن القرآن هو الصيغة الفكرية للإنسان الأفضل، وهم الصيغة العملية للإنسان الأفضل. فهم القرآن، بيد: أن القرآن قرآن المخطط، وهم القرآن المنفذ. فكل ما ورد في القرآن على الصعيد الفكـري ورد في حياتهم على الصعيد العملي، كما قال التاريخ عنهم جميعاً، وكما قالت عائشـة – عندما وصفت الرسول –: (كان خلقه، القرآن) (٥٩).

فلو قرأنا القرآن عرفنا صفة الرسـول، ولو عرفنا صفة الرسـول قرأنا القرآن. وعندما نجد القرآن يجعل الرسول (أسوة حسنة) للمسلمين، لا يتخطى ذاته، وإنما يركز القرآن اهتمام المسلمين على ذاته عن طريق صيغته العملية، التي تبرهن على أن البشر قادر على تجسيد القرآن.

فالمحاولة، ليست واردة من جانب القرآن بالنسبة إلى الرسول، وبالنسبة إلى أي واحد من المعصومين؛ وإنما هو تنفيذ مباشر. بينما المحاولة، واردة من جانبه بالنسبة إلى المسلمين بالنسبة إلى المسلمين، الذين ربما ينفذون القرآن وربما لا ينفذونه.

فالآية: تركيز للرسول، ومحاولة لتركيز من وراءه من المسلمين.

والآية: ركزت الرسـول، وحاولت تركيز المسـلمين. لأن (الإنسـان المركز) ناجح، وقد أراد الله النجاح لرسـوله وللمسلمين. فالإنسان المركز يلتزم خطاً حياتياً موجهاً، ويستجمع كل طاقاته، ويسيرها في اتجاه الهدف الذي اختاره لنفسـه، ويظل يغذ السـير نحوه بإصـرار حتى يصل إليه. وكل من اسـتجمع طاقاته، ووضعها في خدمة قضيته ينتصر.

فضعاف الحيوان، عندما تسـتجمع طاقاتها لخدمة قضية، تستسبع فتنتصر على الأقوى منها: فالدجاجة عندما تكون لها أفراخ، تتحاشى الهرة الصدام بها، رغم ولعها بأفراخ الدجاجة؛ لأنها تعلم أن الدجاجة تنزل – بكل طاقاتها – إلى المعركة للدفاع عن أفراخها.

فالإنسان المركز، له خط واضح يسير فيه بتصميم وإصرار، دون أن تهاجسه الأصوات التي ترتفع حوله، ويتغلب على العقبات التي تلح على تثبيطه، فيصل إلى هدفه، مهما كان بعيداً، ومهما كانت الصعاب التي تقاومه.

في الوقت الذي نجد غير المركز يسـتقبل هدفاً وينتهـج خطاً، ولا يتقدم خطوات إلا وتدعوه الأصوات العاليـة حوله للتنازل عن خطه – ومـا أكثر الأصوات العالية في الحياة! –، فينحرف نحوها. أو تهد عزائمه المشاكل التي تغالبه، فيتراجع. ويغدو وهو لا يعرف خطه، ولا يحقق هدفه بعد العمر الطويل.

فغير المركز يتناوب جوفه تياران: تيار يدفعه من خارجه، وتيار يدفعه من داخله.

التيار الأول: تيار الإغراء والإرهاب. الإغراء الذي يسول له الانحراف. فإن كان أقوى من رغباته التي تنازعه الانقيــاد للإغراء، فالإرهاب الذي يبرر له الانحراف. فــإن كان أقوى من ذاته حتى لا يبالي بذاته، خلص من المصائب – التي ينذر بها الإرهاب – أو انهار ضحية في الطريق. وهنا يأتي دور:

التيــار الثاني: الذي يجرب قدرته على جرفه – وهو تيار رد الفعل. فتصدمه الحياة بفعل ـ لا يقوى على احتماله، ليندفع ـ ... برد الفعل – إلى معاكسته، فينحرف عن خطه. كالصخرة التي لا تدفن نفسها في الأرض بثقلهــا، فيرمــى بها إلى الأعلى، لتعود بقوة تدفنها في الأرض. وكالكرة التي لا تفارق الأرض، فتضرب بها الأرض، لتفارقها نحو الأعلى.

وغير المركز – في أغلب أفراده – ينحرف متأثراً بإغراء، وإلا فبالإرهاب. فإن كان أعلى من ذاته، فينحرف برد الفعل. لأن الفعل المعاكس يولد عنده وازعاً داخلياً يدفعه لرده، فيكون الانحراف.

أما المركز، فيبقى رافعاً رأســه، فوق تيار الإغراء والإرهــاب وفوق تيار رد الفعل، مصمماً على مواصلة الســير – بكل فتوة ونشــاط – حتى تحقيق هدفه. فله خط ثابت واضح، لا يتعرج فيه ولا يلتفت عنه. وكان التعبير في الآية ((فاستقم))، لأن المركز مستقيم وغير المركز غير مستقيم.

وهذا... لا يعني أن المركز يســير على بســاط الريح، ولا يصدمه تيار، وإنمــا يعني أنه يصمد، فيضربه التيار الأول: ويعانيه الإغراء، وتهيج به الرغبات حتى تمله الرؤى، ويبقى له قلب لا يرقص ولا يحن. وينتابه الإرهاب، فتعصف به الويلات التي قد تنتهي إلى تصفيته جسدياً، فيجري ضياء عينيه دموعاً ساخنة تحرق مشاتل الصبا في وجنتيه، ولكنه يصبر. ويضربه التيار الثاني: فيقاسي ما لا يقاسى، فتداس كرامته، وينال بما لا يحتمــل. فيصمد إزاء ما لا يصمد إزاءه، كمن لا يجد مهرباً، وهو يجده ولكن يرفضه بمحض إرادته. فإن بقي أنجز ما أراد، وإن لم يبق عبَّد الطريق لمن يترسم خطاه.

وهذا الصمود المطلق، صعب يفني ويرهق حتى كواهل الأبطال، فقد روي عن الرسول الأعظم (ص) أنه قال: (شيبتني سورة هود) (٦٠). وقد قال العلماء: (لأن فيها هذه الآية).

ولكــن المركــز يبقى – غالباً – حتــى ينجز ما أراد، فتــزول المخاوف التي طالمــا أرقته، ويعرض عن تضحياته بما يبدد الأحزان التي طالما غامت على عينيه:

((إن الذين قالوا: (ربنا الله)، ثم استقاموا؛ تتنزل عليهم الملائكة: (أن لا تخافوا، ولا تحزنوا، وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ولكم – فيها – ما تشتهي أنفسكم، ولكم – فيها – ما تدعون ۞ نزلاً من غفور رحيم ۞)) (٦١)، فتعود إليه الرؤى ولكن في إطار أروع، وترف على وجنتيه مشاتل الصبا ولكن في هالة أعظم.

الاختلاف

[((ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة، ولا يزالون مختلفين *))] [(سورة هود : الآية ١١٨)] .

١- رغم أن العناصر الكونية الأصيلة قليلة العدد، فلا تتجاوز المائة – في مجموعتنا الشمسية –، إلا أن المخلوقات منها كثيرة ترفض الإحصاء.

٢- ورغم كثرة المخلوقات النوعية، نلاحظ الاختلافات البينة بين الأفراد من نوع واحد، بحيث يمكن اعتبار كل فرد منها ذا تركيبة مستقلة.

وإذا تأملنا أفراد الإنسان، وجدنا هذا الاختلاف واضحاً بينها في:

الملامح، وتفاعلات الخلايا، والمزاج، والفكر، والصفات، وما إلى ذلك... نتيجة لاختلاف نسب العناصر الأولية في تركيبها.

٣- وكما يختلف الإنسان من فرد إلى فرد في تركيبته المادية، نجد مثل هذا الاختلاف في تركيبته النفسية والروحية؛ بناء على ما نعتقد من كون الأنفس والأرواح مركبة لا بسيطة، كما يقول بعض الفلاسفة.

٤- وهذه الاختلافات الجسدية والنفسية والروحية، تنعكس على تعامل الأفراد مع الأشياء والأحداث. فما من فرد إلا وله موقع خاص، يحدد منطلقه في اتجاه شيء أو حدث يحاول التعامل معه.

٥- وقد أراد الله اختلاف الأفراد في إطار النوع الواحد، كما أراد اختلاف الأنواع في إطار الوحدة الكونية الواحدة، تماماً... كما أراد اختلاف الوحدات الكونية في إطار المجموعة الكونية الواحدة، بذات النسبة التي أراد اختلاف المجموعات المجموعات الكونية الكبرى في سلسلة المخلوقات الدنيوية والأخروية على حد سواء.

ولهذه الظاهرة، أكثر من سبب... وأكثر من نتيجة... لعلنا نبحث عنها في مناسبة أخرى.

٦- ولو شاء الله أن يمارس خلقاً معملياً – أو قالبياً – لاستطاع، بل أسهل بمقاييس الإنسان، وإن كان لا يوجد (أسهل، وأصعب) في مقياس القدرة المطلقة.

فكان من الممكن خلق الدنيا والآخرة سواء، وخلق سلسلة المخلوقات سواء، وخلق المجموعات الكونية سواء. كما كان بالإمكان خلق الأنواع نوعاً واحداً، وخلق الأفراد فرداً واحداً.

ولكنه أراد أن يخلق كل شيء متميزاً:

((قال: (ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه، ثم: هدى) ﴿)) (٦٢).

(١٢)

سورة يوسف (عليه السلام)

مكية

وهي مئة وإحدى عشر آية

إطار السورة

تشـعب خطوط المفسرين في العلوم، سـبَّب نوعاً من الارتباك في فهم القرآن، لدى الكثيرين من رواد القرآن. ذلك: أن كلاً منهم، انطلق إلى تفسير القرآن من منطلقه هو... لا من منطلق القرآن هو...

فبين:

من اعتمد: (جمال التعبير) في القرآن، لأنه كان متخصصاً في: (علوم البلاغة).

ومن تتبع دقائق: (علم النحو) في القرآن، لأن: (علم النحو) كان مادة اختصاصه.

ومن استنبط: (أحكاماً فقهية) من القرآن، لأنه كان: (فقيهاً) لا يهمه شيء سوى الأحكام الشرعية.

ومن اهتم بـ: (قصص القرآن)، لأنه كان مغرماً بالتاريخ.

ومن عني بـ: (العلوم الطبيعية) في القرآن، لأنه تفرغ لها.

وهكذا...

بينما القرآن لم يكن: كتاب بلاغة، ولا كتاباً في العلوم العربية، ولا رسالة عملية، ولا مجموعة قصصية، ولا نشرة علمية...

وإنمـــا القرآن كتاب ديـــن، بالمفهوم الكامل للدين، الـــذي يربط الدنيا بالآخـــرة... والمادة بالمعنى... والطبيعة بما وراء الطبيعة... وينظم الإنســـان – كل الإنسان – بينها. فيأخذ من كل شيء بمقدار ما يخدم هذا الهدف، فيســـتخدم من: جمال التعبير، ومن علوم العربية، ومن الأحكام، والقصص، والعلوم الطبيعية... ما يوجه ويربي.

فعندما يقول:

((وتـــرى الجبال، تحســـبها جامدة، وهي تمر مرَّ الســـحاب)) (٦٣) لا يعني ببيـــان الحركات المختلفة للأرض، بمقدار ما يعني بالتوجيه الذي ورد في بقية الآية:

((صنع الله الذي أتقن كل شيء. إنه خبير بما تفعلون)).

وعندما يســـتعرض قصصاً أطلق عليها: ((أحســـن القصـــص))، لم يخترها لأنها أكثـــر القصص إثارة للفضول، وتمسكاً بالمستمعين، وإنما اختارها لما فيها من زخم توجيهي وتربوي.

فلم يســـتعرض قصص: الملوك، والفاتحين، والأبطال الأســـطوريين... وإنما استعرض قصص: الأنبياء، والصالحين.

وذكر قصة: (ذي القرنين)، لأنه كان – كما يقال – ملكاً رسولاً.

وذكر قصصاً من: فرعون، وهامان، والشـــيطان، وبلعـــم... لا لاعتبارها قصصاً ناجحة من الناحية الفنية، وإنما لأنها تعكس سيئات الموقف السلبي من: الإيمان، والمؤمنين.

وقصة: (يوســـف) عليه السلام استعرضت في القرآن، واستأثرت بأوسع ساحة استأثرت بها قصة أخرى في القرآن، لـ:

١- أب، منحه الله – تبارك وتعالى – اثنا عشر ولداً، كل منهم بطل عالمي في طاقة جسدية. ثم: يفضل عليهـــم أصغرهم، ويعطيه – وحده – من قلبه ما لا يعطيهـــم جميعاً، لأنه – بالفعل – أفضلهم مجتمعين، إنسانياً. وكيف انعكست – سلبياً – هذه المظاهرة العنيفة للمقاييس الفكرية على المقاييس الاجتماعية، على الأب والابن – معاً – بشكل، وعلى بقية الأخوة بشكل آخر!

٢- أخ أصغر، حسده إخوته الكبار الأشداء، على مواهبه، فنكلوا به. وكانت موهبته من الجمال أكثر من أن يطاق. فعاكسته كل نظرات الإعجاب، فاتهمته، وحاربته، حتى أصبح من كبار: (المعذبين في الأرض)، وأحد (البكائين الخمسة) المعروفين، و: (المتنقب) الوحيد من الرجال، عن جميع الناس إلا عن زوجته. ولكنه ما استسلم للخنوع، وتابع كفاحه الجبار، حتى أصبح ملكاً ورسولاً، وسعى إليه والداه وإخوته ساجدين.

٣- إخوة من ألمع الناس، وأكثرهم تفوقاً، حسدوا – على أخيهم الأصغر – محبة والدهم إياه، فزجوا به في بئر نائية، حتى يخلو لهم وجه أبيهم. ثم: اضطروا أن يقفوا – بأجمعهم – على أبواب قصره، وهو: ملك ورسول، وهم: نفر من البدو يبحثون عن صاع من القمح أو الشعير. ولما عرفوا أنه – هو – أخوهم، الذي عرضوه للموت في بئر نائية، وما شكُّوا إلا أنه في عداد الأموات، خروا – له – ساجدين، وهم لا يدرون بماذا يعتذرون.

٤- زوجة مضيفه تسقط في أسر جماله، فتتحرك نحوه من موقع القوة – إنها امرأة العزيز –، وتحاول فرض إرادتها عليه، وتبتذل، فيتمسك – هو – بمبادئه، ويرفض. وعندما تفشل هي، تنتقم منه، فتتهمه، وتزجُّ به في السجن. ثم: تدور الأيام، ويخرج من السجن، منقذاً للبلاد من كارثة. ولكنه يأبى أن يتسلم مصير شعب، وهو مثلوم الكرامة، قبل أن يسترد اعتباره. فتأتيه امرأة العزيز، وتعترف أمام زوجها.

٥- نسوة في المدينة، تنشر شائعات غرامية، عن امرأة العزيز معه. وتجمعهنَّ امرأة العزيز، فتضعهنَّ أمامه، ليفقدن أعصابهنَّ، ويقطعن أيديهن بسكاكين. فيظهر موقفهن في التجربة أضعف من موقفها، ويقلعن عن الشائعات النسائية.

عصمة النبي يوسف عليه السلام

((ولقد همَّت به وهمَّ بها، لولا أن رأى برهان ربه. كذلك: لنصرف – عنه – السوء والفحشاء. إنه من عبادنا المخلصين *)). [(سورة يوسف: الآية ٢٤)]

هذه الآية، تنزه يوسف عن الخطيئة، وعن التفكير في الخطيئة، لما يلي:

١- كلمة (همَّ) لا تستعمل – في اللغة العربية الفصحى – للرغبة الجنسية، وإنما تستعمل للرغبة في الاعتداء اليدوي – كالضرب –، فعندما امتنع يوسف عن الاستجابة لزليخا، همَّت بضربه، تنفيساً لغضبها عليه... وهمَّ – يوسف – بضربها، دفاعاً عن شرفه، الذي حاولت طعنه... ولكنه تمالك عن ضربها،

لمعرفته بأنه لو ضربها، لفسر بأنه كان يحاول الاعتداء على شرفها. فاكتفى بالهروب منها، وتمسكت به، فشقت قميصه من دبر، فكان دليلاً على محاولتها الاعتداء على شرفه.

٢- إن استخدام كلمتي: (لولا) يكون لنفي ما قبلهما بعلة ما بعدهما، فلو قلنا: (حضر زيد لولا أن جاءه ضيوف) معناه: إنه لم يحضر بعلة وفود ضيوفه إليه. فيوسف لم يهم بها. بعلة رؤيته برهان ربه. وهو: نور الله، الذي أشرق في عقله، فأرشده إلى عدم ضربها... أو هو: معرفته بحقائق الأشياء – التي هي علة العصمة – التي سببت إبعاده عن جميع المنكرات.

٣- لو أنه جلس منها مجلس الرجل من المرأة، ثم: ظهر – أمامه – يعقوب عاضاً على سبابته، لم تكن فضيلة له، حتى يعرضها القرآن – فأي إنسان، لو ظهر له أبوه في مثل هذه الحالة، يتراجع عن الخطيئة –، ولكان مرتكباً السوء، لأن أصل جلوس رجل إلى امرأة محصنة – مجلس الرجل من المرأة – حرام، فأين صرف السوء والفحشاء عنه؟! وكيف يكون من عباد الله المخلصين؟!

(١٣)

سورة الرعد

مدنية

وهي ثلاث وأربعون آية

الباقي والفاني

((أنزل – من السماء – ماء، فسالت أودية بقدرها، فاحتمل السيل زبداً رابياً. ومما يوقدون عليه في النار – ابتغاء: حلية، أو متاع – زبد مثله. كذلك: يضرب الله الحق والباطل، فأما الزبد: فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس: فيمكث في الأرض. كذلك: يضرب الله الأمثال *)). [(سورة الرعد: الآية ١٧)].

فالله – تعالى – هو الباقي، وأما الإنسان: فتهد الحياة ذكراه. كما تهد جسمه. ومن بقي من البشر، فبمقدار تمسكه بالله. والعظماء الحق، الذين كرسوا حياتهم للحق المطلق – وهو: الله – باقون بالأمواج التي أطلقوها في الحياة. ومن بقي من غيرهم، فقد تمسك بطرف من الحق: كذي القرنين، ولقمان، وسقراط، وأرسطو، وحاتم... وحتى أعداء العظماء، ظلوا باقين، لتمسكهم بالعظماء، وإن كان تمسكهم بأسلوبهم، وهو

الأسـلوب اللئيم، فخلدوا في إطار لئيـم. فمن كان يعرف: أبا جهل، وعمـرو، ومرحب، والوليد، وابن الزبعرى، وأمثالهم... لولا الرسول الأكرم (ص)؟! ومن كان يعرف: ابن ملجم، والشمر، ويزيد، ونظراءهم... لولا أهل البيت (عليهم السلام)؟!

المسترسل مع الهوى

((ولو أن قرآناً: سيرت به الجبال، أو قطعت به الأرض، أو كلم به الموتى...))

[(سورة الرعد: الآية ٣١)]

((ولو أن)) شـحنة من الطاقات القاهرة، التي تحرك الجبال من مراسـيها، وتشقق كرة الأرض الضخمة المتماسـكة، وتحيي الأموات في الأجداث حتى تتكلم مع الأحياء... لو أننا اتخذنا شـحنة من هذا النوع من الطاقات، التي لا عهد ولا قبل للبشر بها، فنظمناها كلمات وسوراً، وجعلناها ((قرآناً))، حتى لو قرئ بعضه بشكل معين، ((سيرت به الجبال)) تمخر في الأرض، كما تمخر السفن في البحر، ((أو)) قرئ بعض آخر منه بشـكل آخر، ((قطعت به الأرض))، وتزلزلت، فغاضت الجبال وتسامقت الوهاد، وصارت الصحارى بحـاراً والبحار صحارى، ((أو)) قرئ بعض ثالث منه بشـكل ثالث، على المقابر، لانتفضت الرمام بشـراً كاملاً، فـ ((كلم به الموتى)). ولو قرئ أي قسم منه بالشكل المناسب، لكان له أثر كوني عظيم في شيء.

فلو أننا نظمنا القوى القاهرة في الكون، إلى كلمات وسور، فقرؤوها قرآناً، وجربوا تفاعلاتها العظيمة، لما آمنوا به. لأنهم استرسلوا مع الهوى حتى طبعهم، فلا يريدون العدول عنه إلى الحق.

والإشـكال ليـس في أنهم لم يعرفوا الحق، أو أن الحق ليس لديهـم بتلك الدرجة الكافية من الوضوح، وإنما الإشكال في أنهم ليسوا على استعداد للاعتراف بالحق مهما كان واضحاً.

(١٤)

سورة إبراهيم (عليه السلام)

مكية

وهي اثنتان وخمسون آية

الشكر... والكفران...

((وإذ تأذن ربكم:

لئن شكرتم، لأزيدنكم.

ولئن كفرتم، إن عذابي لشديد! *))

[(سورة إبراهيم: الآية ٧)]

-١-

كل ما على الأرض – من إنسان... وحيوان... ونبات... وجماد – إما أن يكون له كمال أو لا يكون له كمال: فالإنسان قد يولد كامل الأعضاء والمشاعر، وربما يولد ناقصاً... وكذلك: الحيوان... والنبات قد يخلق كامل العناصر، وربما ناقصاً لا يورق ولا يثمر... وكذلك: الجماد...

والكامل، له كمالان:

كمال بالقوة، ويسمى: (الكمال الأول) أي: توفر القابليات فيه.

وكمال بالفعل، ويسمى: (الكمال الثاني) أي: تطور القابليات إلى صفات...

مثلاً: الإنسان، إذا كان غير كامل الخلقة (بأن كان فاقداً لإحدى حواسه الخمس... أو فاقداً لأحد مشاعره...) فإن باباً من أبواب العلم يكون مغلقاً في وجهه: فمن كان فاقداً للبصر، يكون باب المبصرات موصداً في وجهه... ومن لم تكن له سامعة، لا يجد طريقاً إلى المسموعات... وهكذا الأمر بالنسبة إلى بقية الحواس، وكذلك: الأمر بالنسبة إلى المشاعر: فمن كان فاقداً لإحدى القوى الداخلية: كالحافظة، والمخيلة، والواهمة... فإنه يفقد منفذه إلى سلسلة من المعلومات، كما يقول ابن سينا: (من فقد حساً فقد علماً).

بينما الإنسان الذي يكون كامل الخلقة، تتوفر فيه القابلية لأن يرتقي سلم الإنسانية في أي خط يشاء، بأن يكون: مفكراً، أو سياسياً، أو طبيباً، أو مهندساً...

فتوفـر الأعضاء... والملكات... في الإنســان، كمال بالقوة (أي: كمال أول) فإذا اســتخدمها بالشــكل المناســب، حتى ارتفع إلى أحد أهداف الإنسان في الحياة. فأصبح: عالماً، أو طبيباً، أو اقتصادياً... فقد بلغ الكمال بالفعل (أي: الكمال الثاني).

وهنا لا بد من بيان أمور:

١- الكمــال بالقوة يعني بالنســبة للإنســان – توفــر الأعضاء... والملــكات... فيتحلى الفــرد بالكمال الجسماني، وربما يمنى بالنقص... أو العجز... وكما يكون الفرد كاملاً أو ناقصاً، كذلك: الأمر في الحيوان، والنبات، والجماد، وسائر المخلوقات.

٢- والذي يتحلى بالكمال: قد لا يستغل كماله، وربما يستغله بالحد الأدنى، أو بالحد الوسط، أو بالحد الأقصى. كالإنسان: يستغل كل أعضائه وملكاته، أو قسماً منها، أو شيئاً قليلاً منها. أو كالأرض: تستغل لبناء طابق واحد، أو لبناء عشرة طوابق، أو لبناء ناطحة سحاب.

٣- والذي يتمتع بالكمال: ربما يستغل مواهبه في سبيل الخير، وربما يستغلها في سبيل الشر.

والناس – عادة – لا يستغلون إلا شيئاً قليلاً من مواهبهم.

- ٢ -

الإنسان، إما أن يأخذ من الحياة أكثر مما يعطيها، فيكون إمعة طفيلية. أو يتساوى أخذه وعطاؤه، فيكون وجــوده كعدمه. أو يعطيها أكثر مما يأخذ، فترحب به الحيــاة. وترتفع درجته بمقدار ما يكون عطاؤه أكثر، حتى يكون كالأنبياء (عليهم السلام).

نعمة الله

((الله الذي:

خلق السماوات، والأرض.

وأنزل من السماء ماء، فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم.

وسخر لكم الفلك، لتجري في البحر بأمره.

وسخر لكم الأنهار *

وسخر لكم الشمس، والقمر، دائبين.

وسخر لكم الليل، والنهار *

وآتاكم من كل ما سألتموه.

وإن تعدوا نعمة الله، لا تحصوها:

إن الإنسان لظلوم، كفار! *))

[(سورة إبراهيم: الآيات ٣٢ – ٣٤)]

كل فـرد يعيش – كل لحظـة – كثيراً من نعم الله عليه، دون أن ينتبه لها. وإذا كان ينتبه لها. فمن دون أن يقدرها. وإذا كان يقدرها، فمن دون أن يشكر الله عليها.

فـكل عمـل عضل، أو غدة، أو جهاز، أو عصب... نعمة. وكل حركة عضو، نعمة. كل نبضة فكر، نعمة. كل مكسـب مادي... أو معنوي... نعمة. كل انقياد يتلقاه ممن هم دونه، نعمة. كل معونة يتلقاها ممن هم في مستواه، نعمة. كل رحمة يتلقاها ممن هم فوقه، كل رهبة يجدها في قلب من يستطيع إيذاءه من إنسان...

أو حيوان... نعمة. كل لحظة عافية يجدها في إحدى هذه النعم، نعمة. كل لحظة أمان يقضيها من مصادر الشر، نعمة.

وهكذا... تترى نعم الله – تبارك وتعالى – على الإنسان. وقد يتطلع إليها الفكر فيجدها كثيرة... متوالية... لــو كانت رذاذاً لكان مغموراً بفيض طام منها، ولكن لا يغامر الفكر بمحاولة إحصائها، فهي أكثر بكثير من طاقته.

ولنذهب – قليلاً – مع العلم في مطاف سريع ـ وبعيد ـ للتطلع إلى بعض نعم الله علينا، التي لا نستطيع أن نراها إلا في ضوء العلم، يقول العلماء:

إن وجود الحيوانات السامة نعمة على الناس جميعاً، لأن هذه الحيوانات – بالأجهزة الخاصة التي زودت بها رئاتها – تمتص المواد السامة التي تلوث الهواء، فتطهرها لتصبح صالحة لاستنشاق الإنسان.

إن وجود الميكروبات الضارة ضرورية للإنسان، لأنها – عندما تهاجم الجسد – تثير فيه قوى الميكروبات النافعــة التي تعمل لتعقيمــه. وبتواتر هجمات الميكروبات الضارة على الجســد، تصبح قوى الميكروبات النافعة متمرســة بالدفاع، ومتأهبــة في جميع الأعضاء... وفي كل الأحيان... فيصبح الجســد ذا مناعة كافية لصيانته من التأثر بطوارئ الطبيعة.

إن الهــوام التــي تحوم حول الأشــجار، كلها ضرورية: فقســم تنفع لتلاقح الأشــجار، والقســم الآخر يطهر الأشــجار من المواد الملوثة، والقســم الثالث يغذي الأشــجار بطاقات إضافية تساعدها على الإيناع والإثمار...

وهكذا... كل ما يخدم الإنســان في جسمه... أو في بعض ما يتعلق به... نعمة. وكل ما يخدمه فيما يحتاج إليــه، نعمة. وكل ما يخــدم إحدى عواطفه.. أو أغراضه.. أو أهدافه.. نعمة. وكل ما ينفع الإنســان بوجه من الوجوه، ويمكن أن يسلب منه، فهو نعمة.

ولكن الإنســان يريــد النعم. ومهما أعطي، فإنه يطلب المزيد. وحتى لــو انهارت أمامه حواجز الإمكان، فأعطي المســتحيل. ولو تضاعفت قدراته الفكرية، فامتــد فكره إلى أبعد من كل بعيد، ثم منح كل ما امتد إليــه فكره، لم يفتأ عن طلب المزيد. وبعد ذلك: يطلب المجهول، بنفس الاندفاع الذي يطلب به ضروراته اليومية، وفي نفس الوقت: يتكاسل عن التعرف – ولو إجمالاً – على ما منح. ويتعاجز عن رفع الشكر – ولو إجمالاً – إلى خالقه، الذي أنعم عليه بلا ســابق اســتحقاق. ويتمادى في غيه أكثر، فيكفر بالنعم جملة..

وتفصيلاً.. ويتمادى أكثر، فقد يكفر حتى بالله:

((قتل الإنسان! ما أكفره؟!)) (٦٤).

المكر مع الله

((وقد مكروا مكرهم، وعند الله مكرهم، وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال *)) . [(سورة إبراهيم : الآية ٤٦)]

فالمكر لا يصدر عن الماكر إلا لإيقاع الطرف الآخر في فخ، فلا يؤدي الغرض المطلوب منه إلا إذا انطلى على الطرف الآخر. وأما إذا كانت خطة المكيدة معروفة لديه، فإنها تفشل. وبفشلها تنعكس على الطرف الماكر من جهتين:

الأولى: إنها تجابه بخطة معاكسة، تصيبها بهزيمة غير متوقعة وأسوأ النكسات التي تحطم الأفراد... والجماعات... هي التي تتلو الهزائم غير المتوقعة، أو مع توقع الانتصار.

الثانية: إنها تكشف النفسية المراوغة لدى الطرف الماكر، وانكشاف نفسية مراوغة – لدى أحد الطرفين المتصارعين – يؤدي إلى أزمة ثقة. فيتعقد الموقف، بحيث يتوقف الحوار، ويستحيل التفاوض، وينقطع خط الرجعة على الطرف الماكر، فيتورط في صراع خاسر يصعب الخروج منه.

((وعند الله مكرهم)) مكرهم معروف عند الله – تبارك وتعالى – فهم يحاولون أن يفاجئوا الله بما لا يفاجأ به.

(١٥)

سورة الحجر

مكية

وهي تسع وتسعون آية

التوازن في النظام العام للكون

((والأرض مددناها ، وألقينا فيها رواسي ، وأنبتنا فيها من كل شيء موزون * وجعلنا – لكم – فيها معايش ، ومن لستم له برازقين * وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله إلا بقدر معلوم *)) . [(سورة الحجر : الآيات ١٩ – ٢١)]

((والأرض مددناها))، فجلعناها بشكل تبدو ممدودة – رغم كرويتها – حتى لو سرح عليها النظر لبدت وكأنها منبسطة، فهي ممدودة بكبر حجمها. والجبال – رغم ضخامتها وثقلها في ميزان طاقات البشر – فهي ليست عند الله ضخمة ولا ثقيلة. ((وألقينا فيها رواسي)) من الجبال، ليتماسك بها التراب. لأن الجبال متشابكة في أعماق الأرض، وإن كانت تظهر رؤوسها من أكناف الأرض، وكأنها متنافرة غير مترابطة.

والنباتات، تفجرت من الأرض، موزونة مقدرة. فمثلا: الإنسان، وسائر الحيوانات البرية، ابتداءً من الحشرات الذرية، وانتهاء بالفيل والكركدنّ والزرافة... عندما تتنفس، تفسد مقياس عناصر الهواء: فعندما تشهق، تأخذ كمية من الأوكسجين. وعندما تزفر، تطلق كمية من ثاني أوكسيد الكاربون. والمحروقات – أيضاً – تؤدي العملية ذاتها: فتحرق الأوكسجين، وتولد ثاني أوكسيد الكاربون. ومليارات الحيوانات التي تتنفس، وألوف الحرائق التي تشتعل في جنبات الأرض لأسباب مختلفة؛ تستهلك – يومياً – ملايين الأطنان من الأوكسجين، وتولد ملايين الأطنان من ثاني أوكسيد الكاربون؛ لا بد أن تسمم الهواء خلال آلاف السنين. ولكن الهواء لم يتسمم، لأن الأشجار – بالمقابل – تمتص ثاني أوكسيد الكاربون وتولد الأوكسجين بنفس النسبة. فبقي الهواء المحيط بالأرض، محتفظاً بالنسبة المطلوبة من الأوكسجين، وهي: ٢٢،٥٪، فبقي صالحاً للتنفس. ولم تتغير هذه النسبة – علمياً – إلا لأسباب كبيرة، خارجة عن سيطرة البشر، ثم ما لبث أن استعاد توازنه.

وكما أن التوازن في الهواء، دقيق وثابت، رغم اختلاف تصرفات البشر بين يوم وآخر؛ هكذا... التوازن باقٍ مستمر، في كل شيء في النباتات – كلها – من جميع الجهات الخلقية:

((وأنبتنا فيها من كل شيء موزون ۞)).

فكل ما ينبت من الأرض مباشـرة كالنباتات، وما ينبت بالواسـطة كالحيوانـات؛ فلا يأتي يوم يفقد فيه شـيء مكمل للخلقة، كأن يفقد عقار لا بد من وجوده لمعالجة مـرض من الأمراض. ولا يأتي يوم تنقرض فيه اللحوم، أو الحبوب، أو المحروقات، أو أي شـيء... يشـترط وجوده في اسـتمرار الخلائق الحية على الأرض، ابتداء بأصغر الحيوانات وانتهاء بأكبرها. وإنما وفر الله – في الأرض – كل ما يساهم في تأمين معيشة الإنسان، ومعائش سائر الحيوانات:

((وجعلنـا – لكـم – فيها معايش))، ((و)) جعلنا لـ: ((من لسـتم لهم برازقيـن ۞))، وإنما يرزقها الله – بدون واسطتكم – من سائر الحيوانات والنباتات – إن صحَّ أنها ترزق بالعناصر الأولية –.

هكذا... خلق الله كل ما يشـترط في تأمين الحياة، وكل ما يشـترط في تأمين اسـتمرار الخليقة. وعند الله خزائن كل شـيء، وباسـتطاعته أن يوجد من أي شـي أي مقدار يشـاء، ولكن حكمته البالغة تسيطر على مخلوقاته، فلا ينزل شـيئاً من مجال القوة والقدرة، إلى حيـز الفعلية والوجود، إلا بمقدار ما يضمن النظام العام للكون:

((وإن من شـيء إلا عندنا خزائنه))، لا في مجال القدرة العقلية. وإنما في مجال توفر أولياته – أيضاً –، ((و)) لكن ((ما ننزله إلا بقدر معلوم ۞)).

فلسفة كينونة الشيطان

((قال: (فاخرج منها، فإنك رجيم * وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين) *)). [سورة الحجر: الآيتان (٣٤ – ٣٥)].

هنا... يأتي السـؤال التقليدي البائس: إذا كان الله خلق الخلق للعبادة، فلماذا خلق الشـيطان، الذي يصد الخلق عن العبادة، ويجرهم إلى المعصية؟

والجواب:

إن الشيطان ضرورة إنسانية (في إطار الامتحان الإلهي العام) ولولاه لما كان الإنسان – أو لما كان إنساناً –، كما أن النار ضرورة كونية ولولاها لما كان الكون – أو لما كان بشكله الفعلي –.

فـ:

١- ماذا تعني العبادة في حد ذاتها؟ وماذا تعني العبادة بالنسبة إلى الله؟ وهل الله أمرنا بالعبادة لمصلحته أو لمصلحتنا؟

إن العبادة – في حد ذاتها – لا تعني هدفاً مستقلاً، والعبادة – بالنسبة إلى الله – لا تعني شيئاً، وإنما أمرنا بالعبادة لتنمو ذاتياتنا، حتى يبلغ كل فرد مداه. فيجب علينا: أن نعبد الله، ولكن لا لله، بل لأنفسنا. ويجب علينا: الإخلاص لله، في كل فكر وعمل، لا لنزيد في سلطان الله، وإنما لنتوفر على ممارساتنا، فنعتاد الإنتاج الجيد الوفير، سواء شجعنا أو ثبطنا الآخرون (٦٥).

٢- ماذا يعمل الشيطان؟ هل يقهرنا على ترك الحسنة وارتكاب السيئة؟

إن أقصى ما يعمله الشيطان، أن يوجد تياراً مضاداً في النفس والمجتمع، لمعاكسة تيار (الفطرة) والرسالات. فيتناقض التياران، ويجد الإنسان نفسه في ملتقى التيارين، ليعرض لتجربة الاختيار، حتى يتمرس ويشتد، فتتفتق مواهبه، ويتبلور معدنه. ولولا التجربة لبقي الإنسان رخياً تافهاً، ولبقيت مواهبه كامنة فجة.

فكما أن جسم الإنسان – لو ترعرع في الحرير، ولم يعرض لطوارئ الجو – لا تصلب عظامه وأعصابه، وبالتالي: لا يطيق الحياة.

وكما أن الشجرة – التي تنمو تحت الخباء – رخوة، لا تستطيع حتى حمل أثمارها.

هكذا... الروح – التي لا تعرف الشيطان – مائعة، لا تقدر على الصمود أمام أي إغراء أو إرهاب. فلا بد أن تعرض الروح للتجربة حتى تتمتع بالكمال الروحاني، كما أن الجسم لا بد أن يتعرض للتجربة – في الألعاب الرياضية – ليتحلى بالكمال الجسماني.

ثم: بماذا ينضج الإنسان إلا بالشيطان؟! وهل تنضج المعادن إلا بالنار؟! وهل تتبلور الأحجار الكريمة إلا بالمعاناة؟! وما قيمة الإنسان الذي ارتفعت حوله النداءات فسار على الخط الذي وجده أمامه، كالماء

الذي يجري في مسيره بلا نزوات؟!

إن الإنســـان يكون كبيراً بمواقفه الرافضة المتصلبة، ويثمن بمدى قدرته على المقارعة والاستمرار، ومن أين تأتيه المقدرة إن ســـلم من التجربة؟! فلا بد من الشـــيطان، ليرتفع الإنسان، كما لا بد من النار، ليصلح الكون للحياة.

إن السؤال عن خلق الشيطان، يشبه السؤال عن خلق الطاقة. وجوابه: أنه ضروري.

وهنا يعترض سؤال آخر:

إذا كان الشيطان يقوم بدور ضروري، فلماذا يحترق بالنار يوم القيامة؟

والجواب:

١- إن بعـــض الضروريـــات لأشـــخاص، مكروهة بصفة عامة. مثـــلا: مجابهة الأنبياء (عليهم الســـلام) مكروهة، ولكنها ضرورية للأنبياء، حتى تتعمق رســـالاتهم في النفـــوس، وتأخذ أبعادها. وإن الظلم يذكي ذكاء الأفراد، ولكنه مكروه من الظالم. ولولا الشهادة لما نال الإمام الحسين (عليه السلام) درجاته العليا، فقد نالها بالشـــهادة، ولكن (يزيد) ارتكس في أسفل سافلين. وكل محق يسمو بالصراع من أجل الحق، بمقدار ما ينحدر الطرف الآخر بصراعه من أجل الباطل.

٢- إن أداء الـــدور الســـلبي، يؤدي إلى الفناء والغضب. فالطاقة تفنى بأداء دورها الســـلبي، والشـــيطان مغضوب عليه لاختياره الدور السلبي.

مدرستان

((فاصدع بما تؤمر، وأعرض عن المشركين*)). [(سورة الحجر: الآية ٩٤)]

هذه الآية، من الآيات التي تضع الاســـتراتيجية للرسالة. فهي ترفع العازل بين مدرستين، كل منهما يفتح ضوءاً أمام من يحاول ركوب التيار. وكثيراً ما يتداخل الضوءان، في رأي البعض أو رؤيتهم.

فالمدرسة التجارية – التي ينتمي إليها كل من يعتمد على المعادلة بين الأخذ والعطاء – توصي بتقييم

الطلب أولاً، ثم تقدير العرض بقدره. ومجال العبقرية فيها هو:

١- اكتشاف طلب غامض، لم ينتبه إليه عارض.

٢- لباقة العرض.

٣- إغراء المعروض.

والمدرسة الرسالية – التي ينتمي إليها كل من يعتمد على التضحية في سبيل انتشار عقيدة آمن بها – توصي بمفاجأة المجتمع في طرح العقيدة على مسرح الأحداث، دون أي اعتبار للمعادلات.

وهذا التناقض بين الضوءين – ضوء المدرسة التجارية وضوء المدرسة الرسالية – يرجع إلى التناقض بين الطبيعتين: فطبيعة التجارة، محاولة لاستثمار الحاجات والرغبات. وطبيعة الرسالة، محاولة لتقنين الحاجات والرغبات. فينما التجارة تساير الأمر الواقع لاستغلاله، تعمل الرسالة لترويض الأمر الواقع، من أجل تطويره وتركيزه، بإيجاد أمر واقع جديد، ليزاحم الأمر الواقع القديم، فيحدده ويحصنه. وكل أمر جديد لا طلب مسبق عليه، وإنما يوجد الطلب بعد عرضه. فلا حساب للطلب المسبق في المدرسة الرسالية، فيما المدرسة التجارية تبني حساباتها على أساس الطلب المسبق.

فالمدرسة الرسالية، توصي بطرح العقيدة على مسرح الأحداث – بدون إجراء حساب – وعندئذٍ: تحدث العقيدة موجات في المجتمع – كما تحدث الصخرة الملقاة في الماء موجات فيه – وبمقدار شدة المفاجأة، وذاتية العقيدة، يكون مدى الموجات. وهذه الموجات، تشكل أمراً واقعاً يحسب حسابه، لدى أنصار تلك العقيدة وأعدائها على حد سواء.

وأكثر الناس، عندما يريدون اتخاذ موقف، لا يجهدون أنفسهم كثيراً في استلهام المبادئ، وإنما هم – عملياً وواقعياً – يأخذون الأمر الواقع في اعتبارهم، ويعطونه الدرجة الأولى من اهتمامهم، وعلى أساسه يتخذون المواقف، ويطلقون الأحكام.

فعلى أصحاب الرسالات، أن لا ينظروا إلى الوضع القائم على ساحة الطبيعة، لأنهم جاؤوا لينقضوا على الطبيعة فيغيروها، لا ليتغيروا بها، فيغيروا عقائدهم. وبذلك، أمر الله رسوله العظيم:

((فاصدع بما تؤمر)) من الإسلام، ((وأعرض عن المشركين)). فلا تأخذ – بعين الاعتبار – قوتهم،

وسـيطرتهم على الأفكار والأوضـاع. ولا تلتفت إلى أوضاع المجتمع. لأنك جئـت للتغيير، ومن يأت ليغير، يفترض – سلفاً – أن الأمر القائم غير ملائم له.

(١٦)

سورة النحل

مكية

وهي مئة وثمان وعشرون آية

رسالة النحل

((وأوحى ربك إلى النحل : أن اتخذي – من الجبال – بيوتاً ، ومن الشجر ، ومما يعرشون * ثم : كلي من كل الثمرات ، فاسلكي سبل ربك ذللاً . يخرج – من بطونها – شراب مختلف ألوانه ، فيه شفاء للناس . إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون *)) . [(سورة النحل : الآيتان ٦٨ – ٦٩) .

مـن لقَّن البلبـل التغريد؟ ومن قال للورد، أن يلهب الهواء بالعبير؟ ومـن وعظ البحر، أن يكظم كل ما يسـيء ويظهر للناس بابتسـاماته العذاب؟ ومن علم الشـجر، أن يرفع أيديه إلى الشمس، مليئة بعصارات قلبه؟ ...

لا أحد إلا الله. فهو الذي أوجد كل شيء. ومنح كل شيء رسالته، ودرَّبه على أدائها بإتقان.

والذي منح كل شيء رسالته، هو الذي أوحى إلى النحل برسالتها...

وحدة مصدر الحضارات

((ولقد نعلم أنهم يقولون : إنما يعلمه بشر .

لسان الذي يلحدون إليه ، أعجمي . وهذا . . . لسان عربي مبين *)) .

[(سورة النحل : الآية ١٠٣) .

الحيرة ظاهــرة على الاتهام، وصدمة المفاجأة أربكت الادعاء، فإذا التهمة دفا ع، والمتَّهِمون (بالكســر) يدافعون عن القرآن.

فالتهمــة: أن النبي (ص) ما جاء بجديد في القرآن وإنمــا أخذ بعضاً من اليهودية، وبعضاً من النصرانية، وبعضــاً من قصص الفرس؛ فكان القــرآن. بحجة: أن الراهب (بحيرى)، رأى محمداً (ص) جالســاً تحت شــجرة، في طريقه إلى الشام، برفقة عمه أبي طالب (عليه السلام) في إحدى سفراته التجارية. ولأن أحبار اليهود، يتربصون بمحمد (ص) ـ منذ ميلاده ـ، ويتســقطون أخباره. ولأن (ســلمان الفارسي) أسلم على يد النبي (ص)، بعد تطواف عبر الأقطار والآلام.

والدفا ع: أن عنصر المعجزة لا يفارق القرآن، حتى ولو صحَّ الاتهام. فإذا ثبت أن محتويات القرآن مقتبسة مــن اليهود والنصارى والفرس، فإن صياغة القرآن ليســت منهم، لأن لغاتهــم أعجمية، ولغة القرآن عربية قي مســتوى الإعجــاز، وإذا بقي عنصر المعجزة في القرآن – ولو من ناحيــة واحدة، وهي: ناحية الصياغة – يكون دليلاً على أنه من الله، ولا تبقى حاجة إلى إثبات أن القرآن معجزة في محتواه، كما هو معجزة في صياغته.

وقد اختلطت التهمة بالدفا ع: فـ ((لســان الذي يلحدون إليه أعجمي. وهذا... لسان عربي مبين)). وهذا... يعبر عن مدى صدمة القرآن لعقلية الجزيرة العربية.

والواقــع: أن القرآن معجزة واضحة في صياغته، وهذه... ما فهمتهــا الجزيرة العربية، ومن ورائها الأدباء العرب، في كل مكان وزمان.

ولكنه: معجزة أضخم، في محتواه. وهذه... ما تفهمها العقول العلمية والقانونية، إلى يوم القيامة.

غير أن الشبهة التي وسوست في الصدور – ولا تزال – نتجت من ملاحظة: أن الناس شاهدوا، في بعض آيات القرآن، ما كانوا يتلقونه من ألسنة الأحبار والرهبان – بفارق بسيط –، وما تتبادلها الأمم من أمثلة وحكم. ولا تزال الطوائف والشعوب تحتفظ، في تراثها الديني والقومي، بأمثال وقصص وحكم وردت في القرآن، وتاريخها يرجع جذورها إلى ما قبل نزول القرآن، فهي لم تأخذها من القرآن، فلا بد أن القرآن اقتبسها منها، ونسبها إلى نفسه، بعد أن طورها وأجرى عليها بعض التعديلات.

والجواب على هذه الشبهة:

إن التراث الديني، الذي يحتفظ به الأحبار والرهبان، وكل علماء الأديان؛ من تركة الأنبياء (عليهم السلام). وهذا... ما لا ينكره علماء الأديان، وإنما يتبارون في تأكيد انتسابه إلى الأنبياء.

وأما التراث القومي، الذي تحتفظ به الشعوب، فلا يصح تجاهل تأثره بالأنبياء إلى حد بعيد، وخاصة في لمعاته الذكية. لأن العناصر المفكرة في كل الشعوب، لم تكن بعيدة عن الأنبياء، لأن الله كان يواتر أنبياءه إلى كل الشعوب، والعناصر المفكرة كانت تأخذ منهم – آمنت أم لم تؤمن بهم –. فترسبت تركة الأنبياء في مشاعر الشعوب، واحتفظت ببعضها في التراث، وإن لم تحتفظ بسلسلة سند كل قصة وحكمة.

ولهذا: نجد في التراث القومي لكل شعب، لفتات روحية لا شك أنها من رواسب تعاليم الأنبياء. بل لو قارن المباحث خطوات الشعوب نحو الأمام، مع حركة الرسالات؛ يتأكد من أن كل خير نالته البشرية عليه بصمة أحد الأنبياء، وإن طالت الفترة بين انبثاقه من النبوة ونضوجه كظاهرة على سطح الحياة: فعلى (الثورة الفرنسية) – في ما فيها من العطاء الصحيح مثلاً – جزء صغير من أنفاس النبي محمد (ص)، ويظهر ذلك بالمقارنة بين بنود (الوثيقة الفرنسية لحقوق الإنسان) وبين ما يقابلها من نصوص القرآن.

وعلى (قلعة بعلبك) همة سليمان (عليه السلام) – كما يقال – بدليل رموز زخرفتها: (البيضة المطوقة بنطاق) و (السهم)، فالأولى تشير إلى مبدأ الحياة ومحدوديتها، والثاني يشير إلى مبدأ الموت...

فخير ما في التراث الديني وغيره للشعوب، هو تراث الأنبياء. والأنبياء، جميعاً أخذوا عن الله. والله – تعالى – أعطى لكل نبي بمقدار استعداد قومه على الأخذ، وأعطى لمحمد بن عبد الله (ص) أكثر مما أعطى لغيره. فكان في القرآن، ما تركته الأنبياء لشعوبهم وزيادة. فوجود مواد، من التراث الديني وغيره لسائر الشعوب، في القرآن؛ إن دلَّ على شيء فإنما يدل على وحدة المصدر، وهو الله سبحانه وتعالى.

طاقة التعبير بين الملتزم والمنحل

((ولا تقولوا – لما تصف ألسنتكم الكذب – : (هذا . . . حلال، وهذا . . . حرام)، لتفتروا – على الله – الكذب. إن الذين يفترون على الله الكذب: لا يفلحون، * متاع قليل، ولهم عذاب أليم *)). [(سورة النحل: الآيتان ١١٦ – ١١٧)]

طاقة التعبير، إحدى الطاقات الهائلة المختزنة في الإنسان. كطاقة الفكر، وكطاقة الأخذ، وكطاقة العطاء، وكطاقة السمع، وكطاقة البصر، وكطاقة الجنس... هذه الطاقات: قد تتناول كأدوات تسلية، فترسل عفوية لغير هدف، وتمارس كهواية، لمجرد استهلاك الفائض الطاقوي، بلا مبالاة بالنفس والحياة. وربما تؤخذ كوسائل رسالة، فتطلق بالتزام نحو هدف، وتمارس كعمل مدروس، وفق متطلبات الموقع الحياتي.

والتصرف الأول، ناتج من الفكر المادي القائل: إن الحياة وجدت صدفة وبلا هدف، وإن الإنسان وجد صدفة وبلا رسالة، فله أن يلهو: بنفسه، وبطاقاته، وبالحياة... كما تملي غرائزه، لجلب ما يمكن من متعة، ودفع ما يمكن من مكروه.

والتصرف الثاني، ناتج من الفكر الإلهي القائل: إن الله أوجد الحياة لهدف، وأوجد الإنسان لرسالة، فعليه أن يعامل: نفسه، وطاقاته، والحياة... كما تملي عليه رسالته، لتحقيق ما يمكن من هدف، وتقليل ما يمكن من فضول.

وقد بيَّن القرآن مصدر الاتجاه الأول:

((وقالوا: (ما هي إلا حياتنا الدنيا، نموت ونحيا، وما يهلكنا إلا الدهر))) (٦٦).

كما بيَّن مصدر الاتجاه الثاني:

((الله الذي: خلق سبع سماوات، ومن الأرض مثلهن. يتنزل الأمر بينهن، لتعلموا: أن الله على كل شيء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ﴿)) (٦٧)، ((وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴿)) (٦٨).

فالذي يتحرك في الاتجاه الأول، يفجر طاقة التعبير – في كل ظرف – بوحي من ذلك الظرف: ربما لتبرير موقف، وربما لكسب، وربما لبروز، وربما لأشياء... وأشياء... مفرطة، لا يربطها رباط معين، إلا الاسترسال

الكيفي والمزاجي: فيمدح، ويذم، ويحســن، ويقبح... بلا مقياس ثابت، فيشبه من يملك مالاً فيفرطه في محله وفي غير محله، أو من يملك سلاحاً فيرشق به بسبب وبدون سبب. فربما يكسب: موقفاً، أو مالاً، أو جاهاً... ولكنه يخســر ضميره وثقة الآخرين، وهما لا يعوضان بشيء. وهذا... كاذب وإن طابق كلامه الواقع، لأنه لا يعبر عن عقيدة.

ويقابله الذي يتحرك في الاتجاه الثاني، فلا يفجر طاقة التعبير إلا بوحي من الرسالة التي خلق لها: فربما يخســر موقفاً، وربما ينال ســوءاً، وربما يغمط... ولكن يربط كلامه – كله – رباط معين، ينتزع من مقياس ثابت، فيعرف به مع الأيام، ويكسب ضميره وثقة الآخرين، وهما يعوضانه عما يخسر، ويوفران عليه ما لم يتكلفه. وهو صادق وإن أخطأ الواقع، لأنه يعبر عن عقيدة.

طبيعة تربية وتعليم الله للبشر

((ادع إلى سبيل ربك: بالحكمة، والموعظة الحسنة. وجادلهم بالتي هي أحسن...)). [(سورة النحل: الآية ١٢٥)]

الله ـ تعالى ـ بالنسبة للإنسان:

١- هو خالق الإنسان، وخالق كل شيء. فهو يملك الإنسان، كما يملك أي شيء؛ ملكاً حقيقياً هو ملك خلقة، لا ملكاً اعتبارياً هو ملك تبادل مساومي.

٢- هو المنعم، الذي لا ينعم الإنســان برزقه، ولا بأي شــيء من الموجودات، ولا يتمتع بمناظر السماء والأرض؛ إلا بفضله.

٣- هو الحاكم المطلق، الذي لا يمكن مزاحمته في ملكه.

والدين، شيء واقع، فهو الجزء الاختياري من الحركة الكونية للإنسان. والكتب السماوية، بمثابة الصحف الرسمية، التي تعلن قوانين الدولة. والأنبياء، هم الحكام، الذين عيَّنهم الله لحماية القانون.

والثواب، موجود لمن التزم بالدين، ابتداء بالحفاوة التي يســتقبل بها ســاعة الموت، ومروراً بـ (البرزخ) الذي هو للمؤمن بمثابة فترة إعداد، و (يوم القيامة) الذي هو له بمنزلة حفلة تكريم، وانتهاء بـ (الجنة) التي لا نهاية لنعيمها.

والعقـــاب، موجود لمن خالف الدين، ابتداء بالموت الذي هو للمخالف أشـــبه بإلقاء القبض، ومروراً بالبـــرزخ الذي هو بمثابـــة التوقيف، ويوم القيامة الذي هو بمنزلة المحاكمة، وانتهاء بـ (جهنم) التي لا نهاية لعذابها.

٤- هو الطبيب، الذي يأمر بما ينفع وينهى عما يضر.

فمـــا من مطاوعة للدين، إلا وينعكس أثرها الإيجابي على الإنســـان. وما من مخالفة دينية، إلا وينعكس أثرها السلبي على الإنسان.

فالله يقف من الإنسان:

١- موقف الخالق المالك.

٢- موقف المنعم.

٣- موقف الحاكم.

٤- موقف الطبيب.

والمألوف: أن يكون الخطاب المتجه من موقف الطبيب جافاً مســـتعلياً، وأن يكون الخطاب المتجه من موقف الحاكم قاســـياً صارماً، فكيف بالخطاب الصادر من موقف المنعم أو المالك؟! وكان أبسط المألوف أن تكـــون لهجـــة الخطاب المنحدر من الله، الـــذي يجمع كل صفاته، إلى عباده الذين هم جزء بســـيط من ممتلكاته الهائلة؛ كان من أبســـط المألـــوف أن تكرس لهجته جميع أصداء الكبريـــاء والجلال. ومن أغرب الغريب أن يكون العكس، ولكن العكس هو الذي وقع بالفعل، وبشـــكل يكاد يبعد عن الأذهان كل عظمة مصدر الخطاب: وكأنه يضخم قيمة الإنســـان تضخيماً لا يكاد يصدق، حتى لكأنه يدينه من مقام الشـــموخ وهو يقول – مثلاً –:

((يا أيها الذين آمنوا! إن تنصروا الله ينصركم...)) (٦٩).

وتبـــدو عظمة هذا الخطاب لو تذكرنا أنـــه صدر إلى (الفقير المطلق) وهو البشـــر، من (الغني المطلق) وهو الله، الذي لا معنى لنصرته من قبل البشر، الذي صدر هو – وكل الأكوان – من مجرد إرادته سبحانه

وتعالى.

ولكنــه (اللطــف المطلق) الذي يعطي لعباده عطــاء مطلقاً وبلا اســتحقاق، فيخاطبهم خطاب بعضهم لبعض، ولا يكتفي بذلك، وإنما يأمر رســله – وهم حكامه وحفظة نظامه على الأرض – بأن يخاطبوا خلقه بأقصى التواضع، ويطبقوا نظامه بكل مرونة.

فرغم أن البشــر ملزم بتطبيق النظام، ولا يجد مهرباً منه إلا إلى التخلف في الدنيا والعذاب الرهيب في الآخرة، فلا تلق عليه – يا محمد (ص) – خطاب ربك بجفوة، بل ((ادعُ إلى ســبيل ربك: بالحكمة)) التي هــي جامعة كل اللياقات، في طرح كلمة الله، بشــكل يبعد عن طريقهــا كل الحواجز والعقبات، ويفتح لها القلوب والأفكار. ولا تطلق الأوامر والزواجر، ((و)) إنما أعطها بأسلوب ((الموعظة)) المخلصة، والنصيحة ((الحسنة)).

وإنهم، بمقتضى المركبات المختلفة، لا يستســيغونها مهما جعلتها مريئة، بل سيناقشونك مناقشة مرة. وأنت – بالمقابل – ابحث عن أبرع الوسائل في إقناعهم، ((وجادلهم بالتي هي أحسن)).

الدعوة العامة للإسلام

((ادع إلى سبيل ربك: بالحكمة، والموعظة الحسنة. وجادلهم بالتي هي أحسن...)). [(سورة النحل: الآية ١٢٥)]

((ادع إلى سبيل ربك))، فطالما وعيت هذه الثقافة العامة الكاملة الصحيحة، التي هي الإسلام، لا يسمح لك باختزانه، وحرمان المحتاجين إليه منه. فهو زاد يحتاج إليه كل إنســان، لا في حياته الضميرية مع ربه، وإنما في جميع مرافق حياته، المســتمرة في هذه الدنيا وفيما بعدها. وهذا الإسلام، ليس إلا مجموعة شاملة من الحقائق، التي لو اطلع عليها العالم لقبلها – باستثناء المعاندين الذين يشكلون أقلية في كل حين ومكان –. لأن المســلمين لم يكونــوا أكثر واقعية من الآخرين عندما اعتنقوا الإســلام، ولكنهم اعتصموا به عندما عرفــوه، وضحوا في ســبيله بكل غالٍ ونفيس، ولم يضحوا به لأي غــال ونفيس. فلو عرفه العالم كما عرفه المســلمون، لتمســك به كما تمسكوا به. ولو عرضوه على العالم... في معارض الفكر... في معارض الفكر.. إلى جانب بقية الأديان والمبادئ المعروضة؛ لكســبوا، بلا تملق أو إغراء، ما لم يكســب بعضه الآخرون مع التملق والإغراء.

ولكن المســلمين جمَّدوه في الكتب القديمة والأدمغة القديمة، فجنوا على أنفسهم لأنهم ظلوا أقلية،

وجنـوا عليه لأنهم أبقوه فـي عزلة عن الرأي العام العالمي، وجنوا علـى العالم لأنهم حرموه من النظام الفكري والعملي الذي يطلق كل الطاقات ويوصل كل شيء إلى رشده.

فـكان مثلهم مثل العالم الذي اكتشـف البترول، ففجره من خلال أنبوب واحد، ثم أشـعله، وادَّعى: أن هذه الشـعلة إله لأنها لا تطفأ، وأنه نبي من قبلها. فجنى على نفســه وعلى العالم، ولم يكتسب إلا المعاناة الطويلة، التي كان يقاسيها الأنبياء، في عصور التعنت والتعصب.

التفرغ للأهداف العظمى

((واصبر، وما صبرك إلا بالله. ولا تحزن عليهم. ولا تك في ضيق مما يمكرون *)). [(سورة النحل: الآية ١٢٧)].

يا محمد (ص)! أنت رسول دين، ورئيس دولة، ومؤسس أمة. عليك – بمقتضى وضعك بهذه المواصفات – أن تتفرغ في الروافد العظمى للدين والدولة والأمة، وأن لا تهدر أية نبضة من فكرك، أو نأمة من عصبك، حول الأفراد: دخلوا في نطاقك، أو خرجوا عنه. فـ ((لا تحزن عليهم))، لأنهم تعرضوا للانحراف، وعرضوا أنفسهم للويلات. واعلم أنهم – كأفراد – دون مستواك، وأنهم – مهما تطاولوا – لن يطالوك. فأبعدهم، حتى عن دائرة التفاعل السلبي، فلا تبد تجاههم أي رد فعل، حتى لو كان عاطفياً. فلا تتحرك لإحباط خططهم، ((ولا تك في ضيق مما يمكرون))، فإن مكرهم – مهما تصاعد – لا يبلغك، ولا يؤثر عليك.

وفي هذه الآية، توجيه تربوي رفيع، وهو: (التطابق بين العامل والعمل). فلكل إنسان وزن خاص، ناشئ مـن تفاعل جميع مكوناته ومواصفاته وتفاعلاته مع الحياة والمجتمع، فعليه أن يقيِّم نفســه على ضوء كل هذه الأمور، ثم يتصرف وفق معطيات تقييمه.

فكما لا يصح التحرك انطلاقاً من أحلام المستقبل، لا يصح التحرك انطلاقاً من ورقات الماضي.

وكما أن لكل مقام مقالاً، كذلك... لكل إنسان مقالاً.

وكما أن وزنة الكيلو ليسـت وزنة الغرام، وأن (المتر) ليس درجة الحرارة، وأن حبة القمح ليست شجرة تفاح، وأن السـمك ليس نسراً... هكذا... كل إنسان، هو هو، وليس غيره، وعليه أن يتصرف على أساس أنه هو، لا على أساس أنه غيره، لأنه ليس غيره، لأنه ليس غيره، فتصرفه يكون متنافراً معه، وهذا... يؤدي إلى عقمه، وهدر جهده.

فكمـــا أن رئيس الجمهورية لا يصح أن يتصرف على أســـاس أنه معلم ابتدائية، وأن معلم الابتدائية لا يصح أن يتصرف على أساس أنه رئيس جمهورية.

وكما لا يصح أن يتصرف المحامي على أساس أنه كيمياوي...

كذلك: لا يصح أن يتقلد الإنســـان أسلوب غيره – مهما تقاربت مواصفاتهما –، لأنه يخلع شخصية هي له، أو يتقمص شخصية ليست له، فيتناقض مع نفسه، ويسقط في ذاته، قبل أن تسقطه التجارب.

فلكل إنسان حجم إذا غادره إلى غيره كان – بالنسبة إليه – فضفاضاً أو خانقاً، يمنعه من التحرك الطبيعي الذي أعد له، ومن أداء الدور المطلوب منه.

والتفاعل مع الأفراد – سلباً أو إيجاباً – هو شأن الأفراد المتساوين، وليس شأن القادة التاريخيين، الذين عليهم أن يخترقوا جدار الزمان والمكان، ويستوعبوا البشرية على رحب الأرض وامتداد الزمان، لتكريرها، وإجراء تعديلات كثيرة عليها، تحولها من خامة مشـــوهة ((يفســـد فيها، ويسفك الدماء)) (٧٠)، إلى عنصر فاضل، أعدت له ((جنة عرضها السماوات والأرض)) (٧١).

(١٧)

سورة الإسراء

بني إسرائيل

مكية

وهي مئة وإحدى عشرة آية

رحلة الإسراء

بسم الله الرحمن الرحيم

((سبحان الذي أسرى بعبده – ليلاً –، من (المسجد الحرام) إلى (المسجد الأقصى) . .الذي باركنا

حوله.،لنريه من آياتنا . إنه هو السميع البصير)) . [(سورة الإسراء : الآية ١)] .

-١-

- (الإسراء) لم يكن رحلة تكريمية بمقدار ما هو دورة تربوية، صعدت مستوى الرسول الأكرم (ص) من درجة (علم اليقين) إلى درجة (عين اليقين). فأراه الله كل الحقائق الكونية والماورائية، التي تعتمد عليها الرسالات، من: استمرار الإنسان بعد الموت، وبقاء الأعمال بعد انصرامها، والجنة والنار، ونعيم المؤمنين وعذاب المنحرفين، والملائكة – وعبادتها، وتصريفها للأعمال: الكونية، والماورائية، والسماوات، وما فيها –، والأنبياء السابقين – ومستوياتهم –، وأشياء أخرى كثيرة، كالتحولات الكونية والماورائية... حتى استوعب النبي (ص) حركة الوجود في جزئيه الكوني والماورائي، فارتقى من مرحلة العلم النظري إلى العلم التجريبي، حتى كانت له أقصى خبرة يمكن أن تكون لإنسان. وهذه... أشياء كان النبي (ص) يعلمها، ولكنه لمسها لمس الجسد – ولمس الروح – في رحلة (المعراج).

- وإذا كان الله لا يكرم أحداً من خلقه إلا بما هو في مستوى استيعابه، وإذا كان الله لا يحرم أحداً من خلقه من كرامة إلا بأن تكون فوق مستوى استيعابه؛ فتكريم النبي (ص) – دون سواه – بدورة المعراج، يدل على:

١- أن النبي (ص) أكثر طاقة من سواه، حتى كان مؤهلاً لدورة لم يكن لها رواد سواه.

٢- أن النبي (ص) فاق أحلام الآخرين، فهو – بزيه البشري، وفي مرحلة الدنيا – استطاع أن يمارس الآخرة كما يمارس الدنيا. وممارسة الآخرة في زي الدنيا وفي مرحلة الدنيا، شيء لم يحلم به الآخرون، وشيء ينسف كثيراً من أسس (فلسفة الإغريق)، كما أنه تجربة تبطل الفاصل الموهوم بين الآخرة والدنيا. وهذه التجربة تنسف – بدورها – كثيراً من أسس (الفلسفات المعاصرة)، وتفتح الأبواب لدراسات لم توضع لها – بعد – نقطة البدء.

والخروج بالجسم البشري من إطار الكون، وانسلاخ الجسم البشري من بعد الزمان، واستغناء الجسم البشري عن التنفس الطبيعي والتغذية الطبيعية، وقابلية الجسم البشري للاستغناء عن ضغط الهواء، واختراق جدار الأبعاد الفلكية، وسائر معطيات المعراج...، أمور لا تزال غريبة عن الفكر العادي، حتى درجة الإنكار والاتهام بالخرافة.

وتجربة المعراج، تضع نقطة التكامل لحضارة واقع الكون، وتقيس مدى تخلف الفكر البشري عن حضارة واقع الكون. وعندما يبرز (المعراج) تجربة رائدة، تقود الفكر إلى مجالات لم تدخل – بعد – رحاب الأحلام؛ يظهر لماذا افتتح الله قصة المعراج بكلمة: ((سبحان))، التي تؤهب الأذهان لاستقبال عجيبة غير متوقعة.

فـ ((سبحان الذي)) حقق – في جذور الزمان الغارقة في الجهل المطبق – تجربة تبقى رائدة، ما دام الإنسان طفلاً يحبو على الأرض، ويخلد إلى مغريات الأرض. ما دام الإنسان يرسف في عبادة فكره، ويطمئن إلى قدرته على إغنائه عن عبادة الله.

فـ ((أسرى بعبده)) محمد بن عبد الله. أسرى به لا بالقوى المعروفة، ولا بقوة الشمس. وإنما أسرى به – ((ليلاً)) – بقوة أخرى لم تكتشف بعد، ولن تكتشف بتجارب البرامج القاصرة، ولن تكتشف إلا إذا بلغ العقل رشده الكامل، فاهتدى إلى استلهام المعرفة من الله.

وأسرى به، لا من الأرض إلى الأرض، وإنما من المنطقة المحرمة إلى نقطة النهاية:

((من المسجد الحرام))، ذلك المسجد الذي تدخل رحابه الأجسام المطلية بطلاء الإيمان، وربما لا تدخله العقول البشرية، لأنها لا تحمل شارة الإيمان الحقيقي الذي يفتح أمامها المسجد الحرام، ولم تبلغ رشداً إيمانياً يسمح لها بدخول هذه القاعدة الوجودية الضخمة. فتبقى حراماً؛ وإن تزاحمت الأكتاف في فنائه، وتراصت الرؤوس صفوفاً خاشعة في اتجاهه، وامتدت إليه الأيدي – حلقات – مبتهلة في دعواتها، والتفت حوله أجساد الموتى في أجداثها، دوائر متتالية في قلب الأرض.

فانطلق النبي (ص) من هذه القاعدة المركزية – في إسرائه – ((إلى المسجد الأقصى))، الذي انتهى إليه الأنبياء السابقون وما تجاوزوه، ولكن النبي (ص) لم ينته إليه، وإنما مرَّ به في طريقه الصاعد.

إلى أين؟

إلى حيث ما ارتقى إليه قدم ولا جناح، إلى حيث (سدرة المنتهى)، إلى حيث أراه الله من آياته ما لم يرها بشراً ولا ملكاً.

- اختيار صفة (العبد)، إشعاراً بمؤهل (الإسراء)، دون سائر صفات النبي (ص)، التي أهمها – في الذهنية العامة – صفة (النبي)؛ يكشف أن (العبودية لله) هي سُلَّم الكمال البشري، وأن (العبودية الكاملة

لله) هي نقطة النهاية في قوس الصعود، التي تحشــر – دونها – جميع صفات الكمال البشــري، بما فيها صفة (النبوة).

- ٢ -

كان للنبي (ص) إسراءان:

١- إسراء من (المسجد الحرام) إلى (المسجد الأقصى).

٢- إسراء من المسجد الأقصى إلى السماوات.

بالنسبة إلى الإسراء الأول:

ربما كان الهدف: ربط منطلق المسجد الحرام بمنطلق المسجد الأقصى – كما يوحي به عرض الآية لمبدأ ومنتهى إسراء النبي بالمسجدين –، وربط رسالة النبي (ص) – في جانبيها الرسالي والحضاري – بالرسالات والحضارات الأخرى.

فالمســجد الأقصى رمز هــذه المنطقة، بمعطياته الواســعة بالتوجيه العالمي. فهذه المنطقة – بإنســانها العبقري، الذي اســتقبل ثلاث رسالات عظيمات، هي رســالات إبراهيم وموسى وعيسى (عليهم السلام)، وصدر الحرف، وســخر البحر، وأوجد من الحضــارات الكبريات –، هذه المنطقة، لم يكن من الممكن أن تهمل في أعظم الرســالات وأكبر الحضارات، وهو الإســلام بأبعاده العالمية. فكان إســراء النبي (ص) إلى المسجد الأقصى، رمزاً للترابط: بين الإسلام كدين وبين سائر الرسالات، وبين الإسلام كحضارة وبين سائر الحضارات. وبين الرســول (ص) كنبي وبين أنبياء هذه المنطقة، وبين الرســول (ص) كعبقري وبين إنسان هذه المنطقة.

وفي هذا الرمز الضخم، أكثر من دلالة على (أخوة الأنبياء)، وتوالد الرسالات والحضارات:

فالأنبياء كرسل الله إلى البشر – مع ما عانوا من تذبذب الناس من حولهم – لا بد أن ينتهوا برسول عظيم: يؤيدهــم جميعاً، ويقدســهم جميعاً، ويرفض كل مــا أثير حولهم من ضباب، ثم يمــلأ – وحده – الفراغ الموحش الذي تركوه جميعاً.

والرســالات والحضارات، لا بد أن تنتهي بحضارة رســالية: تؤطرها جميعاً، وتكملها، وترسيها على أسس راسخة شامخة، لا يمحوها الزمان.

فكان (الرســول الأكرم) (ص) وكان (الإســلام)، ثم كان (الإســلام) رمز التقاء المبدأ بالمنتهى، وعودة المنتهى إلى المبدأ.

- ٣ -

وفي الإســراء قال بعض: (إنه إســراء الروح وحده)، وقال بعض: (إنه إسراء في المنام)، وقال آخرون غير ذلك... ولكن الآية تأبى كل هذه التفاسير، فـ:

١- حركة الروح، وحركة الرؤيا التي هي من حركة الروح أيضاً؛ لا تسمى إسراءً. فالإسراء حركة الإنسان في الليل، لأن الروح لا يعتريها الليل والنهار.

٢- قد يقال: الروح لا تدخل في نطاق الزمان، لأن الزمان بعد رابع للأجسام الكثيفة، والأجسام الشفيفة لا تدخل في نطاق الزمان. كما أن الطاقات – كلها – لا تدخل في نطاق الزمان.

فسق المترفين

((وإذا أردنا أن نهلك قرية، أمرنا مترفيها ففسقوا فيها، فحق عليها القول، فدمرناها تدميرا)). [(سورة الإسراء: الآية ١٦)].

- ١ -

هذه الآية تعرض ســبب انهيار المجتمعات البائدة، والطريق العفويــة التي تجري فيها المجتمعات نحو الهلاك.

وقبل البدء بتفســير هذه الآية لا بد من بيان المواد التي اســتخدمت في بناء هيكل الفكرة التي تعرضها، وهي:

١- إرادة الله إهلاك قرية.

٢- أمر الله مترفيها بالفسق.

٣- الفسق المدمِّر.

فهذه المواد، هي الأسباب المتوالدة التي تنتهي إلى انهيار المجتمعات، وهي بالتتابع:

أولاً: إرادة الله إهلاك قرية.

وبما أن الله – تعالى – خير مطلق، ومصدر الخير كله، وإهلاك قرية، شرٌّ؛ لا يمكن أن تصدر من الله إرادته مباشرة، ودون أن تسبقه إرادة شيطانية شريرة، متقمصة بعمل بشري شرير، يكون استمرارها شراً كبيراً، لا يصح تركها للنمو والتوسع، وإنما يكون وضع حد لها – ولو بإهلاك قرية – خيراً، فتصدر إرادته من الله.

فإرادة الإهلاك (التنفيذية)، ليست أول الأسباب. وليس هذا التسلسل المستطرد في سير الآية، تسلسلاً حقيقياً – لو كانت الإرادة الواردة فيها، (تنفيذية) –، وإنما التسلسل بالعكس: فالفسق، هو السبب الأول. وإرادة الهلاك، هي السبب الثاني المتولد من السبب الأول. وأمر الله المترفين بالفسق، من المعدات التكوينية للفسق.

وأما إذا كانت الإرادة الواردة في الآية (إنشائية)، فهي السبب الأول. لأن الإرادة الإنشائية من توابع العلم بما يكون، ولكنها لا تغير في ظاهر الكون. لأن العلم الأزلي بأن أهل قرية كذا يفسقون في تاريخ كذا؛ يولد إرادة الإهلاك الإنشائية. فإذا وجد أهل تلك القرية وفسقوا، تتولد الإرادة الفعلية من الإرادة الإنشائية، ثم تتولد الإرادة التنفيذية في الإرادة الفعلية.

والإرادة التنفيذية، هي التي تغير في ظاهر الكون.

والإرادة الإنشائية – في حقيقتها – ليست سبباً للإهلاك، بل هي أولى المسبقات، المؤدية إلى الأمر. وإنما الفسق هو السبب الأول – في مجال السير الموضوعي للأسباب والمسببات –، والإرادة هي السبب الأول – في السير التنفيذي للأسباب والمسببات –.

ثانياً: ربما يقال: أمر الله مترفيها بالفسق؛ ومن يوجه ذلك بالتالي:

بما أن الله – تعالى – خير مطلق، ومصدر الخير كله، وأمر المترفين بالفسق، شر؛ لا يمكن أن يصدر من الله. فالأمر – في هذا التعبير –: ليس أمراً تشريعياً، لأن الأمر التشريعي صادر بالنهي من الشر. وليس أمراً تكوينياً، لأن الأمر التكويني لو كان صادراً بالفسق، لما صحَّ صدور الأمر التشريعي بخلافه، ولما صح العقاب عليه.

(وهنا) حديث شريف ربما يستقى بعض ما ذكرناه من خلاله، نقله الشيخ الصدوق – قدس سره – في كتابه الجليل (عيون أخبار الرضا عليه السلام)، نقتطف منه ما يلي:

قال الرضا (ع) لسليمان المروزي: ألا تخبرني عن قول الله عز وجلَّ: ((وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها)) يعني بذلك: أنه يحدث إرادة؟

قال: نعم.

قال (ع): فإذا أحدث إرادة، كان قولك (إن الإرادة هي هو أو شيء منه) باطلاً، لأنه لا يكون أن يحدث نفسه، ولا يتغير عن حاله – تعالى الله عن ذلك –.

قال سليمان: إنه لم يكن عنى بذلك أنه يحدث إرادة.

قال (ع): فما عنى به؟

قال: عنى فعل الشيء.

قال الرضا (ع): ويلك كم تردد في هذه المسألة، وقد أخبرتك أن الإرادة محدثة، لأن فعل الشيء محدث.

قال: فليست لها معنى.

قال الرضا (ع): قد وصف نفسه عندكم، حتى وصفها بالإرادة بما لا معنى له فإذا لم يكن لها معنى قديم ولا حديث بطل قولكم (إن الله – عز وجل – لم يزل مريداً).

قال سليمان: إنما عنيت أنها فعل من الله تعالى لم يزل.

قال (ع): ألا تعلم أن ما لم يزل لا يكون مفعولاً، وقديماً وحديثاً في حالة واحدة.

فلم يحر جواباً (٧٢).

وإنما الأمر للأجهزة الكونية بالجريان وفق النظام الذي جعله الله للكون، فيستغلها المترفون في الفسق، فيكون هذا الأمر للمترفين بواسطة الأجهزة الكونية.

ولكن إرادة المترفين لا تلغى، لأن في وسعهم عدم استغلال الأجهزة الكونية في الفسق. كما أن إرادة الله لا تلغى، لأن في مقدوره إيقاف الأجهزة عن مطاوعة المترفين.

فأمر المترفين بالفسق، هو تطويع الأجهزة الكونية لهم، وتمكينهم من تحريك هذه الأجهزة وفق إرادتهم، دون تعجيزهم عن الفسق، أو تمريد الأجهزة الكونية عليهم إذا حاولوا استخدامها في الفسق.

هذا، ولكن المعروف في تفسير الآية (الأمر للطاعة ولكنهم آثروا العصيان) نظير المثل المعروف (أمرته فعصاني) وهذا واضح لا غبار عليه.

ثالثاً: الفسق المدمِّر.

كل فسق يدمر من الفرد – أو من المجتمع – بحجمه وببعده، غير أن الفسق قد يكون (فردياً) يدمر الفرد وحده، أو من عائلته وحدها، وربما يكون الفسق (جماعياً) يدمر من المجتمع بعضه أو كله. وفسق المترفين وإن كان في (حدوده الذاتية) فردياً، فهو في (حدوده الظلية) جماعي:

١- لأنهم – بتأثير مراكزهم – قادة، يقتدي بهم الآخرون. كما أنهم – غروراً بالحصانة التي يتمتعون بها – لا يتهيبون ولا يتسترون. فممارستهم للفسق، تسلب منه صفة القبح وتمنحه صفة المشروعية.

والفسق – متى فقد القبح وكسب المشروعية – مارسه الناس، فأصبح جماعياً يحيق. ومتى حاق الفساد، دمَّر.

٢ـ لأن المترفين – بإغراء المال – يجرون معهم ضعاف النفوس إلى الفسق:

فإذا حاولوا (الزنا) أغروا جميلات المجتمع بالزنا، وإذا استجبن لهم أغرين شباب المجتمع، وإذا

استجابوا لهنَّ لا يكفين لهم، فيتجهون – بفائض طاقاتهم – إلى الدميمات، وتسري عدوى الزنا إلى كل المجتمع، إلا من عصمه الله.

وإذا حاولوا (السكر) أغروا جماعات بـ: زرع الخمرة، وعصرها، وبيعها، ومنادمتهم...، وبما أن المترفين لا يمتصون طاقات هذه الجماعات، يتجه فائضها إلى غير المترفين، فيغرى بالسكر كل المجتمع، إلا من عصمه الله.

وإذا حاولوا (الربا) لم يقرضوا إلا به، ويوجد من يضطر إلى الاستقراض منهم ودفع الربا إليهم، وإذا وجد من يدفع الربا بخل من يجد الفضل في ماله عن الإقراض بدونه، وإذا قلَّ من يقرض بدون الربا كثر من يضطر إلى القرض معه، وإذا تعاطى الناس في دفع الربا اضطراراً تساهلوا في دفعه بأقل حاجة.

ففسق المترفين فسق مدمر، إذا سرى يصعب حصره بالحدود والقيود. لأنهم يتجاوزونها بما لهم من حصانة، يزيفها إغراء المال، وتغاضي الحاكمين عنهم.

وأما فسق غير المترفين، فعدواه ضعيفة. لقلة إمكاناتهم، وجرأة الناس عليهم.

ففسق المترفين هو الذي يدمر البلاد، ويؤدي إلى انهيار المجتمعات.

- ٢ -

الأمم تمر بثلاثة أدوار:

دور الارتفاع، ودور الجمود، ودور الانحدار:

فالأمة تبدأ بجيل تضحوي نشط، يتفانى في سبيل هدفه. ومن الطبيعي أن يسود، لأن عامة الناس يريدون أن يعيشوا بسلام، فإذا ظهر – في القطاع البشري المسترخي – جيل متدفق وثاب، لا يعبر عن اندفاعه إلا ويستسلم له القطاع البشري كله، فيسود. ولكن جيل النضال سرعان ما ينقرض، فهو يذهب وقوداً للمعارك التي يفجرها.

ويعقبه جيل مترهل، يبني مستقبله على ماضيه، فيعيش على أمجاد أسلافه، ويحاول أن يكون الاستمرار الطبيعي للجيل الماضي، ولكن بلا تضحيات وانتصارات، فيبقى مرددا للبطولات الغابرة، ومطوقاً بهالة

من الهيبة الوهمية، من ذكريات التاريخ.

ويتلوهمــا جيل منزوف، نخر الزمان هيبته الوهمية، ولم يصل إليه – من حماس آبائه – زخم يدفعه إلى الكفاح، لتجديد انطلاقة آبائه، أو حمايتها من الضمور والذوبان.

وفــي هذه الفترة، لا بد وأن تكون – في الأمم المتجــاورة معه – أمة نفضت الرقاد، وبدأت في الانفتاح والتوسع، فتبدأ فتوحاتها على حسابه – وحساب بقية جيرانها –، فتسدد إليه – وإلى غيره – الضربات، وهو يقابلها بالانهزام والانحسار، حتى ينهار ويستعبد؛ وهو يتذكر – تحت النير والكابوس – مخاطرات أجداده، لإثــارة المواهب وإعادة الدور، ولكنه لا يجد الشــجاعة لتذكر تلك المخاطرات في الســاحات والميادين، فيكتفي بتذكرها في سهرات العجزة والمنهارين. فهو جيل حكم على نفسه بالانتماء، فلا يمكنه الابتداء.

وهنا... تنتهي دورة حركة الأجيال، وتبدأ دورة أخرى من جديد، فيخرج الجيل الرابع من تحت الأنقاض، وينفض عنه غبار السنين، ليبدأ رحلة الجيل الأول.

المبذرون: من هم؟

((إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين، وكان الشيطان لربه كفورا)). [(سورة الإسراء: الآية ٢٧)]

-١-

((إن المبذريــن)) – من أقدم العصور – ((كانوا)) – ولا يزالون – يمثلون قمة الانحراف، على مســتوى واحد مع الشــياطين. فهم ((إخوان الشياطين))، لا أعوانهم، ولا أتباعهم. لأنهم يشاطرون الشياطين، خطف العقائد الصادقة من أفكار البسطاء المؤمنين.

فمن هم المبذرون؟

هل هم المترفون الذين يرشون الأموال على أهوائهم وملذاتهم؟

كلا... لأنهــم منضوحون، يأكلون ويتمتعون كالأنعام. فهم أذناب الشــياطين، وربمــا يأتون في الدرجة الأخيــرة من أذناب الشــياطين، ومهما توغلوا في التــرف، أصبحوا أخف في قبضة الشــياطين، إلى أدنى المستويات في التقييم الشيطاني. ولن يرتفعوا – بأي حال من الأحوال – إلى مستوى إخوان الشياطين أو

أعوانهم. وهم – في أسوأ الحالات – فساق لا كفار، فلا وجه للتذكير بأن الشيطان كفور.

فمن هم – إذن – المبذرون الذين هم إخوان الشياطين؟

إنهم – من باب المصداق لا الحصر – المحسنون الذين ينفقون أموالهم بسخاء، ولكنهم لا ينفقونها حيث يرضى الله والضمير، وإنما ينفقونها حيث يمكنهم استثمارها في الوقت المناسب. فهم كالزارع، الذي ينثر البذور في الأرض المناسبة في وقت معين وبشكل مدروس، ليحصدها – بعد حين – أضعافاً مضاعفة. بفارق: أن دور الزارع واحد في السر والعلن، وهؤلاء يمارسون دوراً مختلفاً عن الدور الذي يتبرعون به.

فهم تجار، يتسترون بشعارات الإيمان والتصدق والإخلاص، ليستغلوا أطيب ما في المؤمنين البسطاء، وهو الإيمان والصدق والإخلاص.

فهؤلاء... هم إخوان الشياطين، في انحرافهم والتوائهم. ((و)) إذا ((كان الشيطان لربه كفوراً))، لا يكتفي بكفره وإنما يدفع الآخرين إلى الكفر؛ فهؤلاء – أيضاً – يؤدون ذات الدور، فهم كفار – في نوعية عملهم – وإن أعلنوا الإسلام، ولا يكتفون بكفرهم، وإنما يجرُّون الآخرين – وراءهم - إلى ممارسة الكفر تحت غطاء أفضل شعارات الإسلام.

- ٢ -

لعل ما ندعوه (إحساناً) ليس سوى تصفية حساب بين دائن ومدين.

فالإحسان يبقى في طراوة وهجه، ما دام ينتزع من نفوس المستضعفين شعورهم بالضعف، ولا يستبدله بشعور أن حياتهم هبة من المحسنين. وينقلب فضيلة جرباء، إذا رافقه شعور المدل بفضله على المدل عليه.

أن يفقد ولد والديه – أحدهما أو كليهما – ليس بالأمر الغريب، وإنما الغريب أن يفقد عطف الأبوة والأمومة في أرض تعج بالآباء والأمهات. فما دام في الأرض يتيم واحد، محروم من ذلك العطف؛ فالناس كلهم يتامى الإنسانية.

أن يشكو عجوز نقصاً في ضروراته فليس بمعيب، وهو نموذج كبير – بمقتضى تنقلات الحياة – وإنما المعيب أن يفقد الجواب في عالم يضج بالمتخمين. فما دام في العالم فقير واحد، محروم من ذلك

الجواب؛ فالناس كلهم فقراء الضمير.

أن ينزف جريح على الرصيف، ولا تمتد إليه يد نجدة أو إسعاف؛ فعزاؤه مسل فيمن استنزفتهم الدروب قبله. وإنما النزيف الذي لا علاج له، أن يتم ذلك في دنيا يفجر فيها العاطلون الثورات. فما دام جريح واحد ينزف، فالدنيا كلها تنزف.

أن يترسب في القاع مسكين فليس بعجيب، فالحياة صراع يسقط فيه الكثير. وإنما العجيب أن يتخلى عنه المجتمع –، فيكتب بخط أسود –: (المجتمع، مسكين).

الإنسان: الأفضل – المفضول

((ولقد كرمنا (بني آدم)، وحملناهم في البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا)). [(سورة الإسراء: الآية ٧٠)].

-١-

((ولقد كرمنا)) فصيلة ((بني آدم)) بكرامات كثيرة، فهي – في مجملها – فصيلة مكرمة، وليست – في مجملها – فصيلة مهانة، كفصيلة الشياطين، أو كفصيلة بني الجان – إن صح أنها فصيلة مهانة –. ففصيلة بني آدم – بمقتضى تركيبتها من: روح الله، وطينة الأرض – فصيلةٌ ذات مواهب وقدرات، تمكنها من النمو والتكامل، في اتجاه الخير أو الشر: فالفرد من بني آدم – بمقتضى تركيبته – قادر على أن يعرج إلى أعلى قمم الخير، كما أنه قادر على أن يتدهور إلى أبعد أعماق الشر. فهي – إذن – فصيلة مزودة بطاقات متنوعة، بمقتضى تنوع تركيبتها من: روح الله، وطينة الأرض.

وهكذا... كرمنا بني آدم، ((و)) سلطناهم على العديد من خلائقنا الصعبة: فسلطناهم على (الأرض)، وهي خلق صعب، ما كان لبني آدم أن يذللوه لولا أن سلطناهم عليه. وكـ (البحر)، هو خلق صعب، ما كان لبني آدم أن يمتطوه لولا أن مكَّنَّاهم منه. فنحن ((حملناهم في البر والبحر)). ((و)) نحن خلقنا – لبني آدم – طيبات من: البهائم، والطيور، والحبوب، والفواكه، وغيرها... وجعلناها ملائمة لأمزجتهم، وجعلنا أمزجتهم متنافرة مع الخبائث حتى لا يتغذوا بها، فهكذا... ((رزقناهم من الطيبات)). ((و)) زدنا على كل هذه النعم، التي وفرناها على بني آدم بدون استحقاق، فـ ((فضلناهم على كثير)) – وليس على الجميع – فقد منحنا الأفضلية لبني آدم على جملة ((ممن خلقنا)) من خلقنا العاقل المكلف، ((تفضيلاً)) كبيراً، بفاصل شاسع بين بني آدم وبين الكثير ممن خلقنا.

فليس الإنسان مفضلاً عليهم بدرجة أو درجتين، وإنما هو مفضل عليهم بدرجات ومراحل.

وهنا (خاطرة) – في حدودها الخاصة لا أكثر – بالنسبة لـ (كثير و: من) وهي:

أن هذه الكلمة: (كثير) تدفع كثيراً من مقام الإنسان، ولكنها تعطي للإنسان حجمه الطبيعي، وتضعه في مكانه الحقيقي. فهو من جملة الخلق العاقل المكلف، وهو مفضل على كثير من خلق الله العاقل المكلف، الذي يرشد إليه (من) في ((ممن خلقنا))، ولكنه ليس مفضلاً على كل من خلق الله، ففي خلق الله من هو أفضل من الإنسان، ولعل في خلق الله فصائل عديدة مفضلة على الإنسان.

ولكن: إذا أردنا أن نعرف الخلق المفضل على الإنسان بالضبط، فلعلنا لا نجد طريقاً إليه إلا ضروب الاحتمال، إن لم تسعفنا مصادر الوحي:

فهل فصيلة (الجن) مفضلة على الإنسان؟

لا... فالجان خلق ملحق بالإنسان، في رسالاته السماوية وتوجيهاته الدينية. كما تشير إلى ذلك بعض آيات من القرآن، وكثير أحاديث تحفظ من السنة.

وهل فصيلة (الملائكة) مفضلة على الإنسان؟

كلا... فالملائكة مخلوقة من نور السماء، وليست فيها طينة من الأرض لتكون تجربة كالإنسان. كما تبين ذلك مجموعة من الأحاديث.

وأما فصيلة (الشياطين)؟

فهي فصيلة منكودة مطرودة، فلا فضيلة لها حتى تدخل في الحلبة مع الإنسان.

فما هو – إذن – ذلك الخلق المفضل على الإنسان؟

قد يكون خلقاً – خارج منظومتنا الشمسية – مركباً من ثلاثة عناصر أو أربعة، فتكون مواهبه وطاقاته أكثر من الإنسان المركب من عنصرين. وربما ترشد (الصحون الطائرة) إلى وجود الخلق المفضل على الإنسان خارج منظومتنا الشمسية.

وقد يكون بعض فصائل الجمادات، ذلك الخلق المفضل على الإنسان. لأن الجمادات خلائق عاقلة ومكلفة من عند الله، وهي أكثر انقياداً من الإنسان. وفي آيات القرآن نصوص صريحة الدلالة على ذلك: ((ثم: استوى إلى السماء – وهي دخان –، فقال لها وللأرض: (ائتيا طوعاً أو كرهاً)، قالتا: (أتينا طائعين) ﴾)) (٧٣).

فالله – تعالى – قد لا يخاطب السماوات والأرض بـ ((ائتيا طوعاً أو كرهاً)) إلا إذا كانت خلائق عاقلة، تستوعب الخيار، وتقيم النتائج، وتحسن الاختيار. وقد أحسنت الأرض عندما لبت خيار التشريع على خيار التكوين: ((قالتا أتينا طائعين)). فلعل (الكواكب) – في سيرها الدقيق – تطيع أوامر تشريعية لا تكوينية فقط، ولعل (الجدار) – في استقامته لمدة معينة – يطيع أمراً تشريعياً لا تكوينياً فقط، ولعل (صغار الحصباء) و (كبار الأحجار) مكلفة بأحكام تنفذها بدقة...

أولم تسبح لحصى في كف رسول الله (ص)؟!

أولم يقل القرآن:

((... وإن من شيء إلا يسبح بحمده، ولكن لا تفقهون تسبيحهم...)) (٧٤) – مع ملاحظة استخدام ضمير الجمع المذكر السالم –؟!

أولم يشر القرآن إلى وعي جميع ذرات الكون، وتحملها الشهادة، وأدائها الشهادة:

((حتى إذا ما جاؤوها، شهد عليهم: سمعهم، وأبصارهم، وجلودهم؛ بما كانوا يعملون، وقالوا لجلودهم: (لم شهدتم علينا)؟ قالوا: أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء، وهو خلقكم أول مرة، وإليه ترجعون)) (٧٥)؟!

فإنطاق كل شيء بالشهادة على الإنسان، يدل على أن كل شيء قادر على تحمل الشهادة، وأدائها في الوقت المناسب. وهذا... ربما يكون دليلاً على الوعي الكافي للتكليف.

وبما أن هذه الموجودات – التي نعبر عنها بالجمادات – لا تخالف مطلقاً، فإذا ثبت أنها تتحرك بدافع التشريع لا بدافع التكوين، يمكن أن تكون أفضل من الإنسان.

وقد يكون بعض فصائل الحيوانات السارحة أو الطائرة، أفضل من الإنسان. لأن القرآن يكشف – في بعض آياته – عن عبادة الحيوان:

((... والطير صافات، كل قد علم صلاته وتسبيحه...)) (٧٦).

وفــي بعض الحديث: (ما ذبح حيوان ولا صيد طائر، إلا بغفلته عن ذكر الله) (٧٧)، وأيضاً: (يحشــر الله الحيوانات يوم القيامة، حتى تنتقم الجماء من القرناء) (٧٨)، وما شابه ذلك كثير في الحديث.

فإذا كانت الحيوانات مكلفة، لها عقاب في الدنيا ولها عقاب في الآخرة، فماذا يمنع أن تكون أفضل من الإنسان؟!

أقصى ما هنالك: أننا نســتبعد أن يكون الجماد أو الحيوان أفضل من الإنســان، ومجرد الاستبعاد لا يدفع الاحتمال. فالاحتمال وارد، وإن كان التأكيد على أي من هذه الاحتمالات، يحتاج إلى دليل لا نملكه.

هذه هي الخاطرة – في حدودها الخاصة لا أكثر – وقد عرضت.

(لكن) الذي ذكره المفسرون ودلت عليه مصادر الوحي الإلهي هو اعتبار حرف الجر: (من) في الآية بيانية لا تبعيضية، أي: (وفضلناهم على كثير وهم الذي خلقنا).

وبعبارة أخرى: من بين الخلق الكثير الذين كلهم خلق الله، فضلنا بني آدم.

قال العلامة الطبرســي – قدس ســره – في مجمــع البيان: (إنا فضلناهم على مــن خلقناهم وهم كثير) (٧٩).

وهذا المعنى مقتبس من مســتفيض الأحاديث الشريفة الصحيحة ومنها: (قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع): إن الله – عز وجل – ركب في الملائكة عقلاً بلا شهوة، وركب في البهائم شهوة بلا عقل، وركب في بني آدم كليهما، فمن غلب عقله شــهوته فهو خير من الملائكة، ومن غلبت شــهوته عقله فهو شر من البهائم)) (٨٠) وغيره مثله أيضاً.

- ٢ -

نعم الله على الإنســان كثيرة، تبدأ بــ: نعمة الوجود، والاســتمرار في الوجود، وتعريضه للاختيار الذي

ينمي ويبلور طاقاته ومواهبه... وتستمر نعمه عبر نعيم الدنيا، ثم نعم عالم البرزخ، ثم نعم عوالم الآخرة. وبعض هذه النعم مما غمر الله بها الإنسان وغيره، وبعضها مما آثر الله بها الإنسان وحده.

ولعل تركيب الإنسان من عنصرين سماوي وأرضي، أي: من الروح والجسد، مما آثر الله به الإنسان بالمقارنة إلى المخلوقات المكلفة في مجموعتنا الكونية: فـ (الملاك) مخلوق من عنصر واحد سماوي هو النور، و (الشيطان) و (الجان) مخلوقان من عنصر واحد أرضي هو النار، و (الحيوان) مخلوق من عنصر واحد أرضي هو التراب؛ بينما الإنسان يجسد لقاء الأرض والسماء. وهذا... تكريم ذاتي للإنسان، حيث أصبح خلقاً مفضلاً بالطبع: ((ولقد كرمنا بني آدم)).

١- تسلط الإنسان على بقية المخلوقات في مجموعته الكونية، أي: جعله مؤهلاً لتسخير غيره، فهو مزود بقدرة سلطوية تمكنه من السيطرة على بقية الموجودات. ولم يجعله مساوياً لغيره. ولا تحت سلطة غيره. فهو محمول، وليس حاملاً، ولا مهملاً. لأنه – بمقتضى تركيبته – سيد: ((وحملناهم في البر والبحر)).

٢- تفضيل الإنسان على سائر المخلوقات في مجموعته الكونية، لأن سواه مخلوق من عنصر واحد، فلا يستحق أكثر من وضعه كمخلوق من عنصر واحد.

فالإنسان مفضل على الملائكة والجن والشياطين، لكونها مخلوقات من عنصر واحد. وبطريق أولى: مفضل على سائر المخلوقات الكونية، كالمخلوقات المائية والترابية والفضائية في مجموعتنا الكونية. ولكنه ليس مفضلاً على كل المخلوقات في سائر المجموعات الكونية، فهنالك مخلوقات أفضل من الإنسان، ونستطيع أن نذكر منها:

(كلمات الله)، وكلمات الله لا تعني ألفاظاً صادرة من الله، لأن الله ليس بجسم، حتى يكون له فم يفصل الكلمات بمقاطع الصوت، كما هو الحال في كلمات الإنسان، وإنما الله يخلق كلماته خلقاً معيناً. وليست كلماته ذبذبات صوتية مفصلة بهندسة صوتية معينة، كما كان يفعل وهو يخاطب (موسى بن عمران) من الشجرة المباركة، أو يخاطب بعض أنبيائه من بطنان العرش – حسب ما روي عن النبي الأكرم (ص) في رحلة المعراج (٨١) – وإنما هي مخلوقات حية فاعلة، عظيمة جداً، وذات أهمية كبرى جداً، بل لعلها – كنوع – أعظم خلق الله، وأهم خلق الله.

لماذا الإكثار من الصلاة؟

((أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل ، وقرآن الفجر ؛ إن قرآن الفجر كان مشهودا * ومن الليل فتهجد به نافلة لك ، عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً)) . [(سورة الإسراء : الآيتان ٧٨ – ٧٩) .

- ١ -

لا يشترط هذا العدد من الصلوات حتى يصل إنسان إلى المستوى المطلوب، لأن لحظات التوجه الحقيقية التي توصل إلى الجنة تكفي بمساحة صلاة واحدة، ولعل الله أمر بالصلاة أكثر لسببين:

١- أخذ بنظر الاعتبار أن الإنسان العادي لا يتوجه كل لحظات صلاة واحدة، بل لا يتوجه إلا لحظات متفرقة كثيرة الفواصل. ولذلك: أمر بهذا العدد من الصلاة، لأنها تسرب التوجه اللاشعوري. وهذا التوجه ضعيف المفعول، فلا بد من الإكثار من الصلوات.

٢- أن الإنسان قد لا يتوجه، فلا بد من الإكثار من الصلوات عساه يتوجه في إحداها. ولذلك، قال (ص): (إن صلاته تنهاه يوماً ما) (٨٢).

- ٢ -

نحن نصلي كما يأكل من لا ذوق له ولا شهية، وكما يدخل الحديقة من لا عين له ولا أنف. والأولياء يصلون كما يأكل من له ذوق وشهية، وكما يدخل الحديقة من له عين وأنف.

وفي أحسن الحالات: نحن نصلي – أو نقرأ القرآن – كما نستضيء بالكهرباء، ونستفيد من الجاذبية في وزن الأشياء. فيما الأولياء يصلون – أو يقرؤون القرآن – كما يتعامل المكتشفون مع الكهرباء والجاذبية في مختبراتهم، للتوصل إلى اكتشافات جديدة.

فالأولياء كانوا يتصاعدون – بكل ركعة صلاة – إلى رتبة أعلى، في هذا المعراج الذي اسمه (الصلاة)، ويكتشفون – بقراءة كل آية – عمقاً جديداً من هذا العالم العميق الذي اسمه (القرآن). فلذلك: كانوا يكثرون من الصلاة وقراءة القرآن بلا ملل، وحق لهم أن لا يملوا، لأن الإنسان يمل من التكرار، ولم يكن لديهم شيء مكرر، لا في الصلاة ولا في القرآن.

حضارة البكاء

((ويخرون للأذقان يبكون، ويزيدهم خشوعاً)). [(سورة الإسراء: الآية ١٠٩)].

-١-

هل (البكاء) أجلى مظاهر الضعف البشري، التي تعني الاهتزاز أمام الصدمات؟

وهل (الخشوع) يساوي الاستكانة للسيطرة القاهرة، والخنوع للتحكم والغلبة؟

فليكن... ولكن:

١- هل البشـر يمكن أن ينخلع من البشـرية؟! وألا تساوي البشـرية ضعفاً غير محدود إلى جانب قوة محدودة؟! أو لا ينحني البشـر أمـام: الجوع، والعطش، والمرض، والمـوت، والفقر، والجهل...؟! وهل يستطيع البشر أن يتحدى محدوديته: الفكرية، والروحية، والجسمية...؟!

إن البشـر ضعيف وصغير جدا تجاه: عواطفه، حاجته، وأهدافه... ضعيف وصغير جدا أمام مظاهر الكون وسنن الحياة:

((... وخلق الإنسان ضعيفاً)) (٨٣).

ولا يستطيع الخروج على ضعفه وصغره، بل من السفه التفكير في الخروج على ضعفه وصغره:

((... إنـك لـن تخرق الأرض، ولن تبلـغ الجبال طولا ۞ كل ذلك: كان سـيئه – عند ربك – مكروها)) (٨٤).

ولكن.. على البشر أن يضحي في بعض المعادلات، صيانة لما هو أغلى من البشر ذاته – لأنه يمنح القيمة للبشـر – كـ: الدين، والعرض، والأرض... وإذا ضحى فالتضحية لا تعبـر إلا عن قوة إرادته، ولو كان قوياً – بالفعل – لما احتاج إلى التضحية.

٢- إن البشـــر – مهما أوتي من قوة وســـلطة – يبقى أمام الله ضعيفاً عاجزاً. فالبشر – كل البشر – ليس شـــيئاً يذكر في حســـاب الله، الذي أوجد – من العدم – ملايين العوالم، ومليارات المنظومات الشمســـية، واعتبرها زينة – مجرد زينة – للسماء الأولى:

((ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح، وجعلناها رجوماً للشياطين...)) (٨٥).

وعلى البشر أن يعترف بضعفه الذاتي أولاً، وبضعفه المطلق أمام الله ثانياً؛ حتى يكون واقعياً، وقادراً على وضع نفســـه على الخط الصحيح. فالاعتراف بالضعف يمكِّن من اســـتبدال بعضه ببعض من القوة، وخاصة: أمام الله. فالاعتراف بالضعف يمكِّن من الارتباط العبودي بالله، وهذه... أقصى قوة في متناول البشر.

وما دام البشر ضعيفاً، والاعتراف بضعفه أمام الله قوة، فليبك قصوره وتقصيره، وليخشع من خشية الله، حتى لا يبكي جنوحه أمام الطواغيت، ولا يخنع فرقاً من الجبابرة.

٣- إن في البشـــر غرائز لا يمكن هضمها مهما جرب وحاول، فهي تطغى عليه، وتتنفس في غفلة منه. ومن تلك الغرائز البكاء والخشوع:

- فالبشـــر معرض للخطأ، والخطأ يؤدي إلى الندم، الذي يسيل الدموع. ومعرض للصدمة، والصدمة تؤدي إلى تفجير الغرور، الذي يهمل الدموع...

يقولون: الأوعية الدمعية تقطر بخار الدم قطرات مالحة، إذا لم تذرف تتحجر ماء أبيض أو ماء أسود يسد البؤبؤ، وتعجز عن استيعاب الكميات الجديدة من بخار الدم، فيبقى في الدم ليفسده بدوره. فلا بد أن تفرغ هذه الأوعية باستمرار.

- والبشر يشعر بضآلته في الكون، فيخشع. ولكنه يوجِّه خشوعه إلى مظهر مخيف من مظاهر الكون، فقد يخشـــع أمام: الرياح، أو النجوم، أو الأصنام...؛ التي ســـخرت له، فليســـت طاغية عليه حتى يتملقها بالخشوع لها.

وما دام البشـــر يبكي ويخشع، فليلخص بكاءه وخشـــوعه أمام الله، الذي هو فوقه بالفعل، حتى لا يظهر بهما أمام من هو مثله من البشر، أو أمام ما هو أقل منه من مظاهر الكون.

- إن الحياة معركة لا يسلم إنسان من صدماتها، والصدمات تؤثر في الدم فتعكره. وفي حالة الإجهاش

ترتفع حرارة الدم – كما يقولون – فتتبخر كمية – مناسبة لدرجة الإجهاش – من رطوباته، وتتجمع في الأوعية الدمعية في طريقها إلى العيون، فإذا بكى خرجت هذه الكمية من رطوبات الدم. والقلب يبدأ – فوراً – بامتصاص كمية مماثلة من رطوبات الجسد، ويدفعها إلى الدم، فيتجدد الدم، وتزول آثار الصدمات منه.

وإذا لم يبك، يبقى الدم متكدراً بالصدمات، وترتفع كدورتها، حتى تتولد فيه قطع متجمدة تسدُّ أحد الشرايين فينفجر، ويؤدي إلى الموت، أو الشلل الكلي أو الجزئي.

ومن هنا... نشعر – بوضوح – أن البكاء يحل العقد المترسبة في النفس... عقدة.. عقدة.. ويريح الباكي من الهموم التي تثقل عليه. ومن هنا... نجد المصاب لا يفرغ مصيبته دموعاً إلا ويتنفس الصعداء، وتتحرك – في قرارته – سعادة ناتجة من هضم المصيبة.

بينما الذي لا يبكي، يتحدى المصيبة، فيما لا يستطيع رفضها في واقعه، فهي نازلة به، وتاركة أثرها عليه، فتترسب – في أعماقه – عقدة، تأخذ مجراها إلى الانفجار.

وعلى الإنسان أن يجري مع الحياة ولا يتحايل عليها، وأن يتفاعل مع الأحداث ولا ينافقها، حتى لا يسحقه الواقع.

٤- الجبان، هو الذي لا يجرؤ على التعبير عما يعتمل فيه. وأما الفرد العادي، فيعبر عما يتحرك فيه. وأما الشجاع، فلا يكتفي بالتعبير – فقط – عما في داخله، وإنما يعكسه على من حوله وما حوله، فيحرك محيطه بالمحركات في داخله، ويخلع ضميره على الناس والأشياء في مدى إشعاعه.

والذي يعرف كيف يبكي، هو الذي يعرف كيف يضحك. ومن يتقن الحرب، هو الذي يتقن السلام. والذين يحسنون التحدي، هم الذين يحسنون قبول التحدي. والفم الذي لا يفصح بـ (لا)، لا يفصح بـ (نعم) ... فالرفض والقبول، والسلب والإيجاب؛ وجهان لعملة واحدة، من لا يطيق التصرف بها لا يطيق أياً منهما.

والذي يكبح عواطفه: فيكفكف دموعه، ويبلع قبلته. وينسى أنينه، ويكبت ضحكته؛ يتعقد بها، فلا يقدر على الجهر بأفكاره، وإطلاق عقله.

فالإنسان: أما أن ينغلق، وأما أن ينفتح. ومن يغمض إحدى عينيه لا يستوعب ما حوله بالأخرى

وحدها، والذي يضع على عينيه نظارة سوداء لا يرى بقية الألوان.

هذا الإنسان، ذلك المزيج المركب من أشياء كثيرة: فإما أن يكون إنساناً كاملاً بكل مواهب الله إياه، وإما أن يكون تمثالاً يصلح للذكرى ولا يصلح للحياة.

- ٢ -

الدموع أنواع: دموع الفرح، ودموع الحزن، ودموع الحب. وكلها صغار، فهي ليست أكثر من قطرات مالحة تعكر وجه الإنسان حتى تعتصرها الأعصاب، لولا أنها تعبر عن الشعور الطيب، وهو كبير.

فالدموع التي تبلور هذا الشعور وتؤصله كبار، لا تبقى قطرات مالحة بمقدار ما تكون دفقات من المعاني النبيلة.

وأما دموع المؤمنين: فهي ليست فضلات تافهة تقذفها الآماق، ولا طلاء نفاق يستر النوايا السود. وإنما هي فورة إيمان تتجسد في قطرات من نور، فتزيدهم أصالة في الرأي وبراعة في الوعي، وتفرِّج العقد التي إن ترسبت في الأعماق، تحولت إلى مادة شديدة الانفجار والتدمير.

(١٨)

سورة الكهف

مكية

وهي مئة وعشر آيات

فكرة التوحيد... وفكرة الشرك...

((واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي : يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم : تريد زينة الحياة الدنيا . ولا تطع من : أغفلنا قلبه عن ذكرنا ، واتبع هواه ، وكان أمره فرطاً)) . [(سورة الكهف : الآية ٢٨) .

ذلك: أن (فكرة التوحيد) حيث توجه الإنسان ـ باستمرار — إلى (الإله الواحد)، تعزز فيه التجمع في

اتجاه ذلك الإله الواحد. ومع تشـرب الفرد هذه الفكرة، يمتلئ كيانه بفكرة الواحد. وهذا الارتكاز على الوحدانية المطلقة في الله – الذي هو المتجه للإنسان في كله – يؤدي به إلى التعبير عن الوحدانية في كل تصرفه: من قول... وعمل... – من يعي أو لا يعي – وهذا التوجه الوحداني الدائم في الإنسان، يؤدي به إلى نوع فريد من التناسق في كل تصرفه من قول... وعمل... فيكون متركزاً، يهدف شيئاً واحداً في كله، وينجح.

وتسـرب فكرة التوحيد إلى تصرف الموحد، ظاهرة شملت حتى (الفن الإسلامي)، ففي الفن الإسلامي من نحت... ورسم... تلتقي الخطوط المتشعبة التي تبدأ من خط واحد غالباً.

بينما غير الموحد يكون منتشـراً في تصرفه، لا تجمعه وحدة معينة، ولا يستأثر بنشاطه خط واحد، لأنه لم يتشرب فكرة التوحيد، حتى يعبر عنه في تصرفه.

وهذه ظاهرة بدت في (الفن غير الإسلامي) من الرسم... والنحت... فهو لا يلتقي بخط لا بدءاً... ولا انتهاءً.

وكما في الفن – باعتباره تعبيراً عن مرتكزات الفنان – كذلك في كل تصرفه، متبعثر... متمزق... كحبات العنب التي سلَّ منها (الشمراخ) المعبر عنها بـ: (الفرط).

((وكان أمره فرطاً)) لا يجمعه رباط، ولا يضمه إلى بعضه، لا المنطلق الواحد... ولا الهدف...

فمن تربَّى على (فكرة الشرك) لا يمكن أن يعبر بـ (التوحيد).

الباقيات الصالحات

((المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير – عند ربك – ثواباً ، وخير أملاً)) . [(سورة الكهف : الآية ٤٦) .

الأعمال قسمان:

١- الأعمال الفانية، وهي: التي تنتهي في حينها. فأكلة أكلتها انتهت فور فراغك منها... ووطر نلته نفد في وقته... وغضبة عبرت عنها – بيد... أو بلسان... – انصرمت بتعبيرها...

٢- الأعمال الباقية، وهي: التي لها أمد بعدها. فمؤسســة شيدتها، لا تنتهي فور الانتهاء من تشييدها... وعلماً سجلته، لا ينفد في وقته... وشخصاً بنيته، لا ينصرم ببنائه...

والأعمال الباقية – أيضاً – قسمان:

١- العمل الباقي الصالح. فالإسلام مؤسسة باقية صالحة... وكل عمل صالح جعلته تقليداً أو عرفاً...

قال رسول الله (ص): (إذا مات الإنسان، انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له) (٨٦).

٢- العمل الباقي الطالح. فالمبادئ الشـيطانية مؤسســة باقية طالحة... وكل عمل سيء جعلته تقليداً أو عرفاً...

قال رســول الله (ص): (أيما داعٍ دعــا إلى ضلالة، فاتبع، فإن عليه مثــل أوزار من اتبعه، ولا ينقص من أوزارهم شـيئاً. وأيما داع دعا إلى هدىً، فاتبع، فإن له مثل أجور من اتبعه، ولا ينقص من أجورهم شــيئاً) (٨٧).

معطيات لقاء موسى بالخضر

((فوجدا عبداً من عبادنا ، آتيناه رحمة من عندنا ، وعلمناه من لدنّا علما *

قال له موسى : هل أتبعك على أن تعلِّمن مما عُلِّمت رشدا ؟ *

قال : إنك لن تستطيع معي صبراً * وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً *

قال : ستجدني – إن شاء الله – صابراً ، ولا أعصي لك أمراً *

قال : فإن اتَّبعتني ، فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً *

فانطلقا . . .

حتى إذا ركبا في السفينة ، خرقها .

قال : أخرقتها لتغرق أهلها ؟ ! لقد جئت شيئاً إمراً ! *

قال : ألم أقل : إنك لن تستطيع معي صبراً ؟ ! *

قال : لا تؤاخذني بما نسيت ، ولا ترهقني من أمري عسراً *

فانطلقا . . .

حتى إذا لقيا غلاماً ، فقتله .

قال : أقتلت نفساً زكية بغير نفس ؟ ! لقد جئت شيئاً نكرا *

قال : ألم أقل : إنك لن تستطيع معي صبراً ؟ ! *

قال : إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني ، قد بلغت من لدني عذراً *

فانطلقا . . .

حتى إذا أتيا أهل قرية ، استطعما أهلها . فأبوا أن يضيفوهما . فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقضَّ ، فأقامه .

قال : لو شئت لاتخذت عليه أجراً *

قال : هذا . . . فراق بيني وبينك . سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً *

أما السفينة :

فكانت لمساكين يعملون في البحر ، فأردتُ : أن أعيبها ، وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً *

وأما الغلام :

فكان أبواه مؤمنين ، فخشينا أن يرهقهما طغياناً . . . وكفراً * فأردنا : أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة . . . وأقرب رحماً *

وأما الجدار :

فكان لغلامين يتيمين في المدينة ، وكان تحته كنز لهما ، وكان أبوهما صالحاً ، فأراد ربك : أن يبلغا أشدهما ،

ويستخرجا كنزهما ، رحمة من ربك ، وما فعلته عن أمري .

ذلك : تأويل ما لم تستطع عليه صبرا *))

[(سورة الكهف : الآيات ٦٥ – ٨٢)]

- ١ -

لهذه القصة القرآنية دلالات... ومعطيات... لا بد من التوقف عليها بعض الوقت:

١- موسى (ع) رسول من الخمسة الكبار المصطفين الذين عهد إليهم الله – تبارك وتعالى – عهوده، فوجد فيهم العزم الأكيد، والقدرة على احتمال الأعباء الباهظة، اللتين لم يجدهما في آدم (ع) حين عهد إليه، فقال:

((ولقد عهدنا إلى آدم – من قبل – فنسي، ولم نجد له عزماً)) (٨٨)، فأنزل الله عليهم رسالاته الكبرى. والخضر (ع) – وهو جورج – نبي لا ريب، ولكن لم يثبت أنه رسول، ولو ثبت أنه رسول فليس من (أولي العزم) حتماً. والمفروض في أولي العزم أن مستوياتهم أعلى من مستويات سواهم، وبذلك: استحقوا أعلى المناصب التشريعية، فكيف نجد موسى – في هذه القصة – يتمنى على الخضر أن يستصحبه في تحركاته، ويمنحه نوعاً من الرشد – الروحي... والفكري... – الذي لم يسبق له أن اكتسبه، ولم يسبق له أن وجد شخصاً ناله؟

ج – إن من يصل – من البشر – إلى مستوى (النبوة) الذي يمكنه من الاتصال المباشر بالله، فيكلمه الله، أو يوحي إليه وحيه؛ يوظفه الله وظيفة متناسبة مع درجته في ذلك المستوى:

((تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض: منهم من كلَّم الله، ورفع بعضهم درجات...)) (٨٩).

فقد لا يكون لمواهبه امتداد لاستيعاب غيره...

وقد يكون عادلاً، راسخ العدالة خارج المسؤولية، ولا يتحمل العدالة فوق مسرح المسؤولية، فيوظفه وظائف تشريعية تخصه، فيكون نبياً لنفسه في مجال التشريع...

وربما يوظفه بوظائف تكوينية لا تجعله على مسرح المسؤولية، وإنما يكون أشبه بالعلماء الكيمياويين والتكنولوجيين وغيرهم، الذين يحركون الحياة من مختبراتهم ومعاملهم، لا من تحت أقواس العدالة؛ فيكون نبياً واسع الصلاحية في مجال التكوين...

وقد يكون لمواهبه امتداد لاستيعاب غيره، فيحتمل ممارسة العدالة فوق مسرح المسؤولية، ولا تكون مواهبه متجاوبة مع العمل التكويني الدقيق المرهق، فيوظفه بوظائف تشريعية متطابقة – في حجمها – مع حجم مواهبه؛ فيكون نبياً واسع الصلاحية في مجال التشريع...

وقد لا يكون له أثر في مجال التكوين، فيكون نبياً أشبه بالمحامين أو الحكام أو النواب، الذين يحسنون التحرك تحت أقواس العدالة فقط.

ويمكن أن نصطلح فنسمي (الوظيفة التشريعية) بـ: (الولاية التشريعية)، وأن نسمي (الوظيفة التكوينية) بـ: (الولاية التكوينية).

وموسى كان نبياً واسع المواهب في المجال التشريعي، فوظفه الله بالولاية التشريعية العامة، وأنزل عليه إحدى أكبر رسالاته التي وسعت القطاع البشري مدى أجيال... ووسعت الدنيا مدى قرون... ولكن كانت مواهبه التكوينية محدودة جداً بالنسبة لخاتم الأنبياء – صلى الله عليه وعليهم أجمعين –.

والخضر كان نبياً واسع المواهب في المجال التكويني، فوظفه الله بالولاية التكوينية العامة مدى أجيال... وقرون... ولكن كانت مواهبه التشريعية محدودة جداً بالنسبة كذلك.

٢ ما هي الولاية التكوينية؟

ج – الولاية التكوينية هي: أن يكون شخص – بمقتضى مواهبه – مساهماً في عملية خلق الأشياء، فيوليه الله الخلق بقدر مواهبه. كما قد تكون لشيء موهبة تساعده على المساهمة في خلق الأشياء، فيوليه الله الخلق بقدر مواهبه، كالشمس... والجاذبية... والأوكسجين... والتراب... والماء... والزمان... والذرات الكونية.

- ٢ -

هذه الآيات تعرض لقاء موسى بالخضر.

التقى موسى الخضر.

وموسى رسول من (أولي العزم) الذين يرأسون المكتب التشريعي، كل في زمانه.

والتشريع: هندسة تنسيق بين تصرفات البشر حتى لا تتناقض فتربك الحياة. فيوضع لإدارة سطح المجتمع، ويراعي مستوى الوعي العام، لأنه يقنن الممارسات الاجتماعية، فلا بد أن يكون ملائماً للمناخ الفكري العام، حتى يهضم الجميع، ويستطيع الجميع تظهيره في حياتهم العملية.

وموسى – نفسه – كان من النوع المنسجم مع التشريع، للانسجام الكامل بين الرسول والرسالة. فكانت عقليته عقلية تشريعية. وكان موسى، وإن بلغ القمة في اختصاصه، إلا أنه لم يبلغ القمة ذاتها في الاختصاص الآخر.

والخضر نبي وإمام. والإمامة: ولاية من قبل الله – تعالى – لإدارة عمق الكون. والتكوين: هندسة لتنسيق الأسباب والمسببات حتى لا تتصادم فتفجر الحياة.

والأئمة يرأسون المكتب التنفيذي، كل في زمانه. ولا يراعى في التكوين شيء من مواصفات الرأي العام، إذ لا تأثير له في مجال التكوين، لأنه لا يطلب منه شيء في هذا المجال. وإنما يراعى انسجام الإمام مع الإمامة، فيكون في مستوى مهامه.

والخضر – نفسه – كان من النوع المنسجم مع التكوين، للانسجام الكامل بين الإمام والإمامة. فكانت عقليته عقلية تكوينية. وكان الخضر، وإن بلغ القمة في اختصاصه، إلا أنه لم يبلغ القمة ذاتها في الاختصاص الآخر.

فموسى لما التقى الخضر تمسك بالخضر، لأنه يعلم أن الخضر خير من يعبر عن الوجهة الأخرى، وهو يريد أن يتعمق فيها.

والخضر يعرف العقلية التشريعية التي لا تلتقي العقلية التكوينية، فاعتذر عن التجاوب مع موسى. ولكن إلحاح موسى على الخضر جعل الخضر يعرض موسى للتجربة، حتى يعلم – عملاً – أن بنيته الفكرية تشريعية وليست تكوينية.

وخاض الخضر ثلاث تجارب رمزية، لم تكن من صلب اختصاص الخضر – فيما أتصور – وإن كانت

من نوعية اختصاصه. وإنما خاضها، ليضع موسى أمام واقعه كرسول، لا كإمام. فلم يستوعب موسى تلك التجارب، وإنما بادر إلى شجبها بمقتضى الأصول التشريعية.

وأخذ الخضر موقفه لإعادة موسى إلى مجال اختصاصه: ((... ذلك: تأويل ما لم تسطع عليه صبراً))، رغم أنها أوليات، فكيف إذا أراد الخضر أن يمارس مهامه الكبرى في رؤية موسى، إذن: لاتخذ موسى من الخضر موقفاً عنيفاً.

- ٣ -

في هذه الآيات... وفي قصة الرفقة القيادية لموسى مع الخضر... توجيه إلى أحد العناصر القيادية الهامة، وهو:

(الانقياد للقائد). فأي مقود اعترف لقائد بالقيادة المطلقة، فعليه أن ينقاد له بدون تخط لحدود اعترافه. فلو أراد المقود – بعد الاعتراف بالقائد – أن يتجاهله، فإنه يجعل القائد عاجزاً عن ممارسة مسؤوليته القيادية.

فتكريساً لقيادة القائد، يمنع المقود من تجاوز صلاحيات القائد، حتى إلى هذا الحد الذي يمنع النقاش أحياناً. لأن الظروف قد تكون دقيقة إلى درجة يؤدي فتح الحوار فيها إلى تفويت فرص لا يمكن ملافاتها، فيؤدي فتح الحوار فيها – من جانب المقود – إلى شل القائد، ويؤدي تقبل القائد للحوار إلى خيانة قضيته.

ولا شك: أن في غلق باب الحوار نوعاً من إخناع المقود، وسلب بعض صلاحياته الإنسانية كمخلوق زوده الله بالعقل ليحركه في تفهم مصالحه، وبالتالي: يؤدي هذا النوع من الانقياد القيادي إلى إشعار المقود بأنه أشبه بالآلة المسيرة منه إلى الإنسان المخير.

كما لا شك: أن في فتح باب الحوار المطلق – بين المقود والقائد – نوعاً من إخناع القائد، وسلب بعض صلاحياته القيادية كقائد منح صلاحيات معينة لأداء مسؤوليات بقدرها، وبالتالي: يؤدي هذا النوع من فتح الحوار المطلق إلى إشعار القائد بأنه أشبه بالقائد الأسمى منه إلى القائد الواقعي، لانخفاض مستوى صلاحياته عن مستوى مسؤولياته.

وإلى جانبهما لا شك:

أن تخفيض صلاحيات المقود لصالح قضيته أولى من تخفيض صلاحيات القائد لصالح المقود وعلى حساب قضيتهما. فالأولوية تعطى للهدف، حيث يجنّد له الأفراد، ويتأهبون للتضحية من أجله.

وتخفيــض معنويــات المقود قد تضر بــه – لا بالعمل – حيث يضطر أن يعمل كأداة لا كإنســان، بينما تخفيض معنويات القائد تضر بالعمل أكثر مما تضر به، حيث يشل عن العمل.

وكلمــا تردد الأمر بين خيارين لا ثالث لهما، ترجح كفة القائد، لأن مداها أوســع، فالعمل متوقف عليه أكثر مما هو متوقف على المقود. والإرادة الواعية التي يمارسها القائد – حين العمل – خير من الشك الباحث عن الوعي الذي يمارسه المقود.

- ٤ -

ومن الطبيعي: أن الانقياد القيادي الذي يلزم به المقود، يطلق ويحدد بإطلاق وتحديد سلطة القائد. ومن هذا الواقع، تتصنف القيادات إلى أربعة أقسام:

١- القيادة المطلقة: كقيادة الأنبياء والأئمة – عليهم الصلاة والسلام – التي هي في واقعها تعبير عن الله الذي له السلطة الطبيعية المطلقة، فيجب أن يكون الانقياد لها مطلقاً:

((وما كان لمؤمن ولا لمؤمنة – إذا قضى الله ورسوله أمراً – أن يكون لهم الخيرة من أمرهم، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً)) (٩٠).

٢- القيادة المحدودة: كقيادة الأب التي هي – في مجالها – أمر طبيعي، لأن له ســلطة طبيعية، فيجب أن يكون الانقياد لها محدوداً بحدودها:

((وقضى ربك: ألا تعبدوا إلا إياه، وبالوالدين إحساناً، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما – أو كلاهما – فلا تقــل لهما: أف، ولا تنهرهمــا، وقل لهما قولاً كريماً ۝ واخفض لهما جناح الــذل من الرحمة، وقل: رب! ارحمهما كما ربياني صغيراً)) (٩١).

((ووصينا الإنسان بوالديه حسناً، وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما، إليَّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون)) (٩٢).

٣ـ القيادة التنفيذية: كالقيادة العسكرية التي بدورها تدين بالطاعة للقيادة التشريعية، ويلزم أن يكون الانقياد لها، لأنها ليست مسؤولة عن الجانب الفكري للقضايا التي تعمل لتنفيذها، وإنما هي واسطة التنفيذ بين السلطة التشريعية ـ إن صح التعبير والمنفذين.

٤ـ القيادة الإقناعية: كالقيادات الديموقراطية التي ليست لها سلطة طبيعية، وإنما لها سلطة بالنيابة عن المنفذين أنفسهم، فيلزم أن يكون الانقياد لها ما دام المنفذون مقتنعين بها، وإذا انهارت قناعتهم بها سقط الانقياد لها أوتوماتيكياً.

وانقياد المقود للقيادات الثلاث الأول، وللقيادة الرابعة ما دامت القناعة قائمة؛ أمر بدونه تسقط القيادة عن الحركة، ويصبح القائد – مهما كان بارعاً – فاشلاً لا يقدر على شيء، فيأكل الحزن قلبه دون أن ينتج شيئاً مذكوراً.

ولذلك: كان تذمر الإمام أمير المؤمنين (ع) عاصفاً حينما مني بجيش غير منقاد، إلى درجة أنه يوقف القتال – في اللحظات الحاسمة – لإبداء رأيه، فيقول – في إحدى صواعقه الغاضبة –:

(...إلا... وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً... وسراً وإعلاناً... وقلت لكم: (اغزوهم قبل أن يغزوكم فـ - والله – ما غزي قوم قط في عقر دارهم إلا ذُلّوا). فتواكلتم، وتخاذلتم، حتى: شُنَّت عليكم الغارات، وملكت عليكم الأوطان...).

(... فقبحاً – لكم – وترحاً، حين صرتم غرضاً يرمى، يغار عليكم ولا تغيرون، وتُغزَون ولا تَغزُون، ويعصى الله وترضون. فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الحر، قلتم: هذه حمارة القيظ، أمهلنا يسبخ عنا الحر. وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء، قلتم: هذه صبارة القر، أمهلنا ينسلخ عنا البرد... كل هذا... فراراً من الحر والقر. فإذا كنتم من الحر والقر تفرون، فأنتم – والله – من السيف أفر).

(يا أشباه الرجال – ولا رجال –! حلوم الأطفال! وعقول ربات الحجال! لوددت: أني لم أركم، ولم أعرفكم معرفة – والله – جرت ندماً، وأعقبت سدماً. قاتلكم الله... لقد ملأتم قلبي قيحاً، وشحنتم صدري غيظاً، وجرَّعتموني نغب التهمام أنفاساً، وأفسدتم عليَّ رأيي بالعصيان والخذلان، حتى قالت قريش: (إن ابن أبي طالب، رجل شجاع، ولكن لا علم له بالحرب). لله أبوهم! وهل أحد – منهم – أشد لها مراساً، وأقدم فيها مقاماً، مني؟! لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين، وها... أنا – ذا – قد ذرفت على الستين، ولكن: لا رأي لمن لا يطاع...) (٩٣).

- ٥ -

س: هل هذا الاختلاف الذي أدَّى إلى الفراق، دليل على تناقض الأنبياء فيما بينهم كسائر الناس؟ أو على تناقض الرسالات السماوية فيما بينها كسائر العقائد؟

ج:

١- الاختلاف لا يعني التناقض بالضرورة، فهل تعرف إنسانين يتفقان في كل شيء؟

وهل تتفق أنت... وأبوك... وإخوتك... في كل شيء؟

وهل تتفق أصابع يديك على بصماتها؟

أنا أختلف معك... ومع كل فرد من الناس... على أشياء كثيرة.

ولكن علينا: أن نفرق بين الاختلاف مع شخص وبين الاختلاف عليه، أي: بين التعدد والتصادم.

إن الناس، كما يختلفون في أجسامهم، كذلك يختلفون في آرائهم... وفي استيعابهم للأشياء... ومن هنا: يختلف تقييمهم... وموقفهم... وهذه ظاهرة تدل على تعددية الناس، وعظمة الله في تنويع خلقه. وهي ظاهرة صحية ما لم تؤدِّ إلى التناقض.

ولعل من مظاهر قصور الناس في إعطاء الأشياء أحجامها المناسبة، إسراءهم الاختلاف مع شخص على شيء، إلى الاختلاف على ذلك الشخص، فيتناقضون. بينما الأنبياء يضعون الأمور في نصابها، فيختلفون، ولا يتناقضون.

٢- إن اختلاف رسالات السماء فيما بينها، دليل تعددية الرسالات، وليس دليل تناقضها.

فإذا تعددت الوظائف في الدولة... وتعددت الاختصاصات في الجامعات... وتعددت المهن في السوق... فهل هذه التعددية تعني التناقض؟!

لقد كانت رسالة موسى تشريعية، فيما كانت رسالة الخضر تنفيذية. فكان من الطبيعي أن يختلفا، وأن لا يتحمل أحدهما رسالة الآخر، وأن يفاجأ بتصرفاته، دون أن يؤدي ذلك إلى تناقضهما، أو يعني تناقض رسالتيهما.

ولذلك: إن الخضر عندما أعلن الفراق بينه وبين موسى، لم يعلله بوجود تناقض بينهما، وإنما برره بعدم استطاعة كل منهما – بمقتضى إمكاناته... واستعداداته النفسية... – تحمل رسالة الآخر.

((قال)) الخضر لموسى ((هذا)) الاعتراض الثالث على أعمالي التنفيذية، دليل ثالث على تمحُّض إمكاناتك في الأعمال التشريعية، وهو ((فراق بيني وبينك)) في النوعية.

وهذه الأدلة الثلاثة تكفيك لإقناعك بعذري الذي أعلنته لك منذ أولى لحظات لقائنا: ((إنك لن تستطيع معي صبراً)).

- ٦ -

وفي القصة عظتان تربويتان:

١- الإنسان جزء من الكون، ومهما توسع يبقى جزءاً من الكون، فلا يستطيع أن يستوعب الكون بشكل من الأشكال.

وكل شيء في الكون معلوم، يمكن أن يتعلق به العلم. فبمقدار ما يكون الإنسان من الكون، يكون علمه من العلم: كما أنه محاط بالهواء وليس محيطاً بالهواء، فيستطيع أن يتنفس من الهواء بمقدار رئته ولا يستطيع أن يتنفس الهواء كله بشكل من الأشكال.

فلذلك: إذا عرف الإنسان الكون... وعرف نسبته من الكون... يعرف نسبة علمه من العلم، وإذا جهل الإنسان الكون... وجهل نسبته من الكون... يجهل نسبة علمه من العلم: فيتصور أن علمه كثير، ويجرفه الغرور إلى حيث يطبق عليه الجهل، فلا يحلم بالعلم.

كما أن الإنسان، إذا كان عارفاً بالثروات الموجودة في الكون، لا يستخفه الغرور مهما أوتي من المال... وأما إذا كان جاهلاً بالثروات المكتنزة في الكون، فربما يظن أنه ملك كل شيء إذا وجد في كفه حفنة من المال...

فمهما ازداد الإنسان علماً ازداد معرفة بمدى جهله، أو بمدى ما يجهله.

فالعلم ككرة من النور في فضاء من الظلام: كلما كبرت هذه توسع سطحها، وكلما توسع سطحها لمست أكبر مساحة من الظلام، فأحست بكثرة الظلام حولها... وكلما صغرت تقلص سطحها، فلمست أقل مساحة من الظلام، فأحست بقلة الظلام حولها.

فهذا... موسى، رغم أنه أحد الخمسة الكبار من الأنبياء، لم يظفر بالخضر، إلا وتمسك به، مع اعتذار الخضر. لأن موسى من أعلم الناس بمدى جهله، فيحاول تقليصه بالمقدار الممكن.

٢- إن المسؤوليات توزَّع على الناس بقدر مواهبهم: فكلما رجحت المواهب تعاظمت المسؤوليات، وكلما خفت المواهب تضاءلت المسؤوليات. وهكذا... تتعالى، أو تتواضع، الدرجات في سلم الاجتماع.

٣- ثم: النوعية تراعى بين الموهبة والمسؤولية، لضرورة الانسجام بينهما.

٤- فلموسى مسؤولية بقدر... ونوعية... موهبته، وللخضر مسؤولية بقدر... ونوعية... موهبته. وكل في مجاله قمة، ولكنهما لا يلتقيان، لا لأنهما متناقضان، بل لأنهما متوازيان في الحركة كما في الواقع.

كلمات الله

قل:

((لو كان البحر مداداً لكلمات ربي، لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي، ولو جئنا بمثله مدداً)). [(سورة الكهف: الآية ١٠٩)].

١- كلمات الله – تبارك وتعالى – كثيرة، لأنها مولدات الأشياء، أو المادة الأساسية التي تتطور إلى سائر الأشياء، فما من شيء إلا وقد تطور من كلمة من كلمات الله.

والموجودات كثيرة، وكل منها متطور من كلمة، فكلمات الله بعدد كل وحدة وجودية.

نعم: إن لله كلمات قائمات بذواتها، لا تتطور إلى أشياء أخرى، لأنها ليست من نوع الخامات التي تقبل التطور في سلَّم الكمال، لأنها كاملات في بدئها. ولعل إليها يشير التعبير الدعائي: (... وبشأن الكلمة

التامة...) (٩٤).

إذن: فكلمـــات الله أكثــر من ذرات الموجودات، ومنها ذرات مياه الدنيـــا. فإذا كتبت بها كلمات الله، فإنها لا تحصيهـــا. لأن كل ذرة مـــاء تكتب بها كلمة، هي – ذاتها – كلمة من كلمات الله، أو متطورة من كلمة من كلمـــات الله. فهي قد تحصي الكلمات المتطورة إلى الماء، ولكنها لا تحصي الكلمات المتطورة إلى ســـائر الأشياء، كما لا تحصي الكلمات التامات التي قد تكون أكثر عدداً من الكلمات المتطورة.

ثم: إننا قد نستطيع تصوراً آخر، وهو: إن كل ذرة – في أصلها – كلمة، وتحتاج – في تطورها – إلى كلمة أخرى، ويحتاج استمرار كل لحظة إلى كلمة ثالثة. فكل ذرة تعبر عن كلمات كثيرة، فكيف يمكن إحصاؤها – كلها – بمياه البحار مهما تضاعفت البحار؟! لأن البحار المضاعفة – بدورها – كلمات متطورة.

٢- وقد تكون كلمات الله أجناساً... وأنواعاً... وأصنافاً... مختلفة، ويتطور كل منها – حسب المناسبات – إلى متشابهاتها، طبقاً للسنة التي قررها الله للتطور.

٣- الكلمة زبدة الخيال، والخيال لا يكلف عناء حتى يهيج ويرغو، ثم ينتشر حتى يلف كل شيء.

والواقـــع حصيلة نمو العناصر الكونية، وتفاعلها، المنظمين المحدوديـــن، اللذين لا يتجاوزان طورهما مهما اشتد الإلحاح.

وفي مثل هذه الحالة، يتوقع أن تكون الكلمة أكبر من الواقع. ولكن الواقع أكبر من الكلمة، فلماذا؟

أ لأنَّ الكلمة زبدة خيال الإنسان، والإنسان... وخياله... جزيء صغير من الواقع الكبير:

((لخلق الســـماوات والأرض أكبر من خلق الناس، ولكن أكثر الناس لا يعلمون)) (٩٥). فالخيال يلهث وراء الواقع، ولا يطاله؟

أم لأن الكلمة من صنع الإنسان، وهو لا يبدع شيئاً، وإنما ينعكس عليه بعض الواقع، فيطوره بما يملك من أدوات، والكلمة أفضل أدواته؛ بينما الواقع من صنع الله المطلق الذي لا يحده شيء؟

ومهما يكن السبب، فالكلمة تبقى قاصرة، تعكس صفة من صفات المسمى، بلا توازن ولا شمول. فكلمة (الســـماء) مشتقة من الســـمو الذي يعني مجرد العلو، والعلو صفة ظاهرية للسماء لا أكثر، ولا تطابق بين

السـماء كواقع كبير واسـع وبين العالي مجرد العالي... و (الحيوان) من الحياة... و (الإنسان) من الأنس... و (الدابـة) من الدبيب... و (الطوفان) من الطواف... و (السـيل) من السـيلان... والفـارق بين هذه الكلمات ومسمياتها، صارخ.

ومهما كانت دلالات الكلمات... وظلالها... وإيحاءاتها... فكلها انعكاسات المسميات عليها.

وأمـا الكلمة التي لا فجوات فيهـا... ولا فراغات... وتبقى أوزن من الواقع... وأشـمل... فهي الكلمة غير الملفوظة، إنها كلمة الله. فهي أغنى من الواقع، لأنها الواقع الأساسي الذي ينشأ منه كل واقع.

(١٩)

سورة مريم (عليها السلام)

مكية

وهي ثمان وتسعون آية

أهداف سورة مريم

سورة مريم: إنها سورة أنبياء، سورة عدد من الأنبياء الكبار: زكريا ويحيى، عيسى وأمه، موسى وهارون، إسماعيل... ولكنها حملت اسم مريم، لأن قصتها قمة القصص، بالنسبة إلى أهداف السورة.

هذه السورة، تسعى نحو الأهداف التالية:

١- إرهاصـات النبوة: فالأنبياء يختلفون عن غيرهم، فحياتهـم – منذ بدايتها وحتى نهايتها – محفوفة بخوارق معجزية، تشدُّ بهم الأنظار والأفكار، وتهيئ الرأي العام لاستقبال ظاهرة جديدة:

فيحيى ولد بطريقة غير عادية، من أم عاجزة عن الإنجاب – عادة – فهي عاقر، وأب عاجز عن الإنجاب – عادة – فهو أكبر من سن الإنجاب.

وعيسى ولد بطريقة غير طبيعية، بدون أب.

وإبراهيم ولد – روحياً – بطريقة غير مألوفة، فقد نشأ قمة إيمان في مناخ الشرك، فأسرته تنحت وتبيع الأصنام، حتى تمثل جبهة الشرك.

وموســى تكوَّن وترعرع وعاش بين أنياب المخاطر: فقد انعقد تحت عرض (فرعون) الذي فصل الرجال عن النســاء حتى لا ينعقد موســى، ونشأ في أحضانه وهو يذبح المواليد عسى أن يكون بينها موسى، وجهز الجيوش ليقتل موسى، ففاته الطلب، وهو الذي لم يفته طلب. وهكذا... بقية الأنبياء.

٢- الله قريب من أنبيائه:

فيحيى وعيسى معرضان للتهمة، فدافع عنهما الله حيث زودهما بالمعجزات منذ الصبا، فجعلهما نبيين، آتاهما الحكم والحكمة صبيين، ليدل على أن طريقة ميلادهما إرهاص، لا أي شــيء آخر، مما قد يعرض له سائر الناس.

وإبراهيم معرض: للتصفية الفكرية، بتأثير أسرته عليه، عن طريق غسل الدماغ. وللتصفية الجسدية، عن طريق إحراقه بالنار. فزوده الله بالحجة الدامغة، والفكر المنتصر، وجعل النار عليه برداً وسلاماً.

وموسى معرض – كل يوم – للموت بسيف (فرعون)، فأخفى الله انعقاده وميلاده ونشأته، حتى إذا وضح كل شــيء وسار (فرعون) بجيوشــه للقضاء الكامل على موسى وأتباعه، فإذا بموســى يعبر البحر، وتبتلع أمواجه (فرعون) وجيوشه.

٣- مواهب الله لأنبيائه: فالله وهب... ووهب... ووهب...، وأعطى... وأعطى... وأعطى...

وهناك أهداف تأتي جانبياً:

١- الإنســان سريع الطلب، حتى لما لا يصدَّق تحققه، ولكن الله الرؤوف بالإنسان، يحقق له حتى ما لا يصدَّق:

فزكريا طلب من الله ولداً، فلما بشِّر به، جعل يحاور في إمكان تحقق ما طلب:

((قال: ربِّ! أنى يكون لي غلام، وكانت: امرأتي عاقراً، وقد بلغت من الكبر عتياً؟!)) (٩٦).

٢- يحيى ولد بطريقة غير مألوفة، فتعرَّض للتهمة. وعيسى ولد بطريقة غير طبيعية، فتعرض للتهمة.

٣- اضطر زكريا إلى رفض التهمة بالإضراب عن الكلام مع الناس:

((... قال: آيتك، أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً)) (٩٧).

ومريم اضطرت إلى رفض التهمة بالإضراب عن الكلام مع الناس:

((... فإما ترينَّ – من البشر – أحداً، فقولي: إني نذرت – للرحمن – صوماً، فلن أكلم – اليوم – إنسياً)) (٩٨).

٤- استغلال (آزر) لقوته المعنوية على إبراهيم – كعم يعتبر بمثابة أب – في الحوار، وأدب إبراهيم مع عمه، مع أن الحجة لإبراهيم على عمه. فرغم أن (آزر) ينطلق من موقع القوي المتعنت، يتحرك إبراهيم – تجاهه – من قاعدة الطبيب النفساني، الذي يتواضع، عساه يفلح في علاج من يراه فوقه، بمقاييس القدرة العاطفية أو الزمنية.

البرَّان

((وبراً بوالديه، ولم يكن جباراً عصياً)). [(سورة مريم: الآية ١٤)].

كلمة: (البر) وردت في القرآن، بالنسبة إلى اثنين من أنبياء الله العظام، هما: يحيى في هذه، وعيسى بن مريم في قوله تعالى – نقلاً عنه (ع) –: ((وبراً بوالدتي...)) (٩٩).

والبر ليس هو البار، وإنما هو أعمق محتوى من البار.

فالبار: كل من عمل البِرَّ ولم يعمل الشر، حتى طبع البر حياته، فأصبح البر منه مستمراً في الماضي والحاضر والمستقبل.

وأما البرُّ: فهو الذي تمحض في البِر، حتى كان قطعة من البِر.

فللبر صيغتان: صيغة فكرية تسمى بـ (البِرّ)، وصيغة بشرية تسمى بـ (البَرّ).

ود المؤمنين

((إن آمنوا وعملوا الصالحات، سيجعل لهم الرحمن وداً)).[(سورة مريم: الآية ٩٦)].

الكفـــار يتعاملون بقيم الكفر، والمؤمنـــون يتعاملون بقيم الإيمان. والكفر يعتمـــد على إنكار الحقيقة، فيؤدي إلى التناقض المســـتمر. والإيمان يعتمد على الاعتراف بالحقيقة، فيؤدي إلى الانســـجام المســـتمر. فالرؤساء ثلاثة:

١- فالرئيس الكافر: يحكم مرؤوســـيه بمنطق الجبابرة والطواغيـــت، فيعاملهم باعتبارهم مجرد أدوات بســـائط، فينزع الأنفاس من صدورهم، والنبض من عيونهم، فيرونه جلادهم المباشـــر، وجلاد الشعب من خلالهم، فيكرهونه كرهاً مطلقاً يرفض الحدود.

٢- والرئيس المؤمن الفاســـق: وإن كان إيمانه يجعل له منطلقات تختلف عن منطلقات الكفار، إلا أن عدم التزامه الإيماني، يجعله على المنزلق إلى خط الرئيس الكافر، فيعمل بازدواجية.

٣- وأما الرئيس المؤمن الملتزم: فيحكم مرؤوسيه بمنطق التقوى والتواضع، ويعاملهم باعتبارهم أمثاله فـــي الخلـــق وإخوانه في الدين، ولعلهم أكرم على الله منه إذا كانـــوا أتقى منه. فيحكمهم ولا يتحكم فيهم، ويأمرهـــم بما يؤمنون به، وينهاهم عما يكفرون به، وربما يعاقبهم، أو يقتص منهم، ولكنه لا يتخذ ســـوى التدابيـــر الإيمانية، التي يشـــتركون معه في الالتزام بها، وقعرفونها حقـــاً. فيحبونه حب عمل مطلق يرفض الحدود وعلى العموم، جوُّ الكفار: جو تربص، لفقدان عناصر التواضع، ومحاولة كل تسلق الآخر، أو إبعاده عن طريقه. والتربص يؤدي إلى الترقب والحذر، وأجواء التوتر والتوجس مرهقة تثير الكراهية والاشمئزاز.

وأما جو المؤمنين: فيسوده عنصر التواضع في المقابلات، وعنصر خدمة الغير في المعاملات. فيغيب عنه التزاحم والتكايد، ويشيع فيه روح الاستباق إلى الخير. ومثل هذا الجو، مريح ينمي المحبة والألفة.

وفوق ذلك، يتدخل مصدر الغيب: ((سيجعل لهم الرحمن وداً)).

(٢٠)

سورة طه (ص)

مكية

وهي مئة وخمس وثلاثون آية

موقف المؤمن من المنحرف

((اذهبا إلى (فرعون) ، إنه طغى *فقولا له قولاً ليناً ، لعله يتذكر أو يخشى)) .[(سورة طه : الآيتان ٤٣ – ٤٤)]

المؤمن – دائماً – يمثل القوة المؤثرة، والمنحرف – دائماً – يمثل القوة المتأثرة. وموقف المؤمن المسؤول أو غير المسؤول، من المنحرف المسؤول أو غير المسؤول، يحدده ميزان القوة في الساحة بينهما، فـ:

١- المؤمن يجسد القوة الراجحة. وعندئذ: يحاول تعديل المنحرف بالمنطق، فإن أصر المنحرف يعدله بالعنف. ويتدرج في العنف حسب درجة الانحراف، وبأقل ما يكفي من درجات العنف؛ وفق التعاليم الفقهية في النهي عن المنكر.

٢- المؤمن يجسد القوة الموازنة.

وعندئذ: يحاول نفس المحاولة، بفارق واحد، هو:

أن المؤمن الأول يجد المرونة الكافية لتصعيد الموقف، فينتقل من كل مرحلة إلى الأعلى منها بعد فشل التجربة فيها، لاطمئنانه إلى أنه اليد العليا؛ بينما المؤمن الثاني لا يجد مثل تلك المرونة، فيستغني عن التجربة بالدراسة، ويعتمد المباغتة.

٣- المؤمن يجسد القوة المرجوحة.

وعندئذ: يدور في نطاق المنطق، فيحاول التأثير الفكري على المنحرف بإيقاظ ضميره، فإن أصر يشهر في وجهه الحرب الفكرية بإيقاظ ضمائر من حوله، لإجباره – بتأثير من حوله – على السير المستقيم، بقناعته – هو – أو بقناعة من حوله.

ورغم أن محاولة التأثير الفكري على المنحرف، تبدو محاولة محتومة الفشـــل في كثير من الأحيان، وخاصة: عندما يكون المنحرف قد أسس حياته على الانحراف، ونجح نجاحاً باهراً مكَّن منه مركب العظمة، بحيث يكلفه التراجع عن الانحراف كل أمجاده وربما حياته – وهذا... يحتاج إلى نفس قوية مخلصة ليست للمنحرف وإلا لما انحرف –؛ حتى تبدو كلمة المؤمن لديه مثاراً للغضب أو مثاراً للسخرية، فتكون انطلاقة الكلمة المرشدة أشد على المؤمن منها على المنحرف.

وفـــي مثل هذه الحالة، يحاول بعض المؤمنين التهرب من المســـؤولية باللجوء إلى اليأس، فيحاول كل: تجميع وتربية اليأس في نفسه، وتيئيس الآخرين.

ولكن هذا اليأس مختلق، يتكون بالإيحاء المنبعث من الشعور بثقل المسؤولية، وينقشع بمقارنة سلبيات المنحرف مع إيجابياته.

- صحيح أن في الانحراف نوعاً من الإغراء الذي ليس في الاستقامة.

- صحيح أن التراجع عن الانحراف قد يكلف كثيراً.

ولكن:

- صحيح – أيضاً – أن في الانحراف نوعاً من القلق ليس في الاستقامة.

- وصحيح – أيضاً – أن التراجع عن الانحراف يفتح على المنحرف أبواباً جديدة.

ثم: إن المنحرف مهما توغل وتمادى، حتى ولو أصبح (فرعون)؛ فإنه لا يعدو إنســـاناً من لحم ودم، فيه من العاطفة والضمير مثل ما في الآخرين.

فكما أن أي فرد يمكن أن يتأثر بالحق، كذلك المنحرفون.

وقبل ذلك كله، للمؤمن رصيد في داخل المنحرف، وهو: ((... فطرة الله التي فطر الناس عليها...)) (١٠٠). وهـــذا الرصيد يتحـــرك ويتفاعل فور ما يأتيه مدد من الخارج، فلا يتكلـــم المؤمن إلا ويجد صداه في عمق المنحرف.

إذن: فلا يأس، مهما كان المنحرف متوغلاً في انحرافه، ومهما كان متعجرفاً في غلوائه.

ومـــن هنـــا... ورد التأكيد على رفض اليأس، فقال النبي الأكرم (ص): (... ألا إن أفضل الجهاد، كلمة حق عند سلطان جائر) (١٠١)، وقال الله تعالى:

((اذهبـــا إلى فرعون))، اذهبا ولا تيأســـا منه. ((إنه طغى)) وتجاوز حـــدوده حتى غمر غيره. وهذه... هي اللحظة التي تساعدكما على رده إلى حجمه الصحيح، ووضعه في مكانه الطبيعي.

فلحظة طغيان الظالم هي لحظة فوران ضميره، وتفاقم عذابه الداخلي. فلا تأتيه النجدة من خارجه، حتى يتغلب ضميره عليه، ويتقهقر، فلا يزداد الإنســـان طغياناً، إلا ويزداد اســـتعداداً للعودة. لأن الضمير لا يستقر من نشاطه إلا بمقدار ما يجد النفس قد استنفرت من نشاطها، ولا يقوى انفجار الضمير إلا بمقدار ما يقوى كبته. فإذا اســـتنفدت النفس كل طاقاتها، واستوفت كل أغراضها؛ فليعلم بأن الضمير قد استنفد كل طاقاته على التحشـــيد، وأنه في حالة التأهب القصوى للرد الكافي. فـــذروة طغيان الظالم، هي ذروة نضوجه. ففي قوله تعالى: ((إنه طغى))، إغراء لموسى وهارون بالذهاب إلى فرعون، لاشتداد الأمل فيه.

وفرعون، مثلاً للقمة، لا بد أن تطاله الدعوة:

١- أنه كبشـــر له الحق في الدعوة، حتى يتعرض للتجربة، فيتخذ مساره عن وعي كامل، أي: حتى تتم الحجة عليه، ويشمله قول الله تعالى:

((إنا هديناه الســـبيل: إما شاكراً وإما كفورا))، فيجد نفســـه على مفترق طريقين، أحدهما طريق الحق، والآخر طريق الباطل؛ لا أن يترك لنداء العفويات حوله، فيجد نفســـه على طريق هو طريق الباطل، دون أن يجد الطريق الآخر الذي هو طريق الحق.

٢- إن الدعوات الرسالية التي تنتشـــر في المجتمعات، تحدث اهتزازات تؤدي إلى انشقاقات. لأن فعل الرســـالة يتعاظم حتى يفرز جبهة، وردود فعل الرســـالة تتكاثف حتى تفرز جبهة، وينشب الصراع، ويتفاقم حتى يأخذ مداه، فينتصر جانب وينهزم جانب.

وارتفاع الجانب المنتصر يؤدي إلى غروره، وانحسار الجانب المنهزم يؤدي إلى غيرته، فينقلب الميزان، حتـــى يرتفع المنهزم إلى أقصى انتصاره، وينحدر المنتصر إلى أدنـــى انهزامه، لينقلب الميزان مرة أخرى، فيأخذ كل دور الآخر، وهكذا... باستمرار.

ويضطرب الإنســان بين المدَّين: كما تضطرب القشــة على الماء، عندما تطاول موجتان. تماماً... كما يتأرجح الإنسان على الأرجوحة، بفعل حركته المعاكسة للجاذبية والجاذبية المعاكسة لحركته.

فالاتجــاه نحو الانحراف يحمل – فــي هيولاه – عنصر العودة إلى الاســتقامة، ولكن بعد أن يبلغ مدى اندفاعه. وبمقدار ما تكون الســرعة نحو الانحراف، تكون الســرعة نحو الاستقامة. فالمنحرف عائد – غالباً – إن بقي حتى يبلغ مدى انحرافه.

والدعوة تخفف من السرعة نحو الانحراف لتقصير مداه، لأنه يعيق التأرجح نحو الانحراف، وللمعوقات فعلها الطبيعي. إذن: فلا بد من الدعوة للمنحرفين، لأن الدعوة معوقة، لا يمكن أن لا يكون لها أي أثر.

المعيشة الضنك

((ومن أعرض عن ذكري، فإن له معيشة ضنكاً)). [(سورة طه: الآية ١٢٤)].

كل خط في الحياة – إن بلغ مداه – فله نتائجه الراشدة، غير أن الخط المستقيم حسناته أكثر من سيئاته، والخط المنحرف ســيئاته أكثر من حســناته. كما أن كل شجرة – إن بلغت نضجها – فلها ثمراتها الراشدة، غير أن الشــجرة الطيبة فوائدها أكثر من مضراتها، والشــجرة الخبيثة مضراتها أكثر من فوائدها. فلكل خط حياتي بالغ، حسنات؛ كما أن لكل شجرة ناضجة فوائد.

فكل من سار في خط حياتي برهة من الزمن، ثم عدل عنه إلى خط آخر فسار فيه برهة أخرى؛ فقد تحمل صعوبــات الخطين، دون أن يجني حســنات من أي الخطين، لأن أي الخطين لــم يبلغ به مداه حتى يثمر. فيشــبه من زرع أرضاً بشجرة، وقبل نهاية الموسم اقتلعها وزرع شجرة أخرى؛ فقد دفع نفقات الشجرتين ولم يربح ثمار أي من الشجرتين.

ولكل إنســان – في الحياة – طاقة محدودة، إن أنفقها وعوض بمكاســب – مهما كانت محدودة – فقد اكتسب سعادة ولو محدودة، وأما من استهلك طاقة ولم تعوض، فقد شقي شقاء غير محدود.

وكما أن ربيع السنة لا يحتمل شتلين، كذلك: ربيع العمر لا يحتمل خطين.

وكما هو حق بالنســبة إلى من عدل عن الحق إلى الباطل، فلا يبلغ مدى الباطل كمن تقطر منه، كذلك: هو حق بالنســبة إلى من عدل عن الباطل إلى الحــق، فهو لا يبلغ مداه كمن تبرعم عنه. غير أن من يعدل

عن الباطل إلى الحق، حيث يتحول من الأدنى إلى الأعلى، فأدنى ما يربحه أفضل من أقصى ما يخسره، فيطمئن إلى القليل من ريع الحق لأنه كثير في تطلعاته.

وأما من يعدل من الحق إلى الباطل، فحيث يتحول من الأعلى إلى الأدنى، فأقصى ما يربحه لا يعادل أدنى ما يخسره، فلا يطمئن حتى إلى الكثير من ريع الباطل – لو توفر له – لأنه قليل في تطلعاته. فيشعر بضيق خانق لسببين:

١- لأنه – بالفعل – تحول من الأعلى إلى الأدنى، فيشعر بالضيق لتنزله.

٢- لأنه تحول من الحق إلى الباطل، بحثاً عن الأكثر والأفضل، فخسر الأكثر والأفضل. فيشعر بالضيق، لخيبة أمله.

شأن (أنصاف المؤمنين)، الذين لم يلتزموا التزاماً مطلقاً بالخط الإيماني حتى يجنوا مكاسبه، ولم يتسيَّبوا تسيباً مطلقاً مع الخط الانفلاتي حتى يستمرئوا لذائذه. وإنما أخذوا يتعرجون بين. بين، خطوة نحو هذا الخط، وخطوة نحو ذاك، يدفعون ضريبتين ولا يكسبون أي مكسب.

فهم – في عرف المؤمنين – مؤمنون من الدرجة الثانية، وهم – في عرف المنفلتين – حياتيون من الدرجة الثانية أيضاً.

الخط الإيماني يدفع بهم إلى الدرجة الثانية، والخط الانفلاتي يدفع بهم إلى الدرجة الثانية أيضاً.

فهم: أنصاف مؤمنين، وأنصاف أحياء.

وقد وقعوا في زاوية حادة، بين خطين قويين يضيقان بهم الخناق.

فلهم، معيشة ضنك.

الإسراف والمسرف

((وكذلك: نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى)). [(سورة طه: الآية

.(١٢٧

(الإســـراف) هو إهدار الشيء، واستهلاكه بدون اســـتيفاء الفائدة المعتادة منه. والإسراف – ذاته – يكشف عن النزق الحاكم على تصرفات المسرف، لأنه ممارسة بلا جدوى. وكل ممارسة بلا جدوى، محاولة لملء فراغ – في النفس – بغير المضمون المناسب له. وهذه المحاولة، من النزق الذي: يكرهه كل فرد في الآخر، ويستحبه في نفسه.

والإسراف أقسام:

١- الإسراف في المواد الكونية التي ليست تحت حيازة أحد. كإتلاف: النباتات البرية، والمياه، والمعادن، والحيوانات الوحشية...

٢- الإســـراف فـــي مال الغير – ســـواء كان بعلمه وموافقته، أو بدون علمه، أو بـــدون موافقته - كإتلاف الأشياء النقدية أو العينية، الداخلة في حيازة الغير.

٣- الإســـراف في مال المســـرف نفسه. كإتلاف الإنســـان بعض الأشـــياء النقدية أو العينية، الداخلة في حيازته.

٤- الإسراف في نفس المسرف نفسه. كإتلاف الإنسان بعض أعضائه أو طاقاته؛ ببتر إصبع من أصابعه، أو تعطيل سامعته...

وإذا أردنا تقويم الإسراف، فلا بد من النظر فيما يلي:

١- الحد الذي يميز الإســـراف، يبتدئ بالقليل والتافه الذي يملك ولا يمول. وهو كل ما يمكن الاستفادة منه بشكل من الأشكال، وإن لم يكن باستطاعته الاستفادة منه، ففي الحديث: (إلقاء النواة، وثمالة الإناء ولو على الشاطئ؛ من الإسراف) (١٠٢).

فكل شيء موجود؛ وجد بحكمة، واتخذ مساره برسالة. وفي مقياس الكون، كل موجود عضو في الكون وله رسالته؛ مهما كان في تقييمنا. لأن تقييمنا ناتج عن حاجتنا، وحاجاتنا – أو عدم حاجاتنا – إلى شيء، لا يغير شيئاً من واقعه. وأما الكون: فهو بحاجة إلى جميع أشيائه، وهو أعرف باستهلاك ما يستغني عنه.

٢- لا يشترط في تحقق الإسراف أن يكون كل ما تعمله نزقاً، فإعطاء أي شيء أكثر مما يناسبه إسراف: فالأكل أكثر مما يحتاج إليه الجسم، إسراف في المادة التي تأكلها، وفي جسمك الذي تحمله أكثر من طاقته. وإعطاء الوقت لأصدقائك وأسرتك وعملك... أكثر مما ينبغي، إسراف في القسم الزائد منه.

٣- كل الأقسام الأربعة من الإسراف، تتساوى في المسؤولية، وتختلف في التعبير عن درجة النزق: فالإسراف في المباحات التي ليست تحت حيازة أحد، قد يكون أقل نزقاً من الإسراف في مال الغير. وهو أقل نزقاً من الإسراف في مال نفسه، وإن كان الإسراف في مال الغير يؤدي إلى الضمان.

٤- بما أن المسرف يحاول أن يملأ فراغاً يلح عليه ويعذبه، فالإسراف – في منطق المسرف – عمل مشروع لسد حاجة يشعر باستبدادها به. ولكن هذا... منطق يلزم أن يدرس قبل أن يصبح منطلقاً لعمل، لاحتوائه على مغالطة، نابعة من تصور صحية جميع الفراغات التي يشعر بها الإنسان. وهذا... خطأ، للأسباب التالية:

الأول: إن الإنسان – بمقتضى تركيبته الأرضية – يشعر بفراغات توسعية، لا يمكنه الاسترسال معها. فلا مطامع الإنسان تتوقف عند حدود هذه الحياة، ولا رغباته قابلة للاستجابة بإمكانات هذه الحياة. فلا بد من ترويض أكثر مطامحه ورغباته، حتى يتخلص من التخبط في المستحيل.

الثاني: إن الإنسان يعاني من فراغات مرضية، لا يصح الاعتراف بها، أو السماح لها بالتحرك: كحب الاستئثار، والاستعلاء... وغريزة الغضب، والجشع... وهذه الغرائز، كفيلة بإخراج الفرد من نطاق حقوقه إلى حقوق الآخرين، وهذا التجاوز، يجعل من يمارسه مجرماً هداماً، يلزم تحديد نشاطه بالعقاب. فلا بد – قبل التفكير في التجاوب مع الفراغات – من معرفة ما: إذا كانت صحية، يلزم التجاوب معها. أو مرضية، يلزم معالجتها.

الثالث: فإذا كانت الفراغات صحية، فلا بد – قبل التجاوب معها – من دراسة الجواب المناسب لها: فإذا شعر بالجوع فليس الصحيح أن يأكل إلا بعد معرفة الغذاء الصحي. وإذا شعر بالجنس، فلا يجوز أن يمارس إلا بعد تحديد المورد المشروع.

٥- إن المسرف، وإن شاء أن يبقى منفلتاً: لا يعترف بالحقوق الكونية والإنسانية، ولا يؤمن بالله والأديان والآخرة، ولا يبالي برد الفعل، ويجحد قدرة الآخرين على الاقتصاص منه؛ فهنالك حد لا يستطيع تجاوزه إلا بالجنون المطبق، وهو حد نفسه.

فرأسمال كل الرساميل للإنسان، هو نفسه، أي: جسمه، مقترناً بمواهبه وسنوات عمره. فإذا أسرف في شيء من أعضاء جسمه، أو في شيء من طاقاته، أو أسرف في بعض مواهبه، أو في بعض عمره؛ فهذا الإسراف ينعكس – سلبياً – عليه فوراً، بشكل يرفض الجحود واللامبالاة.

فأبشع أقسام الإسراف، هو الإسراف على النفس. ولذلك: ركَّز القرآن – في تحذيره من الإسراف – على هذا القسم، لأنه لا يقبل أي جدال.

وارتكاب المحرمات – من الإسراف على النفس. فما من حرام إلا ويؤدي إلى ضرر في جسم الإنسان أو مواهبه أو عمره، بالإضافة إلى: أن الحرام ينعكس على واقعه الإنساني، فيصاب بالمسخ الكامل، أو بالتشويه في جانب منه. وإن لم يظهر عليه المسخ والتشويه في الدنيا، لكرامة أمة النبي الأكرم (ص) على الله، فإنهما سيظهران عليه في الآخرة.

أما المسخ الكامل، فتدل عليه نصوص كثيرة تقول: بأن صفات الإنسان تنعكس عليه في الآخرة:

فإذا كانت صفاته حسنة تلائم إنسانيته، انعكست عليه مواثفات كريمة في الآخرة، فحشر عملاقاً ضخماً قوياً، جميلاً طيب الرائحة، له نور يسبقه أينما يتجه.

وإن كانت صفاته سيئة، انعكست عليه مواصفات قبيحة، فحشر قزماً هزيلاً، بشع المنظر، نتن الرائحة.

((يوم ينفخ في الصور، ونحشر المجرمين – يومئذ – زرقاً)) (١٠٣)، ((قال: رب! لِمَ حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا))؟! ((قال: كذلك، أتتك آياتنا فنسيتها، وكذلك، اليوم تنسى)) (١٠٤)...

وإذا كان متخلقاً بأخلاق حيوانات، حشر عليها: فحشر أحدهم كلبً، والآخر خنزيراً، والثالث ذئباً، والرابع قرداً (١٠٥) ...

إشباع الحاجة، لا إشباع الخيال

((ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم – زهرة الحياة الدنيا – لنفتنهم فيه. ورزق ربك، خير وأبقى)). [سورة طه: الآية ١٣١].

إن يدك لا تصل إلى كل جسمك، لئلا تتوقع أن تصل إلى كل الدنيا. وإن قدميك لا تحملان جسمك

طويلاً، لئلا تحاول أن تضعهما في كل مكان. وإن فكرك لا يستوعب كل ما يدور في جسمك، لتعرف أنه لا يستوعب كل شيء. وإن أذنيك يملآن أحسن الأنغام، لتعلم أنهما لا تستطيعان الإصغاء إلى كل الأصوات. وإن جسـمك – كله – لا يسـتقبل من: الطعام، والشراب، والكساء، والسكن، والجنس... إلا بقدر، لكي لا تنهم بأكثر من حاجته... فلماذا تمد عينيك إلى كل جميل؟!

إنك لن تنال كل شيء، ما دامت الدنيا لكل من فيها، وهم يغالبونك عليها. أقصى ما يمكن أن تنال، أكثر من حاجتك؛ ولكنك لن تتمتع بأكثر من حاجتك. فيكون حسـرة عليك: أن تحاول ما لا تنال، أو أن تنال ما لا تسـتفيد منه. والتحسـر على ما لا تنال أو لا تسـتطيع التمتع به، يفوت عليك السعادة بما نلت وتستطيع التمتع به. فروض نفسـك على التزود بالميسور، واترك المعسـور لحينه – إن حان – تسعد بما لديك، ولا تشقى بما ليس لديك.

((ولا تمـدن عينيك إلى)) كل مـا يتهافت عليه الناس وترغب فيه، من ((ما متعنا به أزواجاً منهم)). فإن كل ذلك: لم يخلق لك، ولا تسـتفيد منه إن أتيح لك. وإنما خلقنا كل ذلك ((زهرة الحياة الدنيا))، ليتمتع بها جميع الناس، فيتمسكوا بالحياة.

ولولا هذه المغريات، لتذمر الجميع من الحياة الدنيا فور تفتحهم على مشـاكلها ومآسـيها، ولفشـلت تجربة الحياة. فهي أشـبه بالطعم الذي تتصيد به الفريسـة، لا أكثر. فلماذا التناحر على طعم، تحيط بكل واحدة منها شبكة، تجر إلى مأساة؟!

إحدى شارات أهل البيت

((وأمر أهلك بالصلاة، واصطبر عليها . . .)). [سورة طه: الآية ١٣٢].

قال الإمام الرضا (ع):

(كان رسـول الله (ص) يجيء إلى باب علي وفاطمة – بعد نزول هذه الآية – تسـعة أشهر، كل يوم، عند حضور كل صلاة، خمس مرات؛ فيقول: (الصلاة، رحمكم الله). وما أكرم الله أحداً من ذراري الأنبياء (عليهم السلام) بمثل هذه الكرامة التي أكرمنا بها، وخصنا من دون جميع أهل بيتهم...) (١٠٦).

في هذه الآية دلالة، وفي هذا الحديث إيضاح لواقع قائم، وهو:

إن (التعليـــم) إلقاء فكـــرة، لجهة التعريف بهـــا، أو إقناع المتعلم بها – في أقصـــى التقديرات –. و (التربية) هي ممارسة فكرة، لجهة التعويد عليها.

و (التعليم) يتم بطرح الفكرة مرة أو مرتين، وخاصة: إذا كان المعلم من نوع الرسول الأكرم (ص) الذي يروى كلامه، ويردد حتى ينتشر – انتشار المؤمنين به – عبر الأقطار والأجيال.

بينما (التربية) لا تتم إلا بالاســـتمرار الممارســـي المركز، قولاً وعملاً ومحافظة، حتى يصبح الأمر طبيعة ثانية، لو تخلى عنها الطرف الآخر شعر بفراغ مقلق لا يطمئن إلا بالعودة إليه.

ولذلك، أمر الله رسوله الأكرم (ص): ((وأمر أهلك بالصلاة)). ولم يكتف بهذا الأمر، حتى أمره بالاصطبار على الصلاة: ((واصطبر عليها)). و (الصبر) هو التجلد وعدم الشـــكوى من ألم البلوى، و (الاصطبار) هو الصبـــر الشـــديد. وهذا... يعني أن مجرد الأمر بالصلاة لا يكفي، بل لا بـــد من المواظبة الأكيدة عليها. وهذه المواظبة الأكيدة، تحتاج إلى صبر شديد.

وهذه الاعتبارات التربوية، تفســـر الاهتمام الكبير الذي كان الرســـول الأكرم (ص) يوليه: أمير المؤمنين وسيدة نساء العالمين، والإمام الحسن، والإمام الحسين – على جميعهم أفضل الصلاة والسلام – في مراحل حياتهم، بشـــكل يتجاوز كل التوقعات من مثله، وخاصة: في أخريات أيامه، حيث كان رســـول دين ورئيس دولة.

(٢١)

سورة الأنبياء (عليهم السلام)

مكية

وهي مئة واثنتا عشرة آية

السائل والمسؤول

((لا يُسأل عما يفعل، وهم يُسألون)). [(سورة الأنبياء: الآية ٢٣).

يتصورون: أن الله — تعالى — قوي مقتدر، خلق الإنسان في الحياة، وفرض عليه أحكاماً معينة فرضاً، لمجرد ممارسة سلطانه كإله. ولما وجد أن الناس لا يخنعون تجاهه، خلق الجنة لمن أطاعه وخلق النار لمن عصاه، لمجرد أن أولئك استسلموا له، وهؤلاء تمردوا عليه.

فيصورون الله — سبحانه — وكأنه طاغوت مزاجي، يتمتع بقدرة مطلقة، فيتحكم كيفياً، كما لو كان واحداً من البشر، له عواطف البشر ونوازع البشر وقصور البشر، فيحاول أن يسد نقصه بطغيانه.

ويشجعهم على هذا التصور، جهلهم بمجموعة من الآيات والروايات:

مثل هذه الآيات: ((لا يُسأل عما يفعل، وهم يُسألون)).

((قل: كلٌّ من عند الله)) (١٠٧).

((فليعلمنَّ الله الذين صدقوا، وليعلمنَّ الكاذبين)) (١٠٨).

((ومن يضلل الله، فما له من هاد. ومن يهد الله، فما له من مضل)) (١٠٩).

((قل: من كان في الضلالة، فليمدد له الرحمن مداً)) (١١٠).

((إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً، ولهم عذاب مهين)) (١١١).

((وإذا أردنا أن نهلك قرية، أمرنا مترفيها ففسقوا فيها، فحق عليها القول، فدمرناها تدميرا)) (١١٢).

((ولولا أن يكون الناس أمة واحدة، لجعلنا لمن يكفر بالرحمن — لبيوتهم — سقفاً من فضة، ومعارج عليها يظهرون)) (١١٣).

((ولو شـئنا لآتينا كل نفس هداها، ولكن حق القول مني لأمـلأن جهنم من الجنة والناس أجمعين)) (١١٤).

((ولو شاء ربك، لجعل الناس أمة واحدة)) (١١٥).

((ويوم نقول لجهنم: هل امتلأت؟ وتقول: هل من مزيد)) (١١٦).

((وعلم آدم الأسـماء كلها، ثم عرضهم على الملائكة فقال: أنبئوني بأسـماء هؤلاء إن كنتم صادقين)) (١١٧).

((فـلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم، إنما يريد الله: ليعذبهم بها في الحياة الدنيا، وتزهق أنفسـهم وهم كافرون)) (١١٨).

((ويرسل الصواعق، فيصيب بها من يشاء)) (١١٩).

ومثل هذه الروايات:

لولا أنني أستحيي من عبدي المؤمن، لم أترك عليه قطعة يستر بها عورته (١٢٠).

لو كان المؤمن على قطعة خشبة في بحر لجي، لبعث الله إليه شيطاناً يؤذيه (١٢١).

إن الله – تعالى – قبض قبضة من الأرض بيمينه وقال: (هذه... للجنة ولا أبالي)، وقبض قبضة من الأرض بشماله وقال: (هذه... للنار ولا أبالي) (١٢٢).

من بخل بمالي على عيالي، أدخلته ناري ولا أبالي (١٢٣).

وعلى أساس هذا التصور، يؤسسون مجموعة من الأسئلة الاستنكارية، تمهيداً لاعتبار أصل: الألوهة فكرة خرافية، يلفها ضباب كثيف من: التناقضات، والتوترات، وكراهية الله للعباد، والجهل... والعياذ بالله.

كل ذلك: لضرب أصل فكرة الألوهة، وتعبيد الطريق أمام فكرة الإلحاد.

ونجيب على ذلك بما يلي:

١- هل في نظام الكون شيء من التناقض والتوتر، أو هو نظام فيه من الحكمة والعلم أكثر مما يستطيع استيعابه العقل البشري؟. وهل في نظام جسم الإنسان شيء من التناقض والتوتر، أم هو نظام فيه من الحكمة والعلم أكثر مما يستطيع استيعابه العقل البشري؟.

وإذا كان نظام الكون حكيماً عليماً، وإذا كان نظام جسم الإنسان حكيماً عليماً؛ فالذي نظم الكون وجسم الإنسان هو الذي أنزل الدين. وكما أننا لو لم نفهم شيئاً من نظام الكون أو جسم الإنسان نتهم أنفسنا بالقصور قبل أن نتهم النظام بالقصور، علينا أن نعمل الشيء ذاته لو لم نفهم شيئاً من الدين، لا أن نتسرع في الارتجال والانفعال فمنهم الدين ومصدر الدين، حتى كأننا نحاول أن نعتبر مصدر الدين غير مصدر الكون ونظامه.

٢- إن هؤلاء يعاملون البشر من أمثالهم بأفضل مما يعاملون الله، فإذا وثقوا من خبير من الخبراء – طبيباً كان، أو مهندساً، أو فقيهاً، أو حاكماً، أو حتى محاسباً... – ثم وجدوا منه ما يوحي بالتناقض والتوتر؛ لا يعجلون النكير عليه إلا بعد أن يفكروا أكثر من مرة، ويحاسبوا أنفسهم أكثر من مرة (ونِعْمَ ما يعملون: لأن الخبير في اختصاصه أكثر دراية من غيره، وربما أقوى موهبة من غيره. ونسبة الخطأ والقصور عنده في اختصاصه، أقل من نسبتهما عند غيره في غير اختصاصهم) رغم أن أولئك بشر معرضون للخطأ والقصور؛ بينما يعجلون النكير على الله، حتى كأن الله معرض للخطأ والقصور أكثر من الخبراء العاديين.

٣- يجد البشر الحرية في اتباع الدين أو عدم اتباعه، كما يجد الحرية في اتباع نظام الكون أو عدم اتباعه، فهو حر في الانقياد لأحكام: الصدق، والأمانة، والتوحيد، والعبادة... كما هو حر في الانقياد لأحكام: الجاذبية، والطاقة، والقدرة، والنظافة... غير أن الكون يعجل الانتقام ممن يتمرد عليه، والدين لا يعجل الانتقام ممن يتمرد عليه:

فالذي لا يعترف بالجاذبية، ويحاول الانتقال من شاهق إلى شاهق بلا وسيلة مقاومة للجاذبية، فيجتاز هذا الشاهق إلى ذاك؛ يسقط ويتحطم. والذي لا يعترف بالكهرباء، فيعبث بأسلاكها العارية، ستمتصه الكهرباء، وتقذفه هيكلاً من رماد. والذي لا يعترف بالقدرة، فيحاول أن يحمل طناً من حديد؛ سوف يصاب بالفتق وانخلاع المفاصل. والذي لا يعترف بالميكروب، سرعان ما يضر به المرض.

بينما الذي لا يعترف بالصدق فيكذب على المتعاملين معه، ولا يعترف بالأمانة فيخون الحقوق والحرمات، ولا يعترف بالتوحيد فيعبد آلهة من الأرض، ولا يعترف بالعبادة فيسترسل في عفويته المادية؛

لا يعاقبه الدين بتلك السرعة التي يعاقب بها الكون المتمردين على نظامه، وإن كانت سلبيات هذه التمردات تنعكس عليه.

فرغم الحرية التي يجدها البشر تجاه التكوين والتشريع معاً، خاضعاً للتكوين أكثر من خضوعه للتشريع لهذا الفارق.

وبما أن التكوين يعجل الانتقام، يفهم كل إنسان فلسفة أحكامه بسرعة، ويقتنع بها، فلا يحاول الخروج عليها إلا في فترات فقدان الأعصاب. ويحمل الآخرون سلبيات مخالفة التكوين على المخالف لا على الله، فيقولون: (كان يعرف نتيجة المخالفة، فلماذا خالف؟!) فيما التشريع – حيث لا يعجل الانتقام – لا يفهم الناس فلسفة أحكامه بسرعة، فلا يقتنعون بها، ويحاولون الخروج عليها كلما وجدوها تزاحم رغبة من رغباتهم، ويحاولون أن يحملوا سلبيات مخالفة التشريع على الله، وإيجاد التبارير للمخالف.

لأن البشر معتاد على الاعتراف – وحتى الإيمان – بالقوة المهيمنة ولو بغير حق، وغير معتاد على الاعتراف – مجرد الاعتراف – بالحق إذا لم يكن مهيمناً. ويسعى – عن طريق المناقشة، وإظهار عدم القناعة – إلى إبطال الدين، لإراحة ضميره، وإبعاد اللوم عن نفسه، ظناً منه بأن هذه المحاولات تغير الواقع، بينما الواقع قائم مفروض، يجري أحكامه على المطيع والعاصي، والجاهل والعالم.

فالتشريع – كالتكوين – لا يغيره الجهل أو التجاهل، والقناعة أو عدم القناعة. فالجاهل إذا لم يتعلم، وغير المقتنع إذا لم يسع إلى الاقتناع؛ إنما يعرض نفسه، وستنعكس عليه سلبياته.

لذلك، ورد في الحديث: (يقال يوم القيامة للعاصي: لماذا لم تعمل؟! فإذا قال: لم أعلم، قيل له: هلا تعلمت؟!) (١٢٤).

تماماً... كما لا يعذر الجهل أو التجاهل للتكوين، فإذا تناول أحد السم وقال: (لم أعلم)؛ لم ينقذه قوله هذا من التأثر بالسم.

وما دام التشريع إرشاداً إلى الجزء غير المنظور من الواقع القائم، فالمتسائل بصدق يعطى الجواب حتى القناعة. وأما المتسائل بعناد، فيقال له: (هذا... الواقع، وإذا لم يعجبك فافعل ما تريد).

وتلك التعابير القرآنية والروائية التي أثبتناها مع السؤال، كلها تعابير تعجيزية، لتكبيت المتعنتين. ونجد في القرآن تعابير أقسى منها:

((من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة، فليمدد بسبب إلى السماء، ثم ليقطع، فلينظر: هل يذهبن كيده ما يغيظ؟!)) (١٢٥).

((يا معشر الجن والإنس! إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض، فانفذوا. لا تنفذون إلا بسلطان ۞ فبأي آلاء ربكما تكذبان؟! ۞ يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس، فلا تنتصران)) (١٢٦).

٤- بالإضافة إلى: أن كل تلك الآيات والروايات – ونظرائها – صحيحة، ونترك بيان كل واحدة منها لموردها من القرآن، ونكتفي ببيان الآية التي نسير في ظلها:

((لا يُسأل عما يفعل، وهم يُسألون)).

فالسؤال الجاد – وهو سؤال غير الجاهل – نوع من المحاسبة، والمحاسبة لا تكون إلا نتيجة تعاقد.

فمثلاً:

إذا تضارب رجلان، فكان لأحدهما مال وضعه تحت تصرف الآخر لاستثماره بشكل معين؛ فإن لصاحب المال أن يحاسب الآخر، لمعرفة ما إذا كان ملتزماً بصيغة العقد أم لا؟! وأما صاحب رأس المال، فليس مسؤولاً من قبل المضارب، لأنه صاحب رأس المال.

والحاكم يُسأل عما يفعل من قبل الشعب، لأن الشعب صاحب المصلحة الحقيقية، وينتخب فرداً معيناً وفق دستور معين – وهذا هو التعاقد بينهما –، ثم يضع تحت تصرف ذلك الفرد كل قدراته، فيكون من حقه أن يحاسب ذلك الفرد، لمعرفة ما إذا كان ملتزماً بصيغة العقد أم لا؟ فالحاكم مسؤول بهذا الاعتبار. أما الشعب ذاته، فليس مسؤولاً كاملاً من قبل حاكمه، لأن الشعب هو صاحب المصلحة الحقيقية والحاكم هو المضارب.

من كل ذلك نعرف: – طبقاً لتعابيرنا الاقتصادية والسياسية – أن المالك لا يكون مسؤولاً، وإنما المتصرف وفق عقد معين هو المسؤول.

وبما أن الله – تعالى – هو مالك كل شيء، وقد وضع بعض الأشياء تحت تصرف الناس وفق عهد معين:

((وإذ أخذ ربك من بني آدم – من ظهورهم – ذريتهم، وأشـهدهم على أنفسـهم: أ لسـت بربكم؟! قالوا: بلى... شـهدنا)) (١٢٧)، وفي نهج البلاغة – عند بيان فلسفة بعثة الأنبياء إلى الناس –: (... ويذكروهم منسـيَّ نعمته) (١٢٨)؛ فمن حقه – وحده – أن يسـأل الناس جميعاً عن مـدى التزامهم بذلك العقد وعدم التزامهم، وليس من حقهم أن يسـألوه عن شـيء، لأنهم لم يملكوا شـيئاً ليضعوه تحت تصرفه وفق عقد معين. فهو يسـألهم عن عقده معهم قبل أن يضع تحت تصرفهم هذه الدنيا، أما هم: فعن أي شيء يمكنهم أن يسألوه؟!

((لا يسـأل عما يفعل))، لأنه يفعل كل ما يفعل بممتلكاته. ((وهم يسـألون)) عما يفعلونه بممتلكات غيرهم، التي وضعت تحت تصرفهم بعقد معين، لم يلتزم به أكثرهم.

لمحة حول الشفاعة

((ولا يشفعون إلا لمن ارتضى، وهم – من خشيته – مشفقون)). [(سورة الأنبياء: الآية ٢٨).

ومن يرضى الله شـفاعته، هو الذي يكون قصوره بمقدار الفائض من قدرة الشـفيع أو أقل. وأما الذي لا يملك أصحاب الشفاعة سد نقصه، لكون نقصه أكثر من فائض قدرتهم، أو لعدم توفر السنخية بينه وبينهم؛ فلا يشفعون له.

والآية – هنا – تعلن ملاحظة هامة، وهي: أن الموقف في يوم القيامة رهيب، ومشحون بشتى المفاجآت والاحتمالات، حتى أن الشـفعاء – رغم كل تأكدهم من نجاحهم هم – يحتفظون في المغامرة بكل الفائض من قدراتهم لنجاح الآخرين، فهم يدخرون بعض احتياطهم للتوقعات غير المحسـوبة. لأنه يوم مضطرب، لـم يمروا بمثله من قبل حتى يكون لديهم مقياس دقيق له، فهو صفحة مطوية حتى بالنسـبة للأنبياء، رغم كل اطلاعاتهم عنه، فلذلك ينادون جميعاً (وا أنفساه!)، ما عدا النبي الأعظم (ص) الذي ينادي: (وا أمتاه!) (١٢٩). فهو الوحيد الذي لا يتوجس بالنسبة إلى نفسه، وأما الآخرون: فهم جميعاً يتوقعون أن تجابههم – في أية لحظة – مفاجأة جديدة لم يتأهبوا لها. فيدخرون الكثير من احتياطهم لأنفسـهم، ولا يرمون بثقلهم كله لنجاة الآخرين.

موازين الآخرة

((ونضع الموازين القسط ليوم القيامة، فلا تظلم نفس شيئاً. وإن كان مثقال حبة من خردل، أتينا بها. وكفى

بنا حاسبين)) . [(سورة الأنبياء : الآية ٤٧) .

١- الإنســان، بتركيبته الخاصة مــن تراب الأرض ومن وهج الســماء، يبقى تجربة مفتوحة لاشــتراك الفعاليات المتناقضة. فلا هو ممحض لتراب الأرض، ولا هو مخلص لوهج الســماء؛ حتى يســتطيع السير المستقيم – بروية واحدة، على خط واحد – في اتجاه الباطل أو الحق. فيبقى متعرجاً دائم التردد: فلا يختار خط الباطل إلا وتعرجه ومضاته المتوهجة، ولا يختار طريق الحق إلا وتلكئه صبواته المتبلدة.

٢- الإنســان – بمدده الخارجي من: الملائكة والشــياطين، ودعاة الخير والشــر – يبقى ساحة مفتوحة لصراحة القوى الخارجية الكبرى وهي تجد – في الداخل – قواعدها الطبيعية، ونداءات الاســتغاثة؛ فتخف لنجدتهــا. وترفد كل قوة خارجية، ما يســانخها مــن الفعاليات المتناقضة في الداخــل، فيتم تدخل القوى الخارجية بطلب القوى الداخلية.

٣- الفعاليات الداخلية والقوى الخارجية، كثيرة مختلفة:

فالفعاليــات الموجبة هي (الفضائل) والفعاليات الســالبة هي (الرذائــل). أو ما عبَّر عنهما الأئمة (عليهم الســلام) بـ (جنود العقل وجنود الجهل) (١٣٠)، أو ما عبر عنهما الفلاســفة بتعبيرات متعددة لا تختلف في الدلالة عليها.

وأمــا القوى الخارجية: فالموجبة منها قوى: الأنبيــاء، والملائكة، والأوصياء، والموجهين، وأدواتهم من وسائل التوجيه والمشــجعات على الخير. والســالبة منها قوى: الجبابرة، والشياطين، وأدواتهم من وسائل الإغراء والمرغبات في الشر.

٤- هــذه المعركة، لا تعرف الهدنة ولا الصلح ولا المفاوضات، وهي مســتمرة في كل فرد – أنَّى كان، وحيثمــا كان – ولا تهدأ في أي حال من الأحوال، كلُّ ما هنالك أن محاورها تختلف: فعندما يعمل العقل، يكون محورها العقل، وحيثما يعطل العقل بالنوم – أو بالتركيز على شيء معين – ينتقل محورها إلى العقل الباطن.

٥- وهذه المعركة لا تختص بالإنسان وحده، وإنما هي شاملة: تسع الإنس والجن، بلا خلاف.

وتســع الملائكــة أحياناً، بدليل أن بعــض الملائكة تعرضوا للخطأ الأولــوي والعقاب؛ كـ (فطرس)

(١٣١).

وتسع الشياطين، بدليل أن (إبليس) كان يعبد فترة زمنية طويلة، حتى رقي إلى درجة (معلم الملائكة)، وحمل لقب (طاووس الملائكة).

وتسع الحيوان، لقوله تعالى:

((أ لم تر؟! أن الله يسبح له: من في السماوات والأرض، والطير صافات...)) (١٣٢).

((أ لم تر؟! أن الله يسجد له: من في السماوات، ومن في الأرض، والشمس، والقمر، والنجوم، والجبال، والشجر، والدواب...)) (١٣٣).

وللأخبار التي تؤكد أن الحيوانات تحشر يوم القيامة، حتى تثأر الجماء من القرناء (١٣٤). وللأخبار الدالة على أنه ما تعرض حيوان لصياد أو حيوان كاسر، إلا لغفلته عن ذكر الله (١٣٥).

وتسع النبات، لقوله تعالى:

((أ لم تر؟! أن الله يسجد له: من في السماوات، ومن في الأرض، والشمس، والقمر، والنجوم، والجبال، والشجر...)) (١٣٦).

وتسع الجماد، لقوله تعالى: ((ويسبح الرعد بحمده...)) (١٣٧).

((... وإن من شيء إلا يسبح بحمده...)) (١٣٨).

((إنا عرضنا الأمانة على: السماوات، والأرض، والجبال...)) (١٣٩).

والأخبار الدالة على تكليف المخلوقات كافة، كثيرة تحتوي على تفاصيل موكولة إلى مظانها.

٦- وهذه المعركة قد تعدو غير المعصومين إلى بعض أصحاب المرتبة النازلة من العصمة كبعض الأنبياء غير الرسل، فتشملهم أيضاً، لأن فعالية التراب لا تغفل من له جسم. والمعصومون من البشر، فنادراً في غير الرسل قد يصادف تحملهم لتبعات أجسامهم، وإن كانت أرواحهم القوية تهيمن على أجسامهم

وتكبح أنانيتها، ولكنها لا تفتر عن التذبذب والتلمُّض، وإن كانت فاعليتها تبقى في نطاق محدود.

ويمكن القول:

إن الجسـم والروح في صراع، ما دامت الروح متعلقة بالجسـد. ولكن إرادة الروح تختلف قوة وضعفاً، كما أن رغبة الجسـد تختلف شـدة ووهنا – من فرد إلى فرد –: فبمقدار ما تقـوى إرادة الروح توهن رغبة الجسد، وبمقدار ما تشتد رغبة الجسد تضعف إرادة الروح.

ونتيجة لاختلاف المستويات، يمكن تصنيف الناس إلى ثلاثة أصناف:

الأول:

أصحـاب الأرواح القويـة، التي بلغت القمة قبل أن تأتـي إلى هذه الحياة. وهـؤلاء... يكبحون رغبات أجسـامهم، ولكن يتجاوبون مع ضرورات أجسـامهم، فيلبون حاجاتها إلى: الغذاء، والكسـاء، والسكن، والجنس، والنوم... ثم يعترفون بمدى قدرة الجسد، فلا يحملونه أكثر من طاقته على الاحتمال، فيضطرون إلى (ترك الأولى) وإلى (فعل غير الأولى). ورغم أنها ضرورات لا يصح إهمالها، إلا أنها لا تناسب مستوى الروح الرفيعة. فيتجاوبون معها، خجلين من القصور الذي يعانون من أجسامهم التي لا يستطيعون التخلص منها إلا بانقضاء آجالهم المحددة. وكما يعانون من أجسـامهم، هكـذا... يعانون من مجتمعاتهم وأجوائهم العائلية، التي لم يؤمروا بتجاوزها ولكن لا تليق بهم.

فمثلهـم مثل: من يضطر إلى الظهور أمام الأضواء بغير ملابسـه الرسـمية، أو يسـتولي عليه النوم في احتفال، أو يقدم عليه ضيوف لا يتمكن من اسـتضافتهم... فهو يخجل ويعتذر، رغم أنه لم يرتكب خطيئة، وإنما اضطر إلى ما هو غير مستحب أو غير مستحسن.

فهؤلاء... لا يتجاوبون مع رغبات الجسـد حتى درجة الكفر، ولا حتـى درجة العصيان، وإنما إلى درجة (ترك الأولى) وفعل (غير الأولى). وهو – بالنسبة إليهم – شيء كثير، يعتبر – بالنسبة إليهم – بمثابة الذنب الذي يستوجب الاستغفار.

وإذا أردنا الاستعانة بالمقارنات، نستطيع القول:

لا شـك أن إيمان الأنبياء والأوصياء بالله، أشد من إيمان الملائكة بالله. والملائكة بين: قيام لا يركعون،

وركوع لا يقومون، وسجود لا ينتصبون.

فالذي يليق بمستوى الأنبياء والأوصياء، أن يكونوا في حالة تكرس كامل أمام الله طول فترة حياتهم. فأي التفات إلى غير الله، لا يليق بهم مهما كان السبب. فأي توجه إلى غير الله: إن كان لضرورة عدَّ قصوراً، وإن كان لغير ضرورة عُدَّ تقصيراً يستغفرون منه.

وهذا... يعني أن فاعلية الجسد تتقلص إلى أدنى الدرجات، ولكنها لا تتعطل نهائياً. ولو تعطلت نهائياً، لم يكونوا معرضين للتجربة.

الثاني:

أصحاب الأرواح الضعيفة، التي انتقلت إلى هذه الحياة بدون رصيد، أو برصيد أقل فاعلية من فاعلية الجسد. وهؤلاء... يندفعون مع رغبات الجسد التي تغالب نداءات الروح، فتقهرها. وانتصار رغبات الجسد – بأية نسبة كان – يعني السقوط في دائرة الحيوان. ولكن إذا ارتفعت النسبة، بلغت حد الكفر أو الكفر ذاته.

ورغم سقوط الفرد في دائرة الحيوان، والانحدار إلى الكفر؛ تبقى فاعلية الروح مكملة للنسبة. فلو كان اندفاع الفرد مع رغبات الجسد بنسبة ٨٠٪، تكون فاعلية الروح بنسبة ٢٠٪. وهكذا... تنخفض نسبة فاعلية الروح بارتفاع نسبة فاعلية الجسد، حتى قد تبلغ ١٪أو ٢٪. ولكنها لا تتعطل، ولو تعطلت نهائياً بطلت التجربة.

الثالث:

أصحاب الأرواح المتوسطة، التي وصلت إلى هذه الحياة برصيد متوازن مع الجسد فاعلية. وهؤلاء... لا يكبحون رغبات الجسد كالصنف الأول، ولا يقهرون نداءات الروح كالصنف الثاني، وإنما يتأرجحون بين الجسد والروح: فمرة يتغلب الجسد، وأخرى تنتصر الروح؛ فيعملون السيئات والحسنات، استجابة للمغريات ودواعي الإيمان.

ولكل واحد من الأصناف الثلاثة، درجات مختلفة كثيرة، حسب اختلاف حصيلة الأعمال اليومية التي يمارس الأفراد.

وهــذه الأعمال اليومية، وتلــك الأرصدة التي يأتي بها الأفراد من العوامل الســابقة؛ تقيم يوم القيامة. وبمقتضاها، يصنف الناس في درجات الجنة أو دركات النار.

والموازين، هي المعادلات التي تختلف من وقت لآخر... ومن شيء لآخر...

وفي عهدنا يوجد: ميزان للأشــياء الخفيفــة يعتمد على كفتين، وميزان للأشــياء الثقيلة يعرف بالقبان، وميزان للفكر يسمى بعلم المنطق، وميزان للتحقق من عملية حسابية هو نوع من الحساب، وميزان لمعرفة استقامة الجدار يعتمد تحرك الزئبق أو الهواء لتشخيص جهة الميل... وهكذا لكل شيء ميزان يتناسب معه.

وللأعمال ميزان، أو لكل نوع من العمل ميزان – أو موازين – في الدنيا، حســب ما هو متاح للناس في الدنيا لتقييم الأعمال.

وفي الآخرة موازين، حسب ما هو متاح هناك. فلكل نوع من العمل ميزان، أو موازين.

وإذا أمكن الخطأ والعطل في موازين؛ فموازين الآخرة موازين القسط، التي لا خطأ فيها ولا عطل.

التبليغ عبر المفرقعات الاجتماعية

ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين * إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون * قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين * قال : لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين * قالوا : أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين * قال : بل ربكم رب السماوات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين * وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين * فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون * قالوا : من فعل هذا بآلهتنا ؟ ! إنه لمن الظالمين * قالوا : سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم * قالوا : فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون * قالوا : أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم * قال : بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون * فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا : إنكم أنتم الظالمون * ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون * قال : أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم * أف لكم ولما تعبدون من دون الله ، أفلا تعقلون؟ !)) . [(سورة الأنبياء : الآيات ٥١ – ٦٧) .

س: لمــاذا فعــل (إبراهيم) هذا بآلهتهم؛ رغم أن هذا النوع من العمل اســتفزازي لا ينســجم مع طبيعة الرسالات؟

ج: إن الله – حيث يبعث رسـله إلى النـاس، لإيقاظ فطرة الإيمان، ونجدة العقـل؛ في الاعتراف بالله – يلزم كل رسـول أن يتبع الأساليب الكفيلة بتنشـيط ذبذبة الإيمان في القطاع البشري المرسل إليه. فيتبع الرسول – والعالميون منهم بصورة خاصة – خطتين متوازيتين؛ ضمن استراتيجيتهم العامة:

١- الاتصالات المباشـرة بالجماهير، أفراداً وجماعات. وهذه الخطـة تعتمد: المقابلات الفردية، وإلقاء الخطب في المجامع العامة. وهي تؤدي إلى نتائج عميقة محدودة: فالذين يلتقيهم الرسول مباشرة، يتأثرون به تأثراً عميقاً، فيؤمنون برسـالته إيماناً متكاملاً، يمكنهم من تحمل رسـالته، والامتداد بها في كل اتجاه، فيشكلون الدور الوسط بين القمة التي هي الرسول وبين القاعدة التي هي البشر أجمعين، فيكونون رسله إلى الناس.

ورغم أن هذه الخطة تفرغ الجزء الأهم من رسـالة الرسول، لأنها تعطي الرسالة – تفصيلاً – إلى النخبة المنتقـاة، إلا أنهـا محدودة النطاق. لأن الرسـول – كشـخص واحد – مهما حاول توسـيع نطاق اتصالاته المباشرة، لا يستطيع الاتصال بكل من أرسل إليهم.

٢- الاتصالات الموجية بالجماهير. وهذه الخطة تعتمد الأعمال المفرقعة، التي تحدث اهتزازات قوية، تشد جميع المشاعر النابضة إلى مصدر الانفجار، لاستقبال دوافعه وخلفياته ومن ثم معطياته؛ بمجرد حب الاطلاع فيتم تبليغ الرسالة.

وهذه الخطة تؤدي إلى نتائج سـطحية واسعة النطاق، فتوصل مجمل الرسالة إلى كل الذين أرسل إليهم الرسـول؛ ولا يستطيع الاتصال بهم مباشـرة ولا من خلال أصحابه. ولذلك: كان رسل الله يقدمون تضحيات سخية – من أنفسهم، أو من الطاقات البشرية المتحركة بإرادتهم – من أجل الأعمال المفرقعة، التي يحسنون اختيارها وفق قواعد منطلقاتهم من جهة، وتلبية للمعادلات المتوازنة في عهودهم من جهة أخرى:

- فـ (نوح) صفي الله، اختار تجديد الحضارة العالمية، وحصر الحياة البشـرية والحيوانية والنباتية في سـلالات معينة، اختارها حسـب تقييمه الإلهي. ثم: ترك الحياة لـ (الطوفان)، الذي دمَّر الحياة ولم ينج منه سوى ما حمله نوح معه في سفينته، ليكون بذور حياة جديدة على الأرض.

وعملية الطوفان، كانت مفرقعة بقي دويها صاخباً حتى اليوم، في ذات الوقت الذي كانت فيه عملية هدم وبناء، شاملة لكل أنواع الحياة على الأرض.

- و (إبراهيـم) الخليل، اختار أعمـالاً عديدة، من جملتها: تحطيم أصنـام (بابل) في عهد الطاغية

(نمرود)، حيث كانت حكومة بابل تمثل القوة العالمية العظمى، وتحطيم أصنامها أجرأ عمل فدائي، لم يسبق له نظير من قبل، ولا تجرأ على مثله أحد حتى اليوم. فرنَّ دويه في مسامع الدنيا يوم ذاك، وبقيت أصداؤه تتجاوب في جميع القلوب الواعية حتى اليوم؛ معلنة نبذ الآلهة المصطنعة. فكانت عملية هدم لعقلية قديمة.

وتبعت هذه العملية، عملية بناء لعقلية صحية جديدة، هي: بناء الرمز التجريدي لله الواحد الأحد؛ فبنى (الكعبة)، ودعا إلى عبادة ربها، لا إلى عبادتها. وتأسيس (مكة)؛ بنقل عائلته المؤلفة من أمته (هاجر) وابنه (إسماعيل) إلى جوار البيت المحرَّم، لتكون هذه العائلة الفتية – بعنصريها الشابين – نواة لمدينة مركزية، مؤهلة للاستقطاب. فتأله إليها القلوب، ويسعى إليها الناس – رجالاً، وعلى متون جميع وسائل المواصلات في البر والبحر والجو – وتجبى إليها ثمرات كل شيء. لتكون جاذبية هذه المدينة، كافية لاجتذاب العقول النيرة من شتى أقاصي الدنيا، مقدمة لشحنها بطاقة التوحيد، ثم إطلاقها لتأخذ محاورها في شتى أقاصي الدنيا، فتمد العقول المترسبة في مساقطها بأسلاك النور.

- و (موسى بن عمران)، اختار مجموعة أعمال، لعل أهمها: أنه وضع إصبعه على رأس الطواغيت في الدنيا، فأغرقه – وجيشه الجبار – في البحر الأحمر. ذلك الطاغوت الذي بقي اسمه مثلاً أعلى للطواغيت، والذي بلغ الكبرياء به وبجميع الرؤوس من سلالته وأسرته، أنهم لم يتشبعوا باستعباد الناس حتى ضموا العبادة إلى العبودية، فادعوا أنهم آلهة، ليس من دون الأصنام فقط، وإنما من الله أيضاً. ولم يكتفوا بحياة الآلهة في عهودهم، حتى حاولوا تمديد حياة الآلهة لهم إلى الأبد، فسخروا الفكر البشري لتحنيط أجسادهم، وسخروا العضلة البشرية لتضخيم قبورهم، أهراماً صلدة، تبقى على ظهر الأرض إلى الأبد، أثبت من قمم (هملايا).

- و (عيسى بن مريم) اختار أعمالاً، أهمها: الإخبار – بدون وسائط – عما وراء الحواجز والمسافات، وعن الأحداث التي لا زالت تتكون في ضمير المستقبل. ومنحه الشفاء – بدون أدوية – للمصابين بالأمراض المستعصية، وإعادته الحياة إلى الرميم، الذي ابيضت عظامه في ظلام القبر.

- و (الرسول الأكرم)، اختار أعمالاً، أهمها: (القرآن) كمعجزة خالدة، ومتعددة الوجوه. وانتصاراته الساحقة في الحروب. ودعوته ملوك العالم – المعروفين في ذلك العهد – إلى الإسلام، برسائل مفتتحة بقوله القوي المطمئن بالله: (أسلم، تسلم). وتحطيمه أصنام (مكة) من منطلق القوة...

وهكذا... اختار كل من أصحاب الرسالات العالمية، أعمالاً مفرقعة قوية الانفجار، لتفجير الركود المخيم على الرأي العام العالمي، واختار كل من أصحاب الرسالات الموضعية، عملاً مدوياً، تغطي اهتزازاته

المنطقة التي أرسل إليها، وربما تتجاوز حدودها إلى سائر مناطق الدنيا، أو إلى بقية الأجيال:

- فالنبي (صالح)، أخرج من جبل، ناقة عظيمة فريدة في التاريخ، تسقي – بحليبها – جميع قوم (ثمود) مرة كل يومين.

- والنبي (هود)، أهاج الرياح على قوم (عاد)، حتى أهلكتهم ودمرت بناياتهم الشامخة.

الأمة الواحدة

((إن هذه أمتكم أمة واحدة، وأنا ربكم، فاعبدون)). [سورة الأنبياء: الآية ٩٢].

الفلسفة الإسلامية – التي تعبر عن الواقع – ترفع قواعدها على ركيزتين:

الأولى: وحدة مصدر الكون. فالله – وحده - رب الكون، كل الكون. لا تعدد في الإله، ولا تخصص في الألوهية.

الثانية: وحدة نظام الكون. فالكون كله – من الذرة حتى السديم – خاضع لنظام واحد، وهو نظام (الثابت والمتحرك)، ودوران المتحرك حول الثابت؛ أو نظام (السالب والموجب)، كما يقول القرآن الكريم:

((... كل في فلك يسبحون)) (١٤٠).

من هاتين الركيزتين، تنطلق الفلسفة الإسلامية في اتجاه الإنسان – في القسم الاختياري من تصرفاته – لتنسيقه مع بقية الكون في ذلك النظام الواحد.

وركزنا على (القسم الاختياري من تصرفات الإنسان)، لأنه – في القسم الآخر – خاضع لذلك النظام: فابتداء من الخلية الواحدة إلى الأجهزة المعقدة في الدماغ، متناسق لا ينحرف. وإذا فرض انحراف على أي جزء من أجزائه؛ يرفضه الكون، فيطرده إلى المشافي أو المقابر.

وكما هو خاضع للنظام الكوني العام في القسم غير الاختياري من تصرفاته الذي ينعكس على جسمه، هكذا – وبذات الدقة – يلزم أن يخضع للنظام الكوني العام في القسم الاختياري من تصرفاته الذي ينعكس على روحه، حتى يكون فرداً سليماً في مجتمعه.

وكمـا لا ينحرف عن النظام – في الجزء التكويني منـه – إلا ويكون مريضاً إن كان انحرافه في عضو فرعي، ويكون ميتاً إن كان انحرافه في عضو رئيس؛ كذلك: لا ينحرف عن النظام – في الجزء التكليفي منه – إلا ويكون فاسقاً إن كان انحرافه في حكم فرعي، ويكون كافراً إن كان انحرافه في حكم رئيس.

فالخارجون عن النظام في حكم رئيس، كفار؛ شأنهم شأن الأموات، في أنهم يشكلون العناصر المرشحة للتفسخ، التي يلزم مواراتها عن الأحياء.

وأما الملتزمون بالأحكام الرئيسـية، فهم مؤمنون؛ يشـكلون المجتمع الذي يعبـر عن الحياة: فإذا كانوا ملتزميـن بكل الأحكام الرئيسـية والفرعية، فهم الأصحـاب الذين يمثلون قوام المجتمـع. وإن لم يكونوا ملتزمين بكل الأحكام الرئيسـية والفرعية، وإنما التزموا بالرئيسـية وأهملـوا الفرعية؛ فهم المرضى الذين يمثلون عثرات المجتمع.

فإلى هذا المجتمع – بما فيه السـليم والسـقيم – تتوجه الفلسفة الإسـلامية؛ بأنكم جزء من هذا الكون الموحد، ولا يمكنكم الانسجام معه إلا إذا توحدتم في أمة واحدة: ((إن هذه أمتكم أمة واحدة)).

خاصـة: وأنكم صدرتم من مصدر واحد، وسـتعودون إلى ذلك المصـدر الواحد، وقد صحَّ إيمانكم به. فأنتـم موحدون في أصل الأصول، وهو الإيمان بالله الواحد الأحد، فتملكون أهم عناصر التوحد، فلا مبرر لتفرقكم بعد اتفاقكم على الإيمان به؛

((وأنا ربكم فاعبدون)).

❁ ❁ ❁

وإذا تجاوزنـا هـذه الحقيقة الإيمانيـة، تواجهنا حقيقتان علميتان، نشـهدهما في كثيـر من التغيرات الكونية:

الأولى:

أن كل شيء يبتعد عن مجمعه، يساوره حنين العودة، حتى يعيده إلى مجمعه: فالماء، إن هربته الحرارة وارتفعت به؛ فسـرعان ما يهوي به الحنين مطراً يبحث عن مسـاربه إلى البحر. والتراب، إن ارتفع شجراً أو بناءً؛ فإن الحنين ينخر فيه ويقلقه، فلا يطمئن إلا حينما يعود إلى الأرض.

الثانية:

أن كل شـــيء – مـــا دام في مجمعـــه – يبقى أصيلاً يعبر عن واقعه، ولا ينفصل عن مجمعه إلا ويرشـــح للانحلال، ويعرض واقعه وأصالته للضياع:

- فالمـــاء – ما دام في البحر – يبقى مـــاءً صالحاً، يحافظ على كل مقوماته ومواصفاته، ويتغلب على كل مـــا يقتحمـــه لتغييره أو التأثير عليه. ولا يغادر البحر – إلى أي مناخ – إلا ويتغلب عليه المناخ الجديد، فيفسده أو يستهلكه.

- والذهـــب – ما دام في منجمه – يزداد صفاء ويســـتهلك ما حولـــه لينمو أو ليكثر. وإذا انتقل إلى أي مجال – حتى إلى صدور الحسان – يتعرض للصدأ والتآكل.

- وحتـــى التراب – الذي هو أقوى ما في هـــذه الكرة على التغيير والتأثير – لو خطفت قبضة منه إلى أي مناخ، بعيدة عن أمها الأرض؛ فإنها تســـتحيل إلى ما يلائم مناخها الجديد، وتنسى أنها عاشت مليارات السنين ثاوية في أحضان الأرض.

س: أ ليس التراب أكثر نفاقاً وتلوناً من بقية موجودات هذه الكرة؟! أولا يجد حبة تسقط فيه إلا ويتذرع بها للخروج على وضعه ومجتمعه؟! إن التراب سريع التلون بكل ما يوجد فيه أو عليه من: معدن، ونبات، وحيوان، وإنسان...؛ فكيف هو أقوى ما في هذه الكرة على التغيير والتأثير؟!

ج: إن عمر التراب طويل، ولذلك يعمل بالنفس الطويل. ولو درسنا أعمال التراب بالنفس الطويل؛ لوجدنا أنه ينافق كل شـــيء، ولا يخلص لشيء إلا لأمه الأرض: فالتراب يحتال على: المعادن، والنبات، والحيوان، والإنسان...؛ ليمتص – من خلالها – الجزئيات الحيوية من الهواء والنور، ثم يعود بها إلى الأرض. لأن مقدرة التراب – في صيغته الترابية – على الاســـتفادة من الهواء والنور، محدودة. فيرتفع شـــجرة، ويتحرك حيواناً؛ ليأخذ أكبر قدر ممكن من: الهواء، والنور، والذرات الكونية...؛ فيسمد بها الأرض. وبالنتيجة: لا يوفر شيئاً، حتى البذرة الضائعة التي تسقط فيه. وهذا... من جملة الأسباب التي تناصر لتكبير حجم الأرض.

❁ ❁ ❁

وكما يكون الماء والذهب والتراب، يكون كل شيء – في مجمعه – منسجماً مع واقعه، ويكون ـ خارج ـ مجمعه عرضة لفقدان واقعه.

وقد وردت – في الفقه الإسـلامي – أحكام تشـير إلى اسـتبطان هذه الحقيقة، ثم جاء العلم ليكشف للرأي العام واقعية هذه الأحكام:

- مثلاً: (إذا كان الماء قدر كرٍّ، لم ينجسه شـيء) (١٤١). فالماء القليل يتنجس بملاقاة العين النجسة، بينما لا يتنجس الماء الكثير (الكر) إلا إذا غلبت العين النجسة على: لونه، أو طعمه، أو ريحه.

- مثلاً: المتنجس بالبول لا يطهر إلا إذا غسـل بالماء القليل مرتين، ولكنه يطهر إذا غسـل بماء المطر أو بالماء الجاري مرة واحدة.

- مثلاً: إذا تنجسـت الأرض – أو الأجسـام الثابتة عليها، كالمباني والأشـجار – بسائل نجس؛ فإنها تطهر إذا جففتها الشمس، بينما لا تطهر الأشياء المنقولة وإن جففتها الشمس.

- مثلاً: إذا سـقط الكلب في المملحة، مع الرطوبة في أحدهما تنجسـت به. وإذا استحالته، طهر هو والملح على الأصح، بينما ينجس الملح – وإن كان كثيراً – بولوغ الكلب فيه للرطوبة المسرية.

- مثـلاً: مـاء البحر طاهر مطهر، فيما المضـاف ليس مطهراً. مع العلم: بأن تلك النسـبة من الأملاح لـو أضيفت إلـى الماء، اعتبر مضافاً غير مطهـر، خاصة: لو أخذنا بنظر الاعتبار نسـبة الأملاح في (البحر الميت).

هذه الأحكام – والعشـرات من أمثالها – تنطوي على دلالة واضحة على أن كل شيء في مجمعه، يمتاز بعاصمية لا يجدها عندما ينقطع عن مجتمعه.

❁ ❁ ❁

وكما يكون الماء والأرض والأعيان الطاهرة والنجسـة، يكون سـائر الأشـياء: فالشـمس كانت وستبقى مشـتعلة، وأي جزء منها يبقى مشـتعلاً ما دام متصلاً بها، ولكنه لو انفصل عنها لا يلبث أن ينطفئ ويبرد. والأرض باردة مطفية، ولو انفصل أي جزء منها والتحق بالشمس؛ لا يلبث أن يشتعل. والماء ضد النار، ولو أضيف شيء منه إلى المحروقات السائلة؛ زاد في اشتعالها.

❁ ❁ ❁

وهاتــان الحقيقتان، تضمان الإنســان إلى غيره من مظاهر الوجود: فأمــا الحقيقة الأولى، فنجدها في الإنسان بشكل صارخ، حتى قيل إنها أبرز مميزات الإنسان، حتى قالوا: (الإنسان، حيوان مدني بالطبع). فلا يبتعد الإنســان عن نظيره الإنســان، إلا ويستوحش من كل شيء حوله مهما كان مغرياً، وتهيج به الهواجس حتى يتصور أن كل الأرواح الشــريرة قد اجتمعت على افتراســه، ويندفع للاستئناس بالإنسان حتى لو كان عدواً، فيفضله على وحشة الوحدة.

وأنت إذا خرجت وحدك إلى أجمل متاحف الدنيا ومنتزهاتها، لا تلبث أن تشــعر بقبضة حديدية تعتصر حشاشــة صدرك، حتى لا تتنفس إلا بجهد، ولكنك لوتنزهت مع صديق في شــارع ضيق مزدحم، تشــعر بالانفــراج. ولــو رأيت: تحفة أثرية، أو وردة نادرة، أو منظراً بديعاً، أو أي شــيء ملفت...؛ فلا تتملاه مهما تأملته، إلا إذا ألفت إليه زميلك، وتبادلت معه الحديث حوله، حتى كأن الإنســان لا يتنزه إلا بالإنسان، أما سائر الأشياء: فلا تصلح إلا مادة لتغيير الحديث والحركة.

وأما الحقيقة الثانية، فتطبع جميع مظاهر حياة الإنسان:

فالفرد يبقى مسترسلاً مع فطرته، وادعاً مطمئناً؛ ما دام مجتمعه يعامله بشكل مرض. فإذا جرحه مجتمعه أو نبذه، يضطر إلى الابتعاد عن من يطمئن إليهم. فإذا اعتزلهم، تهيج به العزلة وتســتبد به الوحشــة بشكل لا يطــاق، فيبحــث عن أي مخرج ولو إلى الهاوية. وفي هيجة محاولته الاســتعلاء على عزلته، يطلق عنانه لخلفياته، التي قد تقوده إلى الانتحار، وربما تدفعه إلى الجريمة.

وإذا كان مفكــراً يملــك قــدرة التأثير، فإن خلفياته تســول له إيجاد مجتمع جديــد حوله، يحتمي به، ويطاول مجتمعه السابق الذي رفضه؛ باختلاق: مبدأ، أو دين، أو فكرة، أو نظرية، أو أي شذوذ يجمع حوله الناس...

ولذلك: نجد أن كل الذين ابتدعوا: المذاهب، والمبادئ، والأفكار الهدامة، أو عملوا عصابات إجرامية، أو التحقوا بأحد هؤلاء...؛ نجد أنهم – جميعاً – كانوا منبوذين في طليعة شبابهم من قبل مجتمعاتهم الطبيعية، فاستعاضوا عنها بمجتمعات مصطنعة.

بينما نجد أصحاب الرســالات والدعوات الإصلاحية، محترمين في باكورة حياتهم من قبل مجتمعاتهم الطبيعية.

ولعل هذا الفارق يميز أصحاب الدعوات الصالحة الذين يشقون لإسعاد البشرية، عن أصحاب الدعوات

الفاسدة الذين يحاولون أن يسعدوا بإشقاء البشرية.

والسبب الوحيد الذي يؤدي إلى الانحراف المصيري هو: تصاعد توقعات الأفراد من مجتمعاتهم، وتصاعد توقعات المجتمعات من أفرادها؛ في خطين متوازيين، وعدم تقدير كل طرف موقف الطرف الآخر:

فالفرد – إذا لم يكن معصوماً – معرض للخطأ وللخطيئة، بحجم الشـذوذ في ذاته وفي تربيته. وكل من يخطىء يشعر بأنه أخطأ، و– في ذات الوقت – يجد الذرائع لتبرير خطئه، فينتظر لوماً من مجتمعه، ولكنه – مهمـا كان حجم خطئه – لا ينتظر الرفض من مجتمعه. بينما مجتمعه – في هيجة الاسـتنكار – قد يجد الرفـض أقل عقاب يرد به الخطأ، وخاصة: إذا كان كبيراً لا تهضمه عقلية مجتمعه بسـهولة. ومن ثم يتولد رفض المجتمع للفرد، وعقوق الفرد للمجتمع، ثم بحثه عن مخرج... أي مخرج.

ولا ينقذ من هذه الأزمة، إلا أحد أمرين:

١- تعقـل المجتمع في احتواء الخطأ، عن طريق الرد عليه بأي عقاب دون الرفض. فأي عقاب – حتى القتل – أهون على المخطئ وعلى مجتمعه من الرفض: لأن المرفوض قد يعيش طويلاً، وهو يقتل كل يوم ألف قتلة. ولأن المجتمع الذي يرفض أحد أبنائه، يقطع عليه خط الرجعة إليه، ويفتح أمامه باب التوغل في الخطـأ، والثأر من المجتمع. وقد يؤثر على مجموعة كبيرة، تمكنه من قلب مقاييس المجتمع كله: فيصبح الرافض مرفوضاً، والمرفوض رافضاً.

٢- تعقل الفرد في التكفير عن خطئه: فتحمل أي عقاب، وحتى التشرد، من مجتمع إلى مجتمع، أسهل من التوغل في الخطأ والرد على المجتمع.

❁ ❁ ❁

من هذا المنطلق، نجد أن القرآن يؤكد على الالتزام بالمجتمع، ويركز الرسـول الأعظم (ص) على هذا الحكم في مناسبات عديدة، فيقول ـ في المراسيل المرويات –: (لا تجتمع أمتي على ضلال) (١٤٢)، (يد الله مع الجماعة) (١٤٣) ... ويوجه إلى حقيقة أن المرفوض – إذا قبل الرفض، وحاول الرد عليه – يصبح عنصراً هداماً بقوله: (من شـذَّ، شـذَّ في النار) (١٤٤)، (الشاذ من الناس للشـيطان، كما أن الشاذ من الغنم للذئب) (١٤٥) ...

❁ ❁ ❁

وهذا... لا يعني أن الفرد – دائماً – هو المخطئ، وهو المسـرف في اتخاذ التدابير ضد مجتمعه، فقد يكون الفرد مخطئاً، وربما يكون المجتمع مخطئاً. وفي كلتا الحالتين، على الفرد أن يبقى ملتزماً بمجتمعه، فـإذا كان الفرد مخطئاً، فمن مصلحته التزامـه بمجتمعه. وإذا كان مجتمعه مخطئاً، فمن حقه على الفرد أن لا يتركه لخطئه.

ولا فرق في ذلك: بين المجتمع الصغير الذي يعني الأسـرة أو الأرحام، وبين المجتمع الكبير الذي يعني الشعب أو الأمة.

جنون الغرور

((إنكم – وما تعبدون من دون الله – حصب جهنم، أنتم لها واردون)). [(سورة الأنبياء : الآية ٩٨)].

أ رأيت البناء؟

إنه ثورة الأرض بشكل هندسي معين وبتركيبة معينة، ولكن سرعان ما تنطفئ الثورة ويفقد البناء هندسته وتركيبته، ويعود – كما كان – جزءاً مسترخياً من التراب.

أ رأيت الشجرة؟

إنها انتفاضة الأرض بشـكل هندسي آخر وتركيبة أخرى، ولكن سرعان ما تأخذ الانتفاضة مداها، وتبدأ في التقلص، لتتخلى عن هندسته وتركيبته.

أ رأيت الحيوان؟

إن أي نوع من أنواع الحيوان، وحتى الإنسـان؛ إنه نزوة الأرض بشـكل هندسـي مميز وتركيبة مميزة، ولكن سرعان ما تبلغ النزوة أوجها لتأخذ في الانحدار، فتخلع – تدريجياً – هندسته وتركيبته، بعد أن تترك آثار تجربة، وتحمل آثار تجربة.

فالحيـوان – بأنواعـه المختلفة – لون ثالث من هيجة الأرض، بأشـكاله الهندسـية المعروفة ومركباته الخاصة. ولكن سرعان ما ينفد زخمه وتتوتر حرارته، فيتساقط على الأرض – كقطعة العجين – لترجع تراباً لا يميز عن بقية التراب.

والإنســـان، نوع رابع من نهضة الأرض، بشــكل هندسي أجمل ومركبات أفضل. ولكنه لا يعدو فخاراً ثميناً، سرعان ما ينتهي وقوده، وينهار تراباً نجساً في التراب.

وهذا التراب... فور ما ينهض من الأرض، ينســى أنه نهض من الأرض وأنه سينهار عليها، ويتراءى له أنه أميــر الكون مــدى الأبد، فتأخذه العزة بالإثم، ويتيه حتى على الله، فيتمــرد على أحكامه. وربما يتمادى به جنون الغرور، حتى يتطاول على مقام الربوبية، فيجحده ويلحد في آياته.

وكمــا يذهب الغرور بالإنســان مذاهــب، هكذا – وبذات العنفــوان – يذهب الغــرور مذاهبه بالحيوان والنبات والجماد، ما دامت – جمعاء – من فصائل الأرض، وتعاني من مركبات الأرض، وتتقلب في مشاعر الأرض.

أ وهل تعجب؟

إذا قيل لك: كما قد يتورط الإنســـان في ســلبياته، فيكون (فرعون) و (نمرود) وسائر الطواغيت، هكذا – تماماً – قد يتورط الحيوان والنبات والجماد في سلبياتها، فيكون – منها – فرعون ونمرود وسائر الطواغيت، إن لم يكن بذات المستوى فبنفس الخط.

أوليــس في الحديــث: (إن الله عرض الإيمان على الأراضي، فما آمنت منهــا خصبت وما لم تؤمن منها سبخت. وعرضه على المياه، فما آمن أصبح حلواً وما لم يؤمن أصبح مراً) (١٤٦).

وكما يرتفع الإنسان بإيجابياته فيكون أنبياء وأولياء، كذلك: قد يرتفع الحيوان والنبات والجماد بإيجابياتها فيكون منها القمم الشاهقة؛ إن لم يكن بذات المستوى فبنفس الخط.

وإلا: فلماذا أوصى الله إلى (النحل) دون (العقرب)، وبارك في أشجار وأراض دون غيرها؟؟!!

إننا نعايش الحيوان والنبات والجماد، ولكننا نعيش بمعزل عنها. كما نعايش الملائكة والجنة والشياطين، وكما نعايش الروح والعقل وسائر الطاقات الفاعلة في الكون؛ ولكن بمعزل عنها.

ولعل كل الطاقات الفاعلة في الكون، أكثر وعياً من الإنســـان. لأنها تؤدي دورها في الإنسان، ولم يعرف الإنسان منها شيئاً – حتى اليوم – ليؤدي دوره فيها أو لا يؤدي.

ولذلك: لا نســتطيع تقييم شــيء مما في الكون ما لم نتعمق في عوالم الكون، ونبقى محتاجين إلى أن تسقط المعلومات من مصادر الوحي، إلى أن يظهر الإمام المنتظر – عجل الله تعالى فرجه الشريف – فيأتي ببقية العلم، ويهيىء الإنسان للتفاهم مع الكون، والتعاون معه على مستوى الواقع.

أما الآن... فنحن في عزلة تامة عن الكون. ولعل كل شــيء في الكون يضحك من جهل الإنســان وغبائه، وليست الملائكة فقط هي التي تضحك من نزقه ورعونته – كما في السنة المطهرة –.

(٢٢)

سورة الحج

مدنية

وهي ثمان وسبعون آية

ضرورة الانسجام مع الواقع العام

((ألم تر؟ !

أن الله يسجد له: من في السماوات ومن في الأرض، والشمس، والقمر، والنجوم، والجبال، والشجر، والدواب، وكثير من الناس، وكثير حق عليه العذاب. ومن يهن الله فما له من مكرم، إن الله يفعل ما يشاء)).

[(سورة الحج: الآية ١٨) .

هل تعلم:

أن قطف وردة يافعة، يساوي – في منطق الحياة – قتل طفلة متفتحة على الحياة؟!

هل تعلم:

أن أية نبتة تنفض التراب عن رأســها لتتجه إلى الســماء، تبحث عن هدف أســمى من الحياة كلها؟!

كما أنك لا تولد لتعاني الحياة فحسب، وإنما لتعبرها إلى الأفضل. فكما أنك لم توجد إلا لهدف كبير، هكذا... لم يوجد شيء – في الكون – إلا لهدف كبير.

هل تعلم:

أن الشوكة تخدم الحياة بمقدار ما تخدمها الوردة؟!

هل تعلم:

أن وجود الشيطان يساهم في تحقيق هدف الحياة كما يساهم في تحقيقه المصلحون؟!

هل تعلم:

أن السم ضروري للجسم، كما أن السكَّر ضروري للجسم؟!

هل تعلم:

أن النار من العناصر الأساسية للحياة، كما أن الماء من العناصر الأساسية للحياة؟!

هل تعلم:

أن الجنة والنار تتساويان في إنجاح عملية الوجود، ولولا جهنم لفشل الوجود، ولولا الجنة لفشل الوجود أيضاً؟!

هل تعلم:

أن كل إنسان إما بذرته من جهنم أو من الجنة، ويأتي إلى هذه الحياة ليأخذ مداه، ثم يعود كل إلى مصدره؟! هكذا... كل شيء في هذه الحياة، إما قادم من جهنم أو من الجنة، ليتكامل، فيعود إلى أصله.

وكما أنك تخرج من بيتك صباحاً لتؤدي دورك عبر النهار، فتعود في المساء إلى بيتك وقد تكاملت بشيء: من المال، أو من الشهرة، أو من العلم...

وكما تخرج الطيور من أوكارها خماصاً، لتعود بطاناً عبر كفاح يومي...

هكــذا... خرجت كل وحدات الدنيا من جهنم أو من الجنة، لتعود إليها بشــيء مــن التكامل عبر رحلة اسمها: الحياة.

فالمجرمون خرجوا من جهنم بذوراً ليعودوا إليها أشــواكاً، والمصلحون خرجوا من الجنة بذوراً ليعودوا إليهــا وروداً. واحتفظت بذرة الشــوك بهويتها، كما احتفظت بــذرة الوردة بهويتهــا. واختلطت البذور في الحديقة، ولكن لا تجد بذرة واحدة نســيت ذاتها. كما يختلط الطلاب في المدرسة الواحدة، ولكن العبقري لا ينسى أنه عبقري، والتافه لا ينسى أنه تافه.

ويحتاج المجتمع إلى المؤدِّب كما يحتاج إلى الزاهد، ويحتاج جسم الإنسان إلى الجرَّاح كما يحتاج إلى الغذاء، وتحتاج الدولة إلى حروب كما تحتاج إلى السلام...

هكذا... الحياة تحتاج إلى الشر كما تحتاج إلى الخير، وبفقدان أي منهما تفشل تجربة الحياة، كما تفشل تجربة الميزان بفقدان أية واحدة من الكفتين. فالمعادلات، هي التي تحرك عجلة الحياة.

والشوكة تستمد نشاطها من الله – تعالى – بنفس المقياس الذي تستمد به الوردة نشاطها من الله، فكلتاهما تكافحان، وكلتاهما تتجهان إلى الله في كفاحهما. وإنك لا تستطيع أن تقول: إن النفط عندما يحترق يناقض الحياة، وإن الشجرة حينما تثمر تخدم الحياة. فكل – من موقعه – يساهم في عملية الحياة:

فالبحــر حينما يتصاعد بخاراً لتطهيــر الجو، وينهمر مطراً لتربية النبات والحيوان والإنســان والمعدن، ويجري في شرايين الأرض لامتصاص الأملاح الفائضة عن المعدل المناسب؛ يرجع إلى أصله أخيراً، ولكنه ينفِّذ إرادة الله عبر كفاح مرير.

والأرض، حينما تنتفض نباتاً وحيواناً وإنساناً ومعدناً، ترجع إلى أصلها أخيراً، ولكنها تنفذ إرادة الله عبر كفاح مرير.

فكل شــيء ســاجد لله سجوداً مستمراً، سواء أ خرج من الجنة ثم عاد إليها أم خرج من جهنم وعاد إليها. إنما المهم: أن يتكيف بإرادة الله في دورته، ينفذ إرادة الله بإرادته، فينسجم مع الواقع العام، ويرتاح بانسجامه مع ذلك الواقع العام. أو أن لا يتكيف بإرادة الله في دورته، فينفذ إرادة الله تحت تيارات الحياة، فلا ينســجم مع الواقع العام، ويتعذب بتناقضه مع ذلك الواقع العام.

صحيح أن العنصر الجهنمي يعود إلى جهنم، ولكن الفارق: أنه قد يعود كبريتاً يحرق غيره، وقد يعود جسداً يحترق بغيره. فالأول: عاد إلى جهنم منسجماً مع الواقع العام، فارتاح بانسجامه معه. والثاني: عاد إلى جهنم متناقضاً مع الواقع العام، فتعذب بتناقضه معه.

إن في جهنم ملائكة ينظمون جهنم، وفي جهنم شياطين يعاقبون بجهنم. كلا الفريقين في جهنم، ولكن الفريق الأول انسجم مع الواقع فاطمأن به، والفريق الثاني تناقض مع الواقع فتعذب به.

والإنسان كيفما كان فإنه جزء من الحياة، لأن الحياة تضمنته على أي حال. فعليه أن يحاول خدمة نفسه، بانسجامه مع الواقع العام الذي يعبر عن إرادة الله، حتى يطمئن بمسيرته في هذه الحياة، ويطمئن بمصيره بعد هذه الحياة:

مثلاً: النظام الصحي جزء من الواقع العام، فإذا انسجمت معه تطمئن إلى جسم سليم، وإذا تناقضت معه تعذب بجسم سقيم.

ومثلاً: نظام السير جزء من الواقع العام، فإذا انسجمت معه تصل إلى هدفك ولا تعاقب، وإذا تناقضت معه قد لا تصل إلى هدفك وتعاقب.

ومثلاً: المجتمع السليم – إذا وجد مجتمع سليم، أو الجانب السليم في المجتمع – جزء من الواقع العام، فإذا انسجمت معه أصبحت مقبولاً ورفعك بنسبة انسجامك معه، وإذا تناقضت معه أصبحت مرفوضاً وصادرك بنسبة تناقضك معه.

وبالتالي:

إن من انسجم مع إرادة الله – التي هي وراء الواقع العام – اطمأن بها، ومن تناقض معها لم يستطع اختراقها، لأن الله غالب على أمره، بل جرفته تيارات الواقع، وتعذب بالاصطدام بها. والإنسان لا يصطدم بما هو أقوى منه، إلا إذا أراد أن يتعذب بلا جدوى.

طبيعة المشرك، وطبيعة نظام الشرك

((... ومن يشرك بالله، فكأنما خرَّ من السماء، فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق)).

(سورة الحج: الآية ٣١).

-١-

إن التربية الحديثة فصلت هذا الجيل عن الجيل السابق، وفككت أفراد هذا الجيل عن بعضها.

فالطفل – سابقاً – عندما كان يولد، كان يرى أن أمه تعطيه عطاءً مطلقاً وبلا أجر، وأباه يعطيه عطاءً مطلقاً وبلا أجر، ويرى معلمه يعطيه عطاء مطلقاً وبلا أجر، ويرى حاكمه يعطيه عطاء كذلك، وقاضيه كذلك، ويرى أخاه وابن عمه وكل قريب وصديق... يعطيه عطاءً مطلقاً وبلا أجر. فكان يتربى على أن يعطي – هو – لأمه، وأبيه، ومعلمه، وحاكمه، وقاضيه، وأخيه، وابن عمه، وكل قريب وصديق... عطاء مطلقاً وبلا أجر. فكان ينشأ عضواً في جسد، ولبنة في كيان.

أما اليوم: فيولد الطفل، فيرى أمه لا تعطيه إلا عطاءً محدوداً ومع مشاكل وبصعوبة، ويرى أباه لا يعطيه إلا عطاء محدوداً ومقابل مطاليب، ويرى مربيته تعطيه عطاء محدوداً بالساعات ومقابل أجر، وكذلك: معلمه، وحاكمه، وقاضيه، وأخاه، وابن عمه، وكل قريب وصديق... يرى كل إنسان يتعامل معه، يعطيه عطاء محدوداً بحدود وبأجر. فيتعود هو على أن يعطي ـ أيضاً ـ عطاء محدوداً ومقابل أجر. لذلك: لا يرتبط بأي إنسان ارتباطاً إنسانياً مطلقاً مجرداً، لأنه تربى على أن يأخذ ارتباطه مقابل أجر، فلا يعطي ارتباطه إلا مقابل أجر.

فلذلك: ينشأ كل فرد أداة مستقلة، لا تربطه بغيره إلا رابطة الأجر أو المصلحة. فيصبح كل فرد أداة مستقلة، ويصبح المجتمع – كله – مجموعة غرباء يعيشون فرادى، أدوات متفرقة تحتاج في ارتباطها إلى براغي ومشدات، هي المادة.

ولذلك: يكون الفرد مع مصلحته ضد أخيه، ومع أخيه ضد ابن عمه لأن المصالح التي تربطه بأخيه أكثر من المصالح التي تربطه بابن عمه، ويكون مع ابن عمه ضد صديقه لأن المصالح التي تربطه بابن عمه أكثر من المصالح التي تربطه بصديقه، وهكذا... يكون مع معلمه، وحاكمه، وقومه...

ولذلك: لا يشعر أي فرد بغيره إلا من خلال مصالحه فإذا أوصدت في وجهه أبواب مصالحه، يلجأ إلى الانتحار، لأنه يرى نفسه وحيداً في صحراء، ولا ينتظر أن تمتد إليه يد المعونة من أحد. فيرى الحياة قد انتهت بالنسبة إليه.

بينما الذي يعمل الخير للخير، أو يعمل الخير لله؛ يعطي عطاء مطلقاً في كل مجالات العطاء، يعطي بلا حساب وبدون أجر. وبعطائه – هذا – ينمّي ضميره، ويربِّي مجتمعه على العطاء المطلق. فيعود عليه مجتمعه بالعطاء المطلق كرد فعل طبيعي، فتصل إليه عطايا المجتمع، في الوقت الذي يحتاج وأكثر مما يحتاج.

ومن لا يعطي العطاء المطلق، يهزل ضميره، ويربي مجتمعه على عدم العطاء المطلق. فيعود عليه مجتمعه بعدم العطاء المطلق، في الوقت الذي يحتاج.

إن من يعطي العطاء المطلق، يعطي الزيادة التي عنده في الوقت الذي لا يحتاج إليها، ويأخذها من المجتمع في الوقت الذي يحتاج إليها. فهو – في الحقيقة – يصمدها في بنك المجتمع.

والذي لا يعطي العطاء المطلق، لا يعطي الزيادة التي عنده في الوقت الذي لا يحتاج إليها، وإنما يسرفها، ثم لا يستطيع أن يأخذها من المجتمع في الوقت الذي يحتاج إليها، لأنه لم يصمدها في بنك المجتمع.

فهو – حتى في حدود مصلحته الخاصة – خاسر.

ولذلك يقول الإمام علي (ع): (من يقبض يده عن عشيرته فإنما تقبض عنهم يدٌ واحدة وتقبض منهم عنه أيدٍ كثيرة)) (١٤٧).

- ٢ -

المشرك، إذا درسنا حياته من أولها إلى نهايتها، نجده – بالفعل – ((كأنما خرَّ من السماء))، لأنه – منذ هبط روحه من السماء – لم يهبط على مقر أمين، وإنما سقط من السماء لشتى الاحتمالات. وهو – في خضم هواجس الحياة – قلق مرتبك، تماماً... كمن هو ساقط من شاهق رفيع، لا يدري: أين يسقط؟ وكيف يتحطم؟ ثم يلاقي أحد مصيرين:

١- أن ينتبه إليه طاغوت فيتلقفه لقمة سائغة، أو يمر به تيار فينتهزه أداة طيعة: ((فتخطفه الطير)).

٢- أو يبقى لنفسه، فيعاني من الرياح الداخلية التي تعصف بأعماقه، حتى تستهلك هواجسه، أو تفجره أهواؤه: ((أو تهوي به الريح في مكان سحيق)).

تعظيم شعائر الله

((ذلك: ومن يعظم شعائر الله، فإنها من تقوى القلوب)). [(سورة الحج: الآية ٣٢)].

كل من ينطلق في الحياة، ينتزع من إحدى قاعدتين:

١- قاعدة (رغبة)، تختلف أسـبابها وتختلف آمادها باختلاف الأفراد والظروف، ولكنها لا تختلف في كونها محدودة ومؤقتة، فالرغبة شـهوة لها نوبة، ونزوة لها دورة، فتلتهب بسرعة وتخبو بسرعة، لأن الرغبة هي ما لم يؤسس عليها الفرد حياته، فيسهل عليه التخلي عنها.

٢- قاعدة (مبدأ)، تختلف أسـبابه وتختلف آماده باختلاف الأفـراد، ولكنه لا يختلف في كونه مطلقاً ودائماً. لأن المبدأ هو ما أسس عليه الفرد حياته، وبتصدعه تنهار حياته. فلا يتخلى عنه إلا بانتهاء حياته.

والهاوي ينتزع من قاعدة الرغبة، سواء أ كانت هوايته منبعثة من داخله، كهواية: جمع الطوابع، أو الصور، أو الرياضة، أو غيرها من الهوايات المعبرة عن الذوق. أو كانت هوايته منبعثة من خارجه، كالهوايات التي لا تعبر عن الذوق، وإنما تعبر عن استجابة رغبة الآخرين، من صديق أو قريب أو عرف...

والمحترف ينتزع من قاعدة المبدأ، سواء أ كان مبدؤه تعبيراً عن إيمانه الداخلي أو كان مبدؤه تعبيراً عن مصلحته.

لأن الهاوي لا يؤسـس حياته على هوايته، والمحترف يؤسـس حياته على مبدئـه. ولا فرق بين الهواية والمبـدأ ذاتاً، وإنما الفارق في موقف الفرد منهما: فكل هواية يمكن أن يؤسـس عليها الفرد حياته، فتكون مبدأه. وكل مبدأ يمكن أن يصطفيه الفرد لرغبته، فيكون هوايته.

ومن طبيعة الهاوي أنه يمارس هوايته في فضوله، فلا يقود إليها الآخرين، ولا يلتزم بها إن كلفته كثيراً.

ومن طبيعة المحترف أنه يمارس مبدأه في جده، فيقود إليه الآخرين، ويلتزم به وإن كلفه كثيراً.

والمسلمون ينقسمون إلى قسمين:

١- المستسلمون، الذين أسلموا انتزاعاً من قاعدة رغبة: قد يكون سببها الخوف من نتائج الكفر، وقد يكون سـببها المصلحة في اعتناق الإسلام، وقد يكون سـببها الانسياق مع التيار. فاشتهوا الإسلام، دون أن يؤسسـوا عليه حياتهم. ومنهم الذين عناهم القرآن بقوله: ((قالت الأعراب: آمنا، قل: لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا، ولما يدخل الإيمان في قلوبكم...)) (١٤٨). وهم أشبه بالهواة. وهؤلاء... مسلمون في حدود، وما دام سببه موجوداً.

٢- المؤمنون، الذين أسلموا انتزاعاً من قاعدة مبدأ: قد يكون سببه الاقتناع به، وقد يكون سببه المصلحة الدنيوية أو الأخروية. ولكنهم أسسوا عليه حياتهم، فربطوا بين مصيره ومصيرهم، وهؤلاء... مسلمون مطلقاً ودائماً.

وهذا القسـم الثاني من المسـلمين وإن كان اعتناقهم له بدون اقتناع، إلا أن ممارسـته المستمرة تنتهي بتسربه إلى قلوبهم، لأنه حق.

وهؤلاء... يمرون بثلاث مراحل:

١- قبل أن يتسرب الإسلام إلى قلوبهم.

٢- عندما يتسرب الإسلام إلى قلوبهم، فيتحول الإسلام إيماناً.

٣- عندما يتمكن الإيمان من قلوبهم، فيتحول الإيمان تقوى.

وهـم – ما داموا فـي المرحلة الأولى – يلتزمون بالإسـلام طالما هم مع المسـلمين (ويتخلون عنه مع أنفسهم ومع غير المسلمين) فيكتفون بالاشتراك في المظاهر الإسلامية، حتى يكون لهم ما للمسلمين.

وإذا انتقلوا إلى المرحلة الثانية، التزموا بالإسلام مع المسلمين ومع أنفسهم.

فإذا وصلوا إلى المرحلة الثالثة، رفعوا الشعارات الإسلامية لدعوة غيرهم إلى الإسلام.

((ومن يعظم شـعائر الله)) ويرفع شعارات الإسلام، ((فإنها)) ظاهرة تدل على أنه بلغ المرحلة الثالثة في الإسـلام، فشـعائر الله ((من تقوى القلوب)). فليس هو متقياً فحسـب، وإنما قلبه أصبح متقياً، فهو – في تقواه – يعبر عن واقعه بلا تكلف.

فالإنــاء مــا لم يمتلئ لا يطفح، وإذا طفح فقد امتلأ بوفر. وما لــم يتمكن الإيمان من قلب المؤمن، لا يتصدى لغيره.

وهذا التشــجيع الأكيد من القرآن على تعظيم شــعائر الله، لا بد منه، لأن رفع الشــعارات الإسلامية تفيد لأمور:

١- إيجاد الكيان الإســلامي في واقــع المجتمع، والدلالة على أن المســلمين بلغوا درجة الإعلان عن وجودهم بدون تحفظ، فهم أقوياء لا يتوجسون خطراً من إبراز هويتهم أمام الآخرين.

٢- إيجاد الشخصية المسلمة في نفوس المسلمين، وتصعيد معنوياتهم، وإشعارهم بأنهم قوة لا ترهب قوة، فقد بلغت مستوى التصدي لغيرها.

٣- خضد شــوكة غيرهم، وتخفيض معنوياتهم، وإشعارهم بأنهم ليسوا أسياد الموقف وحدهم، وإنما هنالك – إلى جانبهم – أسياد آخرون هم المسلمون.

٤- توجيــه غيرهم، وتحريــك ضمائرهم التي – مهما تضاءلت – لا تموت ولا تتلاشــى، وإنما تنبض كلما التقفت الضوء من مصدر إشعاع؛ فتتحرك لتقول لأصحابها: (انظروا هؤلاء المسلمين، أسلموا وبلغوا مســتوى التصدي، وأنتم لم تدخلوا – بعد – في الإسلام، أنتم متخلفون، أنتم منحرفون). فيقف كل شعار موقف واعظ.

من قبو المعارضة إلى سدة الحكم

﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن اللهٰ – على نصرهم – لقدير *

الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ﴿ ربنا اللهٰ ﴾ . ولولا دفع اللهٰ الناس بعضهم ببعض لهدمت : صوامع ، وبيع ، وصلوات ، ومساجد يذكر فيها اسم اللهٰ كثيراً . ولينصر اللهٰ من ينصره ، إن اللهٰ لقوي عزيز *

الذين إن مكناهم في الأرض : أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر . ولله عاقبة

الأمور)) .[(سورة الحج: الآيات ٣٩ – ٤١) .

-١-

من خلال هذه الآيات، يمكن استشفاف مواضيع عديدة، ندرسها في مباحث:

المبحث الأول:

الوطن، ما هو؟!

وما قيمته الذاتية؟

وكيف يقيم في معادلته بالمواطن؟

١- الوطن، قطعة من الأرض يختارها إنسان مقره الثابت.

٢- قطعة أرض، لو تصورناها بعيدة عن الإنسان، لا تكون لها قيمة ذاتية بالنسبة للإنسان. فقيمة الأشياء بالنسبة إلى الإنسان، تقدر بمقياس حاجة الإنسان إليها. فترتفع وتنخفض، بمعدل ارتفاع وانخفاض تزاحم حاجات الناس عليها.

٣- طالما تقدر قيمة الأشياء بالنسبة إلى الإنسان، بمقياس حاجة الإنسان إليها وبمعدل تزاحم الحاجات عليهـــا؛ فالمواطن هو الذي يمنح القيمة للوطن، ويقدرها بقدر معيـــن، ويعدلها بمعدل معين. تماماً... كما يمنح القيمة للذهب، وحبة القمح، وقطرة الماء...

فالإنسان، هو أصل القيمة. أما الأرض ومشتقاتها، فتأخذ قيمتها من الإنسان.

المبحث الثاني:

إذن، لماذا يضحي الإنسان لحماية الأرض؟

الجواب:

١- يضحي لحماية أرضه، كما يضحي لحماية ماله، وللدفاع عن حريته... لأن الإنسان – منسلخاً عن حقوقه – يصبح أداة طيعة لقوى الشر. فيكون الدفاع عن أي حق من حقوقه، دفاعاً عن ذاته كمخلوق، أو دفاعاً عن ذاته كإنسان. فلا يكون الدفاع عن الأرض – في واقعه – دفاعاً عن أرضه، وإنما هو دفاعاً عن ذاته. وبما أن الإنسان وجد في هذه الحياة لهدف معين هو تنمية المواهب المغروسة في ذاته، فإذا سيطرت عليه قوى الشر حتى عطلته عن هدفه، فخروجه من دائرة هذه الحياة لمواصلة مسيرته في حياة أخرى، أفضل من بقائه معطلاً في هذه الحياة.

٢- في مجال التشريع، لا يؤخذ الإنسان كفرد وجد وحده على هذه الأرض، وإنما يؤخذ كفرد في ضمن مجموعة مستمرة، لها اعتباراتها وحقوقها. والمجموعة تضحي بفرد، أو أفراد منها، لتأمين حق – ولو بسيط – من حقوق المجموعة كلها.

لأن المجموعة تعادل بين قيمة فرد وقيمة حق من حقوق المجموعة، فترجح قيمة الحق – لأنه منتشر ومستمر بانتشار واستمرار المجموعة – على قيمة الفرد، لأنه محدود وغير مستمر، فيضحى بالفرد بلا تردد.

المبحث الثالث:

لا معنى لتضحية الفرد لحماية حقه أو حق المجموعة، لأن الفرد إذا مات انتهت بالنسبة إليه كافة الاعتبارات، فلا تبقى بالنسبة إليه: لا حقوق، ولا مجموعة، ولا وطن، ولا يبقى بخصوصه مفهوم للدنيا كلها. فلماذا يضحي بنفسه، ويغض النظر عن حقه في الحياة، ويقطع علاقته بهذه الدنيا التي يستطيع استثمارها في تنمية ذاتياته – على الأقل –؟!

الجواب:

قد يجد الإنسان أمامه هدفاً كبيراً يحاوله من خلال تضحيته، مثل مرضاة الله – سبحانه – التي قد تتركز في مظهر معين، كالدفاع عن: وطن، أو شخص، أو عقيدة... ففي مثل هذا المورد، لا تكون التضحية في سبيل ذلك المظهر، وإنما تكون في سبيل الله، وإن كان سبيله قد يتجسد: وطناً معيناً في وقت، ونبياً في وقت آخر، وعقيدة في وقت ثالث... والتضحية في سبيل الله ليست تضحية بمفهومها المعروف، وإنما هي أعلى مراتب تصفية الذات، وترفيعها عن مطامح الأرض وعوائقها.

المبحث الرابع:

إن تصفية الإنســـان – جسدياً أو وطنياً – لا يصح إلا لإيقاف الاعتداء الجسدي أو الوطني. فتصفية الناس جسدياً تقابل بالمثل، وتصفية الناس وطنياً – بإزعاجهم عن مأمنهم – تقابل بالمثل:

((ولكم في القصاص حياة)) (١٤٩).

((وكتبنا عليهم فيها: أن النفس بالنفس، والعين بالعين، والأنف بالأنف، والأذن بالأذن...)) (١٥٠).

«فمن أعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم» سورة البقرة الآية ١٥١

((إنما جزاء الذين يحاربون الله ورســـوله، ويســـعون في الأرض فســـاداً: أن يقتلوا، أو يصلبوا، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أو ينفوا من الأرض...)) (١٢٥).

أمـــا أن يحمل أحد فكرة حقـــاً، أو يعبر عن فكرة حق – بدون اعتداء أو تحريض على اعتداء – فلا يبرر تصنيفـــه معتدياً وتعريضـــه لعقاب، وإن أضرَّ بمصالح آخرين. وتعريضه للعقـــاب، اعتداء يعطيه الحق في القصاص.

فالمسلمون – قبل الهجرة – كانوا يقولون: ((ربنا الله))، وكانت تتأثر مصالح الكفار بهذا القول، ولكنه لم يكن اعتداء ولا تحريضاً على اعتداء. فلما رد عليه الكفار بتهجيرهم، أصبحوا معتدين. فأذن الله للمسلمين باستعمال العنف، للرد على هذا الاعتداء.

- ٢ -

- الناس مع مصالحهـــم. ويكرهون الأنبياء والمصلحين والعباقرة، لأنهم يزاحمون مصالح المســـتغلين النافذين. حتى إذا ماتوا، وأمكن اســـتغلال أفكارهم؛ مجَّد بهم الناس، وجعلوا منهم نجوماً في الســـماء. لا إخلاصاً لهم، وإنما لاستدرار مصالحهم عن طريق المتاجرة برسالاتهم المقدسة.

والأنبياء والمصلحون والعباقرة، يشعرون بهذا الواقع، ولكنهم يعبرون عن ذاتياتهم أو يؤدون رسالاتهم، ثم لا فرق لديهم ما يفعل بأفكارهم الآخرون.

- أيـــة قضية عندما تطــرح للمزاد، يتجمع حولها التجار، ويزايدون. وهـــذا التنافس الحر، يؤدي إلى محاولة كل منهم أن يظهر للرأي العام أشد تمسكاً بالقضية، وأبرع في كشف زيوف الآخرين.

وهذا التدافع التجاري وإن كان من منطلق تجاري، إلا أنه يمنع أياً من التجار من أن يذهبوا بها إلى حيث يشاؤون، وأن يصبوها في مصالحهم الخاصة. فيؤدي – بالتالي – إلى سلامة أصل القضية للرأي العام.

- ولو استطاع التجار أن يتفقوا فيما بينهم على تقسيم الغنائم، لما سلمت قضية في التاريخ. ولكن هذا الجشع التجاري، هو الذي يمنع التجار من الاتفاق، ولا يصيب المجتمع بالأزمات إلا حينما يظهر الاحتكار، فينفرد تاجر واحد بقضية.

- ومـــن هنـــا يظهر: أن الأديان – عندما تطلق الحرية لكل فــرد في أن يتخذ موقفه ويعلن رأيه – لا تلبي قضية إنسانية فحسب، وإنما تلقح المجتمع ضد استغلال الأديان ذاتها.

فطبيعة البشـــر – في أكثريته الســـاحقة – طبيعة مادية تجارية، لا تخلص للقضايـــا الروحية والمعنوية. ((ولولا)) تطعيم هذه الطبيعة المتاجرة بالاســـتئثار والاســـتغلاء، و ((دفع الله الناس)) عن المتاجرة بالأديان ((بعضهـــم ببعض))، لحرفت الأديان كلها، و ((لهدمت صوامع)) النصارى، ((وبيع)) اليهود، و ((صلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً)) من قبل المسلمين، وتحولت إلى دكاكين لمصالح التجار المستغلين.

- ٣ -

الإذن بالقتـــال – فـــي القرآن – لا يكون إلا لدفع الظلم، الذي هو تخبط فـــي نظام الكون المتقن الدقيق. الظلم الذي يبدأ بحرمان النملة من قوتها، وينتهي بحرمان الإنســـان من رأســـماله الذي هو الحياة. فالموت العنيـــف، لا يكون إلا لإيقاف الموت العنيف. فالظالم الذي يمارس حرمان الآخرين من حياتهم، يوقف عند حده بانتزاع حياته.

فالموت الفردي باب للحياة الجماعية، التي هي ســـنة الله للإنســـان. فالظالم الذي يمارس تشويه آثار الله بالتخبـــط في نظام الكون، والظالم الذي يمارس محو أغلى آثار الله في الأرض، بإبادة الإنســـان؛ هذا الظالم يقتل، لتأخذ عدالة الله مجراها في نظام الكون، وليبقى الإنســـان الذي كرمه الله وســـخر له ما في السماوات والأرض.

فالقتال – الذي أذن الله به – أفضل أنواع العبادة، لأنه اتجاه المقاتل – بكله – إلى الله، ولتحقيق إرادة

الله. فميدان القتال مسـجد، والمعركة محراب، ولأمة الحـرب صلاة... وكل قطرة دم توحيد، وكل ضربة سجود، وكل نقلة ركوع، وكل صيحة تسبيح...

وكانت أول معارك الرسـول الأعظم (ص) (غزوة بدر الكبرى) في شـهر رمضان، وخاتمة معاركه (غزوة الفتح) في شـهر رمضان. فالفاتحة والخاتمة، كانتا في شـهر الله. فأعطتا لشـهر الله روحه، وأعطتا للصيام أبعاده.

- ٤ -

هـذه الآيات الثلاث، بمثابة الضوء الأخضر أمام المسـلمين لحمل السـلاح، بعد طـول كفاح دام ثلاثة عشـر عاماً دون اللجوء إلى القوة، حتى أصبح اللاعنف طابع حياتهم. فالتحول من موقع الصمود إلى موقع الدفاع، ومن اللاعنف إلى العنف؛ تحور كبير يحتاج إلى إعداد المناخ النفسي والفكري. فلذلك، كان لا بد من:

١- تنظير الموقف، لإقناع المسـلمين بحمل السـلاح؛ حتى يحاربوا عن قناعة كافية، لجعل الناسك المتعبد محارباً من الطراز الأول، وإخراج الجندية من إطار السـخرة وخدمة السـلطان، وإدخالها في إطار الحق والعمل الصالح.

في هذا المجال، ركز القرآن على النقاط التالية:

الأولى: الاعتراف بأن المسـلمين ظلموا، فهم مظلومون، وليسـوا ظالمين، ومن حق كل مظلوم أن يرفع الظلامة عن نفسـه. وجاء الاعتراف بظلامة المسلمين مسبوقاً بدليل هذا الاعتراف، وهو أنهم قوتلوا. والذي يقاتل، معتدى عليه وليس معتدياً. والمعتدى عليه، مظلوم.

الثانيـة: إعلان أن المسـلمين أصبحوا قوة قادرة على اتخاذ قرار الحـرب، وعلى تحقيق الانتصار، فلم يعودوا أقلية مسـحوقة لا تطيق سـوى الانتفاض، بل – بالهجرة – أصبحوا قوة تستطيع أن تفكر وتخطط، فتحررت إرادتها وتحررت قراراتها. فهي قوة مسـتقلة ذات سيادة تقدر على الدخول في صراع بإرادة حرة، وهي مؤهلة لتحقيق الانتصار إذا وفرت في أنفسـها أسـباب الانتصار، أي لم تعد – كما كانت – مجموعة محكوم عليها بالهزيمة والاندحار إذا دخلت في صراع.

وهـذا الإعلان: ينفع – فـي الدرجة الأولى – لتصعيد معنويات المعارض الـذي لا يفكر إلا في تلقي

الضربـات وهضمها لمجرد الصمود، إلى معنويات المقاتل الذي يعد الضربات لخصمه قبل أن يفكر في قبول الضربات منه.

وينفـع – في الدرجة الثانية – لتخفيض معنويات المعتدين حتى لا يسـتهتروا في كيل الضربات الرعناء إلى المسـلمين في مأمن من الروع، وإفهامهم أن عليكـم أن تفكروا – أكثر من مرة – قبل أن توجهوا إلى المسلمين أية ضربة من الضربات التي تعودتم أن تمطروهم بها في السابق بلا مبالاة.

الثالثة: إعطاء الجريمة حجمها، فإخراج الناس من بلادهم – بدون ارتكاب جريمة الإفسـاد في الأرض، وهو شـهر السـلاح في وجوه الآمنين – جريمة يصح القتال لرفضها، وليسـت جريمة خفيفة يصح قبولها وتناسـيها. فحق الناس في بلادهم حق كبير لا يبطل إلا بشـهر السلاح، وحرمانهم من هذا الحق جريمة يرد عليها بالسلاح.

الرابعة: جريمة المسلمين – حتى في منطق الجاهليين – ليست من الجرائم المسقطة للاعتبار، وإنما هي جريمة عقائدية. وحرية العقيدة من الأصول الأساسـية للإنسان، لأنها وإن أدَّت إلى باطل، يبقى ذلك الباطل محصوراً في نطاقه هو – إذا لم يكن عن تقصير – ولا يكون تجاوزاً على غيره، حتى يرد إلى حدوده.

٢- اسـتحضار الواقـع العام، والمعادلات التـي تحكم هذا الواقع. وفي هذا المجال شـدد القرآن على نقطتين:

الأولى:

التدافع الاجتماعي بين جبهة الباطل وجبهة الحق. فالقوى الشريرة تتكتل للإغارة على مظاهر الخير، فإذا لم تتكتل القوى الخيرة في المقابل لإيجاد التوازن، فإن القوى الشريرة تواصل زحفها حتى تقضي على كل آثـار الخير، وهي مراكز العبادة: الصوامع، والبيع، والصلوات، والمسـاجد. فلا بد من تكتل القوى الخيرة لحفظ التوازن وإيجاد الاستقرار، ومن ثم إيجاد المناخ الصالح لتكافؤ الفرص أمام أصحاب الخير وأصحاب الشر، حتى يجد كل إنسان نفسه على مفترق طرق بين خيارين، ولا يجد نفسه مضطراً إلى خيار واحد.

الثانية:

البقـاء للأصلح. فالحق – إذا دخل في صراع – سـينتصر في نهاية المطـاف، لأن كل القوى الخيرة مع المقاتـل من أجل الخيـر، والله – الذي هو مصدر كل القدرات – معه، والله قوي عزيز، ليس ضعيفاً، ولا

ينــال منه. فجدير بالخيرين – المضطهدين في الأرض – أن يطمئنوا إلى مســتقبلهم، وأن لا يترددوا في الدخول في أي صراع يفرضه عليهم دعاة الشر.

والهدف الموجه لهذه الآيات، هو نقل المســلمين من عقلية المعارض إلى عقلية الحاكم، بعد أن انتقلوا – في واقع الحياة – من موقع المعارضة إلى مسرح الحكم؛ وإشعارهم بأنهم أصبحوا من محركات الأحداث بعد أن كانوا أحجاراً متحركة بإرادة الآخرين.

فصدق المعارض يقاس بعدد (اللاوات) التي تتكرر على لســانه، وإخلاصه يحسب بعدد الضربات التي اســتقبلها دون أن يبارح مكانه؛ بينما صدق الحاكم يقاس بعدد المشــاكل التي عالجها، وإخلاصه يحسب بعدد الانتصارات التي أحرزها.

ومــن الطبيعي والمألوف انتقال المعارضين من مواقع المعارضة إلى مســاند الحكم، ولكن من الطبيعي والمألوف أن يبقى المعارض – بعد انتقاله إلى الحكم – رهين عقلية المعارضة والرفض، وقلما يستطيع أن يتساءل: أين أنا اليوم مما كنت فيه بالأمس؟ وأين سأكون غداً مما أنا فيه اليوم؟

والمفارقة في ظاهرة المســلمين، أنهم فوجئوا – بعد الهجرة – بواقع غير متوقع وغير مألوف، ولكنهم استوعبوه وتحركوا بوحيه، فاستوعبوا الأحداث قبل أن تفرض ذاتها عليهم. فيما لم تستوعبه الجاهلية، لأنه واقع غير متوقع وغير مألوف، فلم تســتوعب الأحداث حتى فرضت ذاتها عليها، فواصلت اعتداءاتها على المسلمين – رغم تأرجح موازين القوى لصالحهم – حتى أكلتها الحرب.

المهاجرون في سبيل الله

((والذين هاجروا في سبيل الله، ثم قتلوا أو ماتوا؛ ليرزقنهم الله رزقاً حسناً. وإن الله لهو خير الرازقين)). [(سورة الحج: الآية ٥٨)].

((والذين هاجروا)) بلادهم، وضحوا بكل ما بنوه فيها من ذكريات وأمجاد؛ ((في سبيل الله، ثم)) واصلوا السير في نفس الخط حتى ((قتلوا أو ماتوا))؛ فإنهم لا يموتون وإنما يبقون أحياء عند ربهم، و ((ليرزقنهم الله)) لا رزقاً كالذي كانوا يكسبونه عادة، وإنما ((رزقاً حسناً)) لم يكن في استطاعتهم تحصيله بجهودهم، وهو ما يرزقه الله للأصفياء من عباده المهاجرين والشهداء في سبيله.

فالمهاجر والشهيد، كلاهما حيٌّ عند الله.

لأن المهاجر – عندما يهجر بلده في سبيل الله – إنما يضحي بالمقدار السابق من عمره، لأن العمر – كالبذور – ينشره الإنسان على أرضية المجتمع، ليحصده ذكريات وأمجاداً. فإذا أنفق عمره في بلده ثم هاجر منه، كان كالزارع الذي يزرع في أرضه ثم يغادرها، كيف يكون مضحياً بالبذور؟

هكذا... المهاجر، يضحي بما سلف من عمره، فيصبح كالشهيد مضحياً بعمره.

والفارق بين المهاجر والشهيد:

أن المهاجر يضحي بما مضى من عمره، والشهيد يضحي بما بقي من عمره.

وبما أن الله يثيب على كل حسنة بالأضعاف من نوعها، فهو يجازي على التضحية بالعمر بالأضعاف من نوعه، فيمدد في عمر المهاجر والشهيد، فيجعلهما حيين بعد الموت والقتل. وذكر لهما أبرز مظاهر الحياة – وهو الارتزاق –.

فقال في الشهيد: ((ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً، بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون)) (١٥١).

وقال في المهاجر: ((ليرزقنهم الله رزقاً حسنا)).

فإذا مات المهاجر في السبيل الذي هاجر من أجله، ولم يعد إلى بلده بعد هجرته؛ كان حياً بعد موته كالشهيد. أما إذا عاد إلى بلده، فقد عاد إلى زرعه حين حصاده.

وقد خصَّ الله المهاجر الذي يموت – أو يقتل – في دار هجرته بهذا الجزاء، لأن الموت في الغربة أليم إلى درجة أنه لا يكافئه إلا الحياة الأبدية. فما من نكبة في الحياة إلا ويفكر المرء في ملافاتها ما دامت له بقية من عمر، أما الانقطاع عن الوطن والأقارب ساعة الموت فشيء لا يمكن التفكير في ملافاته.

من أهداف العبادات

((يا أيها الذين آمنوا ! اركعوا ، واسجدوا ، واعبدوا ربكم ، وافعلوا الخير ، لعلكم تفلحون)) . [(سورة

الحج: الآية ٧٧) .

-١-

جوهرة الإنسـان الروحية – كجوهرته الجسـدية – تحتوي على كوامن قابلة للظهور والنمو، وتحتوي على استعدادات ممكنة التكون والوجود.

فكما أن في بعض الأجسـاد كوامن للرشـاقة تعينه على الجمباز والبهلوانية، بممارسة الرياضات المثيرة لتلك الكوامن؛ وفي بعض الأجسـاد كوامن للكمال الجسـماني والصلابة تعينه على المصارعة والملاكمة، بممارسة الرياضات المثيرة لتلك الكوامن.

وكمـا أن في التراب عناصـر قابلة للتطور إلى: الذهـب، أو الفضة، أو الحديـد، أو النحاس... أو إلى الأحجار الكريمة، أو إلى الفحم الحجري، أو الغاز أو النفط...

وكما أن في الهواء استعداداً لأن ينقلب ماء أو ناراً بتغير النسبة في بعض عناصره.

وكما أن في كل شيء قابليات لتطورات معينة، واستعدادات لانقلابات معينة.

هـذه القابليات والاسـتعدادات ذاتية لا تتبـدل، كل ما هنالك: أن القابليات قد تلتقي مع فرص مناسـبة فتظهر، وقد تلتقي مع فرص معاكسة فلا تظهر. وتلك الاستعدادات ربما تتفق مع مناخات مساعدة فتتكون، وربما تتفق مع مناخات مضادة فلا تتكون.

هكـذا... في روح كل فرد قابليات معينة لا تتبدل، أقصى ما هنالـك: أن تلك القابليات قد تتوارد عليها فـرص مواتية، وتتجـاوب مع هذه الفرص وتشـجعها رياضات صحيحة؛ فتظهر. وقـد تعصف بها فرص متنكبة، فتظهر هذه القابليات إلى مكافحتها حتى تستنزف في سلبيات يائسة؛ فلا تظهر.

وفي روح كل فرد استعدادات معينة لا تتبدل، أقصى ما هنالك: أن تلك الاستعدادات ربما توفق بمناخات متعاونة، وتتناصر مع هذه المناخات وتشجعها رياضات صحيحة؛ فتتكون. وربما تجابهها مناخات متنكرة، فتضطر هذه الاستعدادات إلى التآكل معها حتى تتقلص في تراجعات يائسة؛ فلا تتكون.

وهـذا الاختلاف فـي القابليات والاسـتعدادات، يظهر – بوضوح – في اثنين يعيشـان فرصاً متكافئة ومناخات متشابهة، ثم يتكشف كل واحد منهما عن هوية تختلف عن هوية صاحبه: فيغدو أحدهما سياسياً والآخر شاعراً، أو يصبح أحدهما طبيباً والآخر مصارعاً... تماماً... كما أن جزءاً من التراب يتطور ماساً والجزء المجاور يتطور حصاة، وتماماً... كما أن نبتة في البستان تكون نخلة، والنبتة المجاورة لها تكون أقحواناً.

ولذلـك: قال النبي الأكرم (ص): (الناس معادن كمعادن الذهب والفضة) (١٥٢). ويمكن إضافة: والماس، والعقيـق، والفحم، والحديد، والنفط، والزجاج... وبعض الناس همج كالتراب البائس اليائس، لا يمرع ولا ينفع. وبعـض الناس مفرقعون كالبراكين. وبعضهم كالحيوانات السـامة، والأوبئة، والوحوش، والعقبات، والأشواك...

الـنـاس مـثـل: مـعـادن، ومـراعـي ومـجـاهـل ملعونـة الأكـراع

ومـن الـرجـال: بـهـائـم، وسـوائـم ومـن الـنـسـاء: حـمـائـم، وأفـاعـي

وعندما نزل الإسـلام لم ينزل ليغيـر طبائع الناس، وإنما نزل ليوفر الفرص الكافية للعناصر المسـتقيمة ويجعلها متكافئة مع الفرص الموفورة للعناصر الملتوية، حتى يجد كل فرد نفسـه أمام طريقين هما: طريق الخير والشر.

((وهديناه النجدين)) (١٥٣)، ولا يجد نفسـه أمام طريق الشـر فقط؛ فاتبعت العناصر المستقيمة طريق الخير، وبقيت العناصر الملتوية على طريق الشر.

وقـد أعلن النبـي (ص) – بجرأته الأدبية المعروفة – هذا الواقع فقال: (خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام، وشراركم في الجاهلية شراركم في الإسلام) (١٥٤).

فالعنصر المسـتقيم، الذي لم يكن يجد طريقه في الجاهلية وجد طريقه في الإسلام، فتأصلت استقامته. والعنصر الملتوي، الذي كان يختان نفسـه ويخون غيره في طريقه في الجاهلية، وجد نفسـه مكشوفاً على طريق الالتواء في الإسلام، فتأصل التواؤه.

وإذا كانت العناصر المسـتقيمة تمضي في مسيرتها، والعناصر الملتوية تواصل في مسارها، كما تمضي نبتة الليمون في مسيرتها حتى تكون شجرة الليمون، وكما تواصل نبتة الشوك في مسارها حتى تكون شجرة الشوك؛ فلماذا العبادات؟ لماذا كل هذه الصلوات، والزكوات، والحج، والصيام، والتسابيح، والتراتيل...؟

الجواب:

١- إنها الرياضات التي تساعد على تظهير وتنمية العناصر المستقيمة، كما أن الجسم يحتاج إلى رياضات مناسبة لتظهير وتنمية كوامنه، وكما أن كل شيء يحتاج إلى حركة معينة في مساره لتظهير وتنمية كوامنه. لأن الجمود على وضع معين لا يساعد على التفتح والنمو؛ بل يكون مساعدا على التقلص والبوار.

٢- إن الإنسان يمتاز بمرونته الفائقة. فكما أن جسمه قابل للنمو السريع والتطور النشط، بالقياس إلى الجماد والنبات والحيوان – مع الاحتفاظ بالنسبة –: فيغدو رشيقاً كالغزال، أو مترهلاً كالخروف، وصلباً كأنه هيكل من الفولاذ، أو مهترئاً كأنه من مومياءات الفراعنة، وذكياً لامعاً يتناول الناس والأرض والحياة بنظراته بذات البساطة التي يضم بها الدرهم بأصابعه، أو بليداً متجيفاً يعبث به ذباب ويوجهه طفل.

- ٢ -

١- يلاحظ وجود الحركة في العبادات الإسلامية:

فالصلاة: قيام، وقعود، وركوع، وسجود، وقنوت. والحركة سريعة، أي في كل ركعة: قيام – ركوع – قيام - سجود – جلوس – سجود – جلوس.

وفي الحج – وهو أطول العبادات –: الحركات الموضعية والانتقالية والشكلية، عديدة، ظاهرة لا حاجة فيها إلى بيان. بل الحركة فيه أكثر من أصل التوجه العبادي الشفوي: فالإحرام، والطواف، والسعي، والوقوف، والرمي... كلها حركات. وإذا استثنينا التلبية وصلاة الطواف، لا تبقى قراءة واجبة في الحج، ويتمحض في حركات متنوعة. والنوافل، تمنعه عن التمحض في الحركية.

وفي الزكاة: الحركة دائمة في الكم، فنسب الزكاة متغيرة. وكذلك: الكفارات والنذورات... والخمس: وإن كان بنسبة ثابتة، إلا أن ارتفاعه وانخفاضه بمعدلات الفائض؛ يجعل منه ضريبة دائبة الحركة.

ولعل واضعي القوانين أخذوا من الإسلام صرف الضريبة من الرؤوس إلى المعادلات المتغيرة، لأن القوانين – قبل الإسلام – كانت تفرض الضريبة على الرؤوس.

والصوم: – بطبيعته – عمل ثابت، ولكنه عمل إرادي من جهة، وتطعيمه بالمستحبات الرمضانية أدى إلى كونه عملاً متحركاً.

وأما الجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر: فهي – بطبيعتها الأولية – أعمال حركية لا مظهر

فيها للثبات، سوى المقاييس المبدئية التي تصيبها بشيء من الروتينية المملة.

والتولــي لأوليــاء الله، والتبري من أعداء الله: فهمــا وإن كانا من الأعمال الفكرية، إلا أنهما أرســلا وفق مقاييس متغيرة: فالتولي ليس لأشخاص معينين والتبري ليس من أشخاص معينين، وإنما الأول لجميع أولياء الله القدامى والجدد، والثاني من كل أعداء الله القدامى والجدد.

وهكذا... نلاحظ الحركية تطبع العبادات الإسلامية، حتى لا تصبح – على ممر الأجيال – روتيناً مملاً.

٢- الحركة لا تستأثر بالروح العبادية، فالحركة موجودة ولكن إلى جانب القراءات والتوجهات:

فمثلاً: نجد الحركات – في الصلاة – ســريعة حتى كأنها عملية رياضية، والواجب من القراءات والأذكار محدوداً، ولكن المندوب أن يطول كل من الركوع والسجود بقدر القيام.

وقد وقف النبي الأكرم (ص) على كل من الصفا والمروة بقدر السعي.

وعلى هذا المعدل، كان كل أعمال حجه.

فالحركات – في كل العبادات – تكون بالمقدار المناسب، لتنشيط الدورة الدموية، ورفع الملل.

٣- إن الأدعيــة والقراءات – في معظم العبادات – تكون عــادة في حالة القيام، كقراءات الصلاة وأدعية القنوت، بينما تكون الأذكار في الركوع والسجود غالباً.

كذلك: أدعية الحج تكون في حالات القيام، سواء في الطواف والسعي أو في المواقف والمشاعر.

وهذا... لا يعني أنها لا تجوز في غير حالة القيام، إنما يعني أنها – أساساً – شرعت هكذا... فيجوز الإتيان بها في بقية الحالات، لأنها – في الأصل – مستحبات.

٤- إن الصــلاة تبدأ قراءات، ثم تكــون قراءات تتخللها أذكار، ثم تتمحض فــي الأذكار في الركعتين الأخيرتين. شــأن كل من يناجي ربه مناجــاة القلب والعقل: فإنه يبدأ بالتحميــد والثناء والدعاء، حتى يبلغ مرحلة من مراحل التجلي التي تأخذ عليه مشــاعره، ثم يســمو ويســمو... قليلاً... قليــلاً... إلى أن تتوحد مشــاعره في اتجاه واحد، فينســى كل شيء سوى التســبيح؛ كما نجد في مظاهر طقوس المتصوفة – إن

صحت –.

- ٣ -

س: لمـــاذا الصـــلاة قراءات وحركات، وليســـت مجرد نيات، رغم أن النيات هـــي التي تتفاعل في داخل المتعبد؟

ج: النية أقوى ما يتفاعل في داخل المتعبد. ولكن ما يتفاعل في داخل الإنسان ليست النية وحدها، فكل فاعليات الجســـد والفكر تتفاعل في داخل الإنسان: ابتداء من الفاعليات الفكرية، ومروراً بفاعليات الحواس الخمس واللاشعور، وانتهاء بالفاعليات العضلية التي تتجسد في الحركات. ويكون التفاعل أقوى، إذا اجتمع الشعور: ـ الفكر – واللاشعور والعضلة على أداء عمل معين، كما هو المفروض أن يكون في الصلاة.

والقول، ينعكس على الداخل أكثر مما يؤثر في الخارج. فالذي يقول، يتأثر بقوله أكثر ممن يسمع.

والحركات:

أ) تنشط الدورة الدموية، فتحرك خلايا الدماغ للتوجه إلى الله، والتأمل فيما يقوله من قراءات وأذكار.

ب) وإذا كان المصلـــي ممـــن يتأثر بالصلاة كثيـــراً، كالنبي والأئمة – صلى الله عليـــه وعليهم أجمعين – وكذلـــك غيرهـــم من الأولياء، فإن الحركات – ربما – تخفف عنهم وطـــأة التأثر، حتى لا يصابوا بجلطة دموية. شأن من يفاجأ بخبر مؤثر، فإنه يتعرض لجلطة دموية إن لم يمارس حركات مختلفة.

ج) الحركات تمنع من الملل، خاصة: إذا أطال الصلاة، أو أكثر منها.

د) الحركات تكرس كل الأعضاء والعضلات في الصلاة، وتحرك اللاشعور للانسجام مع الشعور.

هـ) الحركات تلفت الشـــعور، وتســـتعيد الفكر الشـــارد. خاصة: بالنســـبة إلى كثير من الرعاع، الذين يمارسون الصلاة أداء للواجب، دون أن يستوعبوها أو يحاولوا التفاعل معها.

و) الحـــركات الصلاتية منســـجمة مع الأقوال الصلاتية، والأقوال إذا تناغمـــت مع الحركات تكون بالغة التأثير. ويعرف عمق هذه الملحوظة، العاملون في الذبذبات الصوتية المتناغمة مع الحركات.

الجهاد في الله

((وجاهدوا في الله حق جهاده، هو اجتباكم، وما جعل عليكم - في الدين - من حرج: ملة أبيكم (إبراهيم)، هو سماكم (المسلمين) من قبل وفي هذا، ليكون (الرسول) شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس. ف: أقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، واعتصموا بالله. هو مولاكم، فنعم المولى، ونعم النصير)). [(سورة الحج: الآية ٧٨).

-١-

((وجاهدوا))

الجهـــاد، هو تفريغ الطاقة – بتوفـــر – حتى مبلغ التضحية. لأنه من الجهد – وهـــو مطلق تفريغ الطاقة – بزيـــادة في المحتوى، وهي حتى مبلغ التضحية (١٥٥). فالجهاد، كل تفريغ للطاقة بتوفر تضحوي، مهما كان الهدف.

وليس لطبيعة الجهاد لون ديني، وإنما ينعكس عليه لون هدفه: فإذا كان الهدف حراماً كان الجهاد حراماً، وإذا كان الهدف تافهاً كان الجهاد تافهاً لا لون له – مباحاً –، وإذا كان الهدف واجباً كان الجهاد واجباً... فمن جاهد لمعاكسة الحق اجترح إثماً، ومن جاهد لمصالحه المشروعة اقترف عملاً مستحباً، ومن جاهد لإزهاق الباطـــل فعل عظيماً... ومن هنا، ورد في الحديث: (الكادُّ لعياله كالمجاهد في ســـبيل الله) (١٥٦). فالمصالح الخاصة محترمة عند الله، ما لم تقفز على حدود الله – التي هي الحدود الواقعية للصلاح –.

فالجهاد ليس هو التراشق بالسلاح في معركة فقط، وإنما هو مفهوم عام يسع كل جهد تضحوي. وليس محصوراً في حدود: زمانية، أو مكانية، أو مدلولية، أو هدفية... فإن كان الجهد الذي يبلغ التضحية بالنفس، لإحـــكام كلمة الله فـــي الأرض، أعلى مصاديق الجهاد؛ فإن ذلك لا يحصر مفهومه في حدود. فهو مســـتمر شـــامل، يجري في كل زمان، ويدخل كل بيت ومجتمع، وأينما كانت مصلحة مشـــروعة، معطلة: فالتعليم جهاد، والتربية جهاد، والزراعة جهاد، والصناعة جهاد... وأية خدمة في القطاع الخاص – أو العام – جهاد.

ومن هنا... يبدو الفارق بين الثورة والجهاد: فالثورة – غالباً – هيجة على الســـائد لتغييره، وهي لا تكون إلا بضغط وتفجر المضغوط عليه، بينما الجهاد عمل مســـتقل، قد يكون لتنمية السائد وتركيزه، كما يكون لنســـفه وتغييره؛ حســـب المصلحة التي تقرر نوعية العمل. فالثورة عمل ســـلبي والجهاد عمل إيجابي،

والثورة رد فعل والجهاد فعل، والثورة محدودة بشرائط وقتية وظرفية والجهاد مطلق (١٥٧) بلا حدود.

إنما هنالك: جهاد يهدف القطاع الخاص، وهو مستحب – ما لم يتجاوز الحدود –. وجهاد يهدف القطاع العام، وهو الجهاد في ســبيل الله – أو في الله – الذي يدعو إليه القرآن كل فرد لتحمل قسطه من المسؤولية العامة، لتكون الأمة – بكل أعضائها – متحركة نحو أهدافها العامة.

((في الله)).

فهو الجهاد الصادق الذي يستمر وينتج، لأنه نابع من عمق الإنسان نفسه، فلا يندفع بخوف من أحد، ولا يمتد بتشجيع من أحد.

وهذه الجملة، تصنف الجهاد صنفين: ففي الكثير من آي القرآن وكذا في الحديث: (جهاد في سبيل الله). وفي هذه الآية وآيات أخر: (جهاد في الله)، كقوله تعالى:

((والذين جاهدوا فينا، لنهدينهم سبلنا. وإن الله لمع المحسنين)) (١٥٨).

إذن، فالجهــاد: قد يكون في ســبيل الله، وقد يكون في الله فيؤدي إلى ســبيل الله. ولعل الفارق بعض ما يلي:

١- أن يكون دافع الجهاد وهدفه؛ هو (الله)، فيكون متمحضاً في الله، فهو جهاد في الله.

وأن يكون الدافع أو الهدف أو كلاهما، مصلحة مشــروعة في مجال القطاع الخاص أو العام، فهو جهاد في سبيل الله التي سير الله عليها الحياة، وبدونها لا تدور عجلة التاريخ، فهو جهاد في سبيل الله.

ولكنه أدنى من النوع الأول، الذي لا دافع إليه إلا إرادة الله، ولا هدف له إلا مرضاة الله.

٢- أن يكــون الجهاد منطلقاً مــن إرادة الله، ومتوخياً مرضاة الله؛ ولكن عبر الحياة: كالجهاد للنفس، أو للعرض، أو للمال، أو لأي مما ندب الله إلى الجهاد من أجله لتأمين الحياة الكريمة فهو جهاد في الله، ومن التزم به هداه الله إلى سبيله، التي هي – في صيغتها السطحية – سبل الحياة.

وأن يكــون الجهاد منطلقاً من إرادة الله، ومتوخياً مرضاة الله، عبر خط رســالي؛ فهو جهاد في ســبيل

الله. فالخطوط الرســالية سبل الله، ورسول الله سبيل الله، والعبادات سبل الله، وهكذا... فمن جاهد: في خط رســالي، أو في رســول الله، أو في الصلاة، والصيام...؛ فقد جاهد في سبيل الله. ومن جاهد في خط حياتي، لأجل التقرب إلى الله؛ فقد جاهد في الله.

٣- أن يكون الجهاد في مجال القطاع الخاص إجمالاً، فهو في الله.

وأن يكون في مجال القطاع العام إجمالاً، فهو في سبيل الله.

٤- أن يكون الجهاد لله، سواء أ كان في مجال القطاع الخاص أو العام؛ فهو جهاد في الله.

وأن يكــون الجهاد لمصلحة عامة، فهو في ســبيل الله. فـ (ســبيل الله) في التعبير الإســلامي، يســاوي (المصلحة العامة) في التعبير السياسي.

٥- أن يكون الجهاد لله، مثلاً: لإعلاء كلمة الله، أو للإيمان بالله، أو لتحطيم ما يعبد من دون الله، أو أي شيء من متعلقات التوحيد...؛ فهو جهاد في الله.

وأن يكون الجهاد لغير الله ولكن بإذن من الله، مثلاً: للدفاع عن رســول الله، أو عن المســلمين، أو لإقامة الشعائر الإسلامية...؛ فهو جهاد في سبيل الله.

وقد يكون الفارق غير ذلك – والله العالم.

((حق جهاده)).

وحق جهاد الله، منتهى الجهاد، ومطلق الجهاد؛ الذي يعلو على كل الحدود وكل القيود:

فالجهاد قد يتقوقع بالزمان: فيدور في ســاعات معينة من اليوم، وفي أيام معينة من الأسبوع، وفي أشهر معينة من السنة... فذلك، حق وظيفة الدولة.

والجهاد قد يتقوقع بالمكان: فيدور في بلده، أو في بيته، أو في مكتبه... فذلك، حق الأجير.

والجهاد قد يتقوقع بمكسب: فيدور في نطاق منافعه. فذلك حق المصلحة.

إذن: فقد يتقوقع الجهاد بقوقعات تحصره. وقد ينطلق من هذه القوقعات: فلا يفرق بين ســاعة العمل وســاعة الراحة، ولا بين يوم الدوام ويوم العطلة، ولا بين شــهر الوظيفة وشهر الإجازة، ولا يفرق بين مكان ومكان، ولا بين مكسب ومكسب... وإنما يكون مطلقاً، يفرغ أقصى طاقاته بسخاء. فذلك، حق جهاد الله.

وأراد الله للمسلمين، أن يكونوا أمام الأمم، فأمرهم بأن يعملوا بكل طاقاتهم. لأنهم إذا وفروا بعضها، فإن الحياة تنجب من لا يوفر شيئاً منها، فيكون أمامهم. كما كانوا بالأمس، وكما حدث اليوم.

((هو اجتباكم)) – من بين الأمم – لأعظم رسالة:

١- لأنكم كنتم شعباً فتياً لم تستنفد طاقاته بعد، كما استنفدت طاقات الفرس والروم – في ذلك الحين –.

٢- لأنكم تربضون في وســط العالم، فتطلون على طرق استراتيجية وممرات مائية حساسة، وتملكون ثروات طبيعية ضخمة.

٣- لأن بنيتكم البشــرية أنضج، فمناخكم المعتدل – تقريباً – يربي لكم مزاجاً معتدلاً، يمكنكم من أن تطلوا على العالم بقيادة تحمل في ذاتها عنصر البقاء والاستمرار.

٤- لأنكم آخر الأمم وأوعاها رســالياً، بينما الأمم الســابقة كانت نامية رسالياً، فما كانت تحتمل رسالة كالإسلام.

ولأسباب أخر، اختاركم نواة للأمة.

((وما جعل عليكم – في الدين – من حرج))، كما جعل الأمم السابقة: فأمر الذين عبدوا (العجل) – من بني إسرائيل – بأن يعصبوا عيونهم، ويجردوا أسلحتهم، ويقتلوا بعضهم، حتى يعفو عنهم...

وهذا الدين ليس غريباً عنكم بل هو تراثكم. فهذا الدين ((ملة أبيكم إبراهيم))، وإبراهيم نبي منطقتكم، وأبو جماعات منكم، منها (قريش).

بالإضافــة إلى: احتمال تاريخي يرى إبراهيم أبا العرب جميعاً، ويرى إســماعيل أول من تكلم بالعربية. فهذا الدين دين أبيكم إبراهيم، الذي لا تختلفون في تعظيمه واحترام دينه.

و ((هو)) الذي ((سماكم المسلمين من قبل))، في دعائه المعروف:

((ربنا! واجعلنا مسلمين لك)) (١٥٩). فمن قبل كان يسميكم مسلمين، حيث اعتبر نفسه وأصحاب دينه مسلمين. ((وفي هذا)) الذين سماكم مسلمين، لأنه دعا:

((... ومن ذريتنا، أمة مسلمة لك)) (١٦٠).

فهو سـماكم مسلمين، ((ليكون الرسول شهيداً عليكم، وتكونوا شهداء عل الناس)). فلكم تنظيم هرمي محكم يمكنكم من التوسـع والانتشار: فالرسـول قائدكم الأعلى، وهو يشكل قمة الهرم. وأنتم – أهل بيته – قاعدته الذين تتلقون منه الرسـالة والتوجيه. وكل فرد منكم قمة للناس، فالناس –المنتشـرون في الأرض – قواعد لكم. فيكون شكل الهرم هكذا:

قمة، هو الرسول.

وقاعدة أولى، هي أهل بيت الرسول.

وقاعدة ثانية، هي البشرية جمعاء.

فأنتم – أهل بيت الرسول – قاعدة للرسول، وقائدة للبشرية.

والمسـلمون الواعون – وبالتعبير الإسلامي: المسلمون الفقهاء – في كل عصر، يقومون بدور أهل بيت الرسول.

فللرسول (ص) جانبان: جانب سماوي به يتلقى الرسالة من السماء، وجانب بشري به يفرغ الرسالة على قاعدته. والرسول لم يكن يتلقى الرسالة – غالباً – من الله مباشرة، وإنما كان يتلقاها بواسطة رسول آخر هو (جبرئيل) – فجبرئيل، رسول الله إلى أنبيائه –.

ولكل واحد من أهل البيت (عليهم السـلام)، ونوابهم الفقهاء جانبان: جانب تشريعي يتلقى الرسالة من الرسول، وجانب تنفيذي به يفرغ الرسالة على قاعدته.

فكل واحد منهم، يقوم، بدور رسول، بفارقين:

١- أنه يتلقى الرسالة من الرسول البشري، بينما الرسول يتلقى الرسالة من الرسول الملكي.

٢- اختلاف المستوى النفسي: فالرسول وكل واحد من أهل بيته (عليهم السلام) بالغ درجة العصمة، وغيرهم – من الفقهاء – لم يبلغوا هذا المستوى.

أما المنصب الإلهي، فمشترك بينهما بفارق واحد، هو:

أن الرسول معين بتنصيب خاص، والمسلمون القياديون معينون بتنصيب عام.

فهذه الآية: ((وتكونوا شهداء على الناس)) مرسوم يعنى بموجبه كل المسلمين الفكريين في المناصب القيادية، فيكون من حقهم – بل من واجبهم – ممارسة المهام الرسالية.

فهذا... تنصيب عام من الله للمسلمين الفكريين، لم يعرف مثله في سائر الأديان. وإنما كان التنصيب العام في الإسلام دون سائر الأديان، لأن كل قيادة تحتاج إلى دم جديد، والدم الجديد كان متوفراً لسائر الأديان بالأنبياء الجدد، الذين كان يبعثهم الله بصورة شبه متوالية في مختلف بلاد العالم.

وحيث اكتملت رسالة السماء بالإسلام، لم تكن حاجة إلى الأنبياء الذين يعينون بالتنصيبات الخاصة. فأمد الله قيادة النبي محمد (ص) بالدم الجديد من المسلمين الفكريين، الذين عينهم بهذا التنصيب العام.

والأنبياء السابقون لم يكونوا – جميعاً – رسل الله مباشرة إلى الناس، وإنما كان بعضهم رسل الرسل: كالثلاثة الذين أخبر الله عنهم في سورة (يس)، ونسبهم إليه فقال:

((إذ أرسلنا إليهم اثنين، فكذبوهما، فعززنا بثالث؛ فقالوا: إنا إليكم مرسلون)) (١٦١).

وفي الحديث: (أنهم كانوا رسل عيسى بن مريم (ع)) (١٦٢). فكانوا رسل الله بفاصلين، هما جبرئيل وعيسى (عليهما السلام)، بينما كان بعض الأنبياء رسل الله بفاصل واحد، هو جبرئيل. صحيح أن الفاصل يعني شيئاً كثيراً، ولكنه لا ينفي المنصب الرسالي.

فكل مسلم فكري بلغ المستوى الرسالي – وهو في الإسلام الاجتهاد أو نيابته –، وأدى رسالته بإخلاص؛ قام بدور نبي. فالدور نفسه، والتنصيب موجود، وربما كان أفضل من بعض الأنبياء بمقدار فضيلة رسالة الإسلام على رسالات سائر الأديان. واستناد ذلك إلى حديثين عن الرسول الأكرم:

١- (علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل) (١٦٣).

٢- (علماء أمتي، أفضل من أنبياء بني إسرائيل) (١٦٤).

وإذا كان الحديث الثاني قد فسـر بالأئمة الاثني عشـر (عليهم السلام)، فإنه لا ينفي هذه الصفة عن بقية العلماء العاملين المخلصين. لأن الأئمة الاثني عشر أكمل مصاديق (علماء أمتي)، وكونهم أكمل المصاديق لا ينفي وجود مصاديق أخرى كاملين أو دون الكمال.

وطالما عرفتم أدواركم القيادية، فالتزموا بالوصايا التالية، فهي وصايا مركزية:

١- ((فأقيموا الصلاة))، فهي أوثق الصلات بين الإنسان وربه.

٢- ((وآتوا الزكاة))، فهي أوثق الصلات بين الإنسان والإنسان.

٣- ((واعتصموا بالله)، فتمسكوا به تمسكاً قوياً:

أمام القوي، فلا تتصاغروا له.

وأمام الضعيف، فلا تستعلوا عليه.

وفي الشدة، فلا ترتكبوا المحرمات للخروج منها.

وفي الرخاء، فلا يستخفنكم البطر لتجاوز حدود الله...

فـ ((هو مولاكم))، الذي بيده مقدراتكم ومصائركم، أمام كل الناس وفي كل الحالات. فلا تتنازلوا عن مرضاته لمرضاة أحد، ولا تغفلوه لتغيير حالة. ((فنعم المولى)) هو، فلا تغفلوه إذا وجدتم أنفسكم أمام الضعفاء أو في الرخاء، فتسول لكم أنكم في غنى عنه، فلا يستغنى عنه. ولو افترضنا المستحيل فكنتم في غنى عنه؛ فلا يجدر بكم تغافله وأياديه سابغة عليكم. ((ونعم النصير)) هو، فالجئوا إليه أمام الأقوياء وفي الشدائد: فإنه يظهركم على من يحاول استهلاككم، ويغلبكم على الظروف التي يتراءى أنها ستتغلب عليكم.

- ٢ (١٦٥) -

الجهاد، هو تفريغ الطاقة حتى مبلغ التضحية، فهو مشتق من الجهد – الذي يعني مجرد تفريغ الطاقة – بزيادة في المحتوى، وهي: حتى مبلغ التضحية.

وليس لطبيعة الجهاد لون ديني معين، وإنما ينعكس عليه لون هدفه، فإذا كان الهدف تحقيق الباطل كان (حراماً)، وإذا كان الهدف رغبة خاصة صار (مباحاً)، وإذا كان الهدف مصلحة محترمة عد (مستحباً) (١٦٦)، وإذا كان الهدف مقدساً حتمياً أصبح (واجباً) ...

فالجهاد ليس هو مجرد التراشق بالسلاح في معركة فقط، وليس محصوراً في حدود: زمانية، أو مكانية، أو مدلولية، أو هدفية...؛ وإنما هو مفهوم عام يسع كل جهد تضحوي، فالتعليم جهاد، والزراعة جهاد، والصناعة جهاد... ولئن كان الجهد الذي يبلغ التضحية بالنفس لإعلاء كلمة الله أعلى مصاديق الجهاد؛ فهو لا يحصر مفهومه في حدود معينة، وإنما هو مستمر يجري في كل: بيت، وحقل، ومدرسة، وأينما كانت مصلحة مشروعة؛ معطلة.

ومن هنا... يبدو الفارق بين الثورة والجهاد: فالثورة هيجة على السائد الفاسد لتغييره، وهي لا تكون إلا بعد كبت وانفجار. بينما الجهاد عمل إيجابي مستقل، قد يكون لتركيع الوضع الفاسد، كما قد يكون لتركيز الوضع الصالح؛ حسب المقاييس التي تقيم الواقع وتقرر المواقف. فالثورة رد فعل سلبي والجهاد فعل إيجابي، والثورة محدودة بشرائط وقتية ونوعية، والجهاد مطلق بلا حدود.

والجهاد: قد يهدف القطاع الخاص، وهو الجهاد الخاص الذي ندب إليه كثير من الحديث. وربما يهدف القطاع العام، وهو الجهاد العام الذي دعا إليه القرآن كل فرد، لتحمل قسطه من المسؤولية، حتى تكون الأمة – بكامل أعضائها – متوثبة نحو أهدافها العامة.

والجهاد العام: إذا استهدف أي شيء من متعلقات التوحيد، كنشر الإيمان وتركيع ما يعبد من دون الله؛ فهو جهاد في الله. وإذا استهدف تظهير إرادة الله في المجتمع عبر خط رسالي، فهو جهاد في سبيل الله. لأن رسول الله سبيل الله، والمجتمع الصالح سبيل الله، والنظام الصالح سبيل الله... ومن جاهد في شيء من ذلك، فقد جاهد في سبيل الله.

((وجاهدوا في الله حق جهاده)).

وحق الجهاد، منتهى الجهاد الذي يتجاوز كل الحدود والقيود. لأن الجهاد:

قد يتوقت بزمان معين، فيدور في: ساعات، أو أيام، أو أسابيع، أو أشهر... فذلك حق الوظيفة.

وربما يتحدد بمكان معين، فيدور في: مكتب، أو معمل، أو حقل... فذلك حق الأجير.

وثالثة: يتقوقع بمكسب معين، فيدور في نطاق منافع محددة. فذلك حق المصلحة.

ورابعة: يتحرر من كل هذه الأطر، فلا يفرق: بين ساعة عمل وساعة راحة، ولا بين يوم الدوام ويوم العطلة، ولا بين شهر الوظيفة وشهر الإجازة، ولا بين مكان ومكان، أو مكسب ومكسب...؛ وإنما يكون مطلقاً يفرغ كل الطاقات بأقصى ما يمكن. فذلك حق جهاد الله.

وقد أراد الله للمسلمين أن يكونوا أمام الأمم، فأمرهم بأن يعملوا بكل طاقاتهم كما كانوا بالأمس. لأنهم إذا وفروا شيئاً منها، فإن الحياة تنجب من يستعملها جمعاء، فيكون أمامهم كما حدث اليوم.

((هو اجتباكم)).

واختاركم – بين الأمم – لأعظم رسالاته:

١- لأنكم تربضون في وسط العالم، فتشرفون على طرق استراتيجية وممرات مائية بالغة الأهمية، وتملكون ثروات طبيعية ضخمة.

٢- لأن بنيتكم البشرية أكمل، فمناخكم المعتدل يربي مزاجاً معتدلاً، يمكنكم من أن تطلوا على العالم بقيادة تحمل – في ذاتها – مؤهلات البقاء والاستمرار.

٣- لأنكم نهضتم آخر الأمم – بعد أن نضج الفكر الرسالي – فأصبحتم قادرين على تحمل الإسلام.

((وما جعل عليكم – في الدين – من حرج)).

وإنما أتى بها شريعة سمحاء، فقال النبي الأكرم (ص): (رفع عن أمتي تسع: السهو، والنسيان... وما لا يطيقون، وما اضطروا إليه، وما استكرهوا عليه...) (١٦٧).

ثـــم: هذا الدين ليس غريباً عنكم، بـــل – في أصوله – تراثكم: ((ملة أبيكـــم إبراهيم)) الذي هو نبي منطقتكم، وجد أنبيائكم، ومصدر سلالاتكم.

فبعض العرب ينتمون إلى إبراهيم بالنسب كقريش، مضافاً إلى احتمال تاريخي يرى (إبراهيم) أبا العرب جميعاً، ويرى (إسماعيل) أول من تكلم بالعربية.

و((هو)) الذي ((سماكم المسلمين من قبل)) في دعائه المعروف: ((ربنا! واجعلنا مسلمين لك)) (١٦٨)، فاعتبر نفســه وأتباعه مســلمين. ((وفي هذا)) الدين؛ هو ســماكم مســلمين حيث قال في دعائه: ((... ومن ذريتنا، أمة مسلمة لك)) (١٦٩). ،فلا أصل الدين جديد عليكم، ولا اسم جديد عليكم.

وإن الله عندمــا اختاركم من بين الأمم، وســهل لكم الدين، وأورثكم رســالة إبراهيــم؛ أتاح لكم نظاماً محكماً يمكنكم من التوسع والانتشار.

وهذا النظام هرمي، قمته الرسول وقاعدته المباشرة المسلمون الواعون:

((ليكون الرسول شهيداً عليكم)). والمسلمون الواعون، قمم مباشرة للقواعد البشرية العريضة:

((وتكونوا شهداء على الناس)).

فللرســول جانبان: جانب ســماوي به يتلقى الوحي، وجانب بشــري به يفرغ الوحــي على قاعدته من المسلمين الواعين.

والرســول لم يكن يتلقى الوحي ـ غالباً ـ مباشــرة من الله، وإنما كان يتلقاه من الله بواسطة رسول ملائكي هو جبرائيل، الذي هو بدوره رسول الله إلى أنبيائه.

وللمسلمين الواعين جانبان: جانب رسالي به يتلقون الرسالة من السماء بواسطة رسول الله محمد بن عبد الله (ص)، وجانب تبليغي به يفرغون الرسالة على قواعدهم العريضة من الناس.

فكل واحد من المسلمين الواعين، رسول الله إلى الناس بفارقين:

١- الرسول الأكرم بلغ أقصى درجات الكمال الفكري والنفسي، حتى تلقاه القرآن بقوله:

((ما كان محمد أبا أحد من رجالكم، ولكن رسول الله، وخاتم النبيين...)) (١٧٠)، والمسلمون لا يبلغون تلك الدرجة.

٢- الرسول الأعظم (ص) يتلقى الوحي – غالياً – من رسول ملائكي هو جبرئيل، والمسلمون الواعون يتلقون الرسالة – دائماً – من رسول بشري هو محمد بن عبد الله (ص).

أما المنصب الإلهي فهو مشترك، بفارق واحد، هو: أن الرسول الأكرم عين بتنصيب خاص، والمسلمون الواعون معينون بتنصيب عام.

والأنبياء السابقون لم يكونوا – جميعاً – رسل الله مباشرة، وإنما كان بعضهم رسل رسول الله، مثل الرسل الثلاثة الذين أخبر الله عنهم في سورة (يس)، ونسبهم إليه تعالى، فقال:

((إذ أرسلنا إليهم اثنين، فكذبوهما، فعززنا بثالث، فقالوا: إنا إليكم مرسلون)) (١٧١).

وفي الحديث: (إنهم كانوا رسل عيسى بن مريم (عليهما السلام)) (١٧٢).

فكانوا رسل الله بفاصلين هما عيسى وجبرئيل. صحيح أن الفاصل يعني كثيراً، ولكنه لا يلغي أصل المنصب.

فهذه الآية بمثابة مرسوم يعين الله بموجبه المسلمين العدول الواعين – وهم الذين بلغوا مستوى الاجتهاد – في المناصب القيادية، فيكون من حقهم – بل من واجبهم – ممارسة المهام الرسالية.

يبقى على كل أن يحدد دوره ومكانه، فإذا أدى رسالته بإخلاص قام بدور نبي من الأنبياء السابقين. فالدور نفس الدور، والتنصيب موجود. أ وليس في الحديث عن رسول الله: (علماء أمتي، كأنبياء بني إسرائيل) (١٧٣) – في معناه العام –.

- ٣ -

الجهاد ثلاثة أقسام:

١- جهاد لله. وهو الجهاد لتحقيق أي هدف مشروع قصد به وجه الله – وإن كان الهدف دنيوياً، ما لم

يخرج من إطار الشــريعة -: فالكد للعيال جهاد لله، والســعي لصلة الرحم جهاد لله، والضرب في الأرض لطلب الرزق الحلال جهاد لله...

٢- جهاد في سبيل الله. وهو الجهاد لتحقيق أي هدف يلزم توفره في المجتمع المؤمن، في أي خط من خطوطه - وإن كان الهدف دنيوياً، ما لم يخرج من إطار الشــريعة -: فطلب العلم الديني جهاد في ســبيل الله. وطلب العلوم: الاقتصادية، والسياســية، والصناعية، والعســكرية، والتكنولوجية...؛ جهاد في سبيل الله. وصيانة الأمن، والدفاع عن الأرض، والتوسط لدى الفرقاء، والعمل في المؤسسات الإصلاحية...؛ جهاد في سبيل الله. وهكذا...

٣- جهــاد فــي الله. وهو الجهاد لتحقيق أي هــدف عقيدي - ما لم يخرج الهدف مــن مجال الفكر -: فالحوار للإقناع بوجود الله، أو عدالته، أو علمه...؛ جهاد في الله. ورد الشبهات الملحدة، جهاد في الله. وقتال أعداء الدين، جهاد في الله... وكلمة (في) لا تعطي - في هذه الإطلاقة - معنى الظرفية الوعائية، التي تجعل ما بعدها محلاً لما قبلها؛ كما يقال مثلاً: (نقاش في الطب)، وكما قال الله تعالى:

((هذان خصمان اختصموا في ربهم)) (١٧٤).

وحق الجهاد: هو الجهاد الحق، البالغ مداه. لأن الجهاد: قد يؤخذ جانبياً، كإحدى مجالات النشاط، وبجزء من الجد والاهتمام. وربما يؤخذ حاقاً مكرســاً لكل النشاط، وبأقصى ما يمكن من الجد والاهتمام. فالجهاد بالجيــش وحده جهاد جانبي، والجهاد بالأســلحة القتالية جهاد بجزء من القدرات، والجهاد بالمســاعدات جهاد ببعض الجد والاهتمام... وكلها من الجهاد الناقص. وأما في الجهاد الكامل: فيصطف الشعب والجيش معاً في جبهة عريضة، ويلتقي الفكر باليد في الإعداد والتنفيذ، ويشهر القلم مع المدفع في صدور الأعداء، وتنطلق الأرصدة والطائرات من معاقلها... ففي معارك العقيدة: كل فرد جندي، وكل شــيء سلاح... ويوضع جميع القدرات والإمكانيات - البشرية، والمادية، والمعنوية - في الساحة، مع الاحتفاظ بقياسات الملائمات والأدوار.

وحــق جهــاد الله - أي الجهاد المضاف إلــى الله -: أعلى درجات الجهاد، الذي يســتنفد الطاقات حتى المستحيل، وحتى نهاية النهايات، التي لا شيء بعدها.

فجاهدوا في الله هذا الجهاد الكامل، لـ:

١- أن الله اجتباكم، وفضلكم، ووفر فيكم - من المؤهلات والعناصر الأممية - ما تجعلكم أرقى وأمنع

الأمم. وأهم العناصر التي تؤصل الأمة، هي العقيدة.

وطالما زودكم بأصدق وأشمل العقائد، يجدر بكم أن تجاهدوا لصيانتها أصدق وأشمل جهاد. لأنه يعني الجهاد من أجل سيادتكم في الدنيا، وسعادتكم في الآخرة.

٢- أن الله ما جعل دينكم ديناً تعسفياً يكلفكم الكثير في سبيل القليل، وإنما جعل دينكم ديناً مرناً واقعياً يكلفكم القليل في سبيل الكثير. والحرج، هو الضيق الذي لا تبرره نتيجته. وأما التعب الذي تعادله النتيجة – أو تربو عليه – فليس حرجاً. وكلنا نستمرئ المشاق التي تكون نتائجها كبيرة، وإن لم تكن مضمونة، فكيف إذا كانت وفق خطط سماوية محتومة النتائج؟!

٣- أن الله لم يجعلكم أمة مرتجلة مجتثة من فوق الأرض، بل أسسكم منذ أقدم الحضارات البشرية بعد الطوفان، ومنذ أعرق الرسالات السماوية التي توارثتها الأجيال، فجعلكم ((ملة أبيكم إبراهيم)). فبمقدار ما لكم جذور في الماضي ينبغي أن تمدوا فروعكم في المستقبل، ويجدر بكم أن تتصرفوا كأمة ذات تراث ورسالة بنيت على البقاء، لا كأمة موسمية ولدتها ردود الفعل والتفاعلات الوقتية.

(٢٣)

سورة المؤمنون

مكية

وهي مئة وثماني عشرة آية

اللغو = الغناء

بسم الله الرحمن الرحيم

((قد أفلح المؤمنون * الذين – هم – في صلاتهم خاشعون * والذين – هم – عن اللغو معرضون)) .

[(سورة المؤمنون: الآيات ١ – ٣) .

هل (الغناء) مضر حتى يحرمه الإسلام؟

وإذا كان مضراً، فهل ضرره أكثر من ترويحه عن الأعصاب؟

وماذا عن الأغاني الأخلاقية... والموسيقى الروحية... التي تنمي الفضيلة في المستمع؟

قد لا نحتاج إلى الحوار حول كل ذلك، في القناعة بحرمة (الغناء)، وإنما يكفي أن ندرس: (فلسفة وجود الإنســان) في الدنيا، فإذا عرفنا أن الله أتى بالإنســان إلى هذه الحياة، للقيــام بتمارين معينة، تبلور جوهره وتنميه، فكل عمل يندمج في تلك التمارين، فهو واجب أو مستحب، وكل عمل يناقض – ولو قليلاً – تلك التمارين، فهو حرام أو مكروه.

كما أن الموظف، يؤتى به إلى مكتبه، لأداء أعمال معينة، واســتقبال الضيوف عمل اجتماعي مســتحب، ولكن: استقبال الموظف للضيوف في مكتبه، عمل ينافي مسلكية الوظيفة، فيعتبر إهمالاً يعاقب عليه.

فعلينا: أن لا نقيم العمل بمفرده، وكأنه عينة نحللها بموضوعية، وإنما يلزم أن نقيمه في وضع الإنسان، الذي جيء به إلى هذه الحياة، لأداء وظيفة معينة: فكل ما يخدم تلك الوظيفة، فهو حسن. وكل ما يلفي تلك الوظيفة، فهو قبيح.

ولذلك: عندما يعرض القرآن الخمر والميسر، يعترف بأن فيهما منافع للناس، ولكنه يضيف بأن إثمهما أكبر من نفعهما، فيقول:

((يســألونك عن الخمر والميسـر، قل: فيهما إثم كبير، ومنافع للناس، وإثمهما أكبر من نفعهما...)) (١٧٥)، فمجــرد المنافع لا يصلح دليــلاً للحكم عليها إيجابياً. كما أن القرآن يعترف – في معرض الحديث عن بعض الامتحانات – بأن فيها نقصاً في: الأموال، والأنفس، والثمرات، ولكنه يضيف: وبشــر الصابرين، لأنها مضرات يلزم تحملها، لأداء وظيفة الإنسان في الحياة، فيقول:

((ولنبلونكم بـ: شــيء من الخوف، والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات. وبشــر الصابرين ۞ الذين – إذا أصابتهم مصيبة – قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون ۞ أولئك: عليهم صلوات – من ربهم - ورحمة. وأولئك: هم المهتدون)) (١٧٦)، فمجرد المضرات لا يصلح للحكم عليها.

إذن: إنما يلزم دراســة كل شــيء من جميع جوانبه، وأهمها: علاقته بهدف الإنسان في الحياة، وذلك: من أجل تقييمه، ثم: الحكم عليه.

ضرورة المنطق المتنوع

((– قل :

لمن الأرض؟ ومن فيها ؟ إن كنتم تعلمون *

– سيقولون :

لله . قل : أفلا تذكرون؟ ! *

– قل :

من رب السماوات السبع؟ ورب العرش العظيم؟ *

– سيقولون :

لله . قل : أفلا تتقون؟ ! *

– قل :

مَن بيده ملكوت كل شيء؟ وهو : يجير ، ولا يجار عليه؟ إن كنتم تعلمون *

– سيقولون :

لله . قل : فأنى تُسحرون؟ ! *)) .

[(سورة المؤمنون : الآيات ٨٤ – ٨٩) .

١- الحياة: ماديات وطاقيات.

والماديات، هي التي تدرك بإحدى الحواس الخمس: الباصرة، والسامعة، والشامة، والذائقة، واللامسة.

والطاقيات، هي القوى التي تتفاعل مع الماديات، ولكن: لا تدرك بالحواس الخمس، أو: لا تدرك إلا بآثارها، كـ: الروح، والعقل، والجاذبية...

٢- الماديات وليدة من الطاقيات، فالطاقيات هي المخلوقات الأولية، والماديات هي المخلوقات الثانوية.

وإذا استعرضنا أكثر الماديات في عالمنا، وجدناها مخلوقات من: آكام من موجات النور، أو من موجات الظلمة. لأن موجات النور وموجات الظلمة، تسير بسرعة هائلة مدة طويلة، ثم: تقل فاعليتها فتبطئ، وأخيراً: تتوقف. وبفعل التجانس، تتحيز موجات النور إلى مثيلاتها، وموجات الظلمة إلى مثيلاتها، وتتراكم. وباختلاف موجات النور يحدث بينها تفاعل جديد، وباختلاف موجات الظلمة يحدث بينها تفاعل جديد، فتتولد عناصر كثيفة، متناهية الصغر، ومختلفة باختلاف الموجات التي تولدت منها.

ثم: تحدث تفاعلات بالغة الدقة والتعقيد، فتتولد منها: (العناصر الست والتسعون) المعروفة، التي تتركب منا الأشياء، من: النجوم، والكواكب، وما عليها...

٣- الطاقيات هي المسيطرة على الماديات: فالروح مسيطرة على الجسم، والجاذبية تتحكم في الموجودات الأرضية، والنسبية العامة تشد الأجرام الفضائية بأبعاد متناسبة. وقد نتوسع إلى القول: إن جميع الماديات خاضعة لمقاييس غير مادية، لضبطها، وتوجيهها إلى مسيرتها التكاملية.

٤- الطاقيات المسيطرة على الماديات، ملكوتها: فالروح ملكوت الجسد، والجاذبية ملكوت الموجودات الأرضية. وملكوت المتحركات الآلية، هو: الطاقة التي تحركها، من: بخار، أو كهرباء، أو ذرة... وملكوت السماء: سر ملك الله للسماء، ويقال: في الملكوت، أي: في سر الملك.

فملكوت الملك: سر الملك ووسيلة الاستيلاء. مثل: (الرهبوت) الذي هو: الشيء الذي تتولد منه الرهبة، و (الجبروت) الذي هو: السر الذي يتم به جبر الأشياء.

ولذلك، قيل: الجبروت فوق الملكوت، والملكوت فوق الملك.

ويـــدل على ذلك، قولهم: الملـــك والملكوت، فالملك – بضم الميم – ج: أمـــلاك وملوك: ما يملكه الإنسان، ويتصرف به. بينما الملكوت، فهو: الرمز الذي به يتحقق الملك.

❁ ❁ ❁

ثم، إن الناس ثلاثة أصناف:

١- الناس العاديون، الذي تدور اهتماماتهم على معائشهم.

٢- الملوك والرؤساء، الذين ترتكز جهودهم على: الفتوحات، والقضايا الدولية.

٣- المرتاضون والســحرة، الذين تتصرف توجهاتهم إلى: التعامل مع الروحانيات، والقوى الخفية، كـ: الملائكة، والجن، والأرواح، والشياطين.

❁ ❁ ❁

وأنـــت يا محمد!، حاور كل صنف – من هذه الأصنـــاف – بالمنطق الذي يقنعه، ولا تنطلق من موقعك الرفيع إليهم – جميعاً – بمنطق واحد، لأن الذوق الفكري – كالذوق المادي – يرشح من روحية خاصة، لا تتفاعل إلا مع ما يلائمها.

فـ ((قل)) أنت – ومن وراءك من المؤمنين – للصنف الأول، أي: للناس العاديين، الذين يرهقون أنفسهم – ليل نهار – لتأمين حاجاتهم الخاصة، ثم: يعودون من معترك الحياة – في ســاعات الراحة – إلى أنفســهم ليواســوا آلامها، ويهدئوا نقمتها على النواقص والأخطاء، فتبقى ثائرة عليهم، ويشــعرون بالعجز والقصور عن تأمين أنفسهم.

ضع هؤلاء، أمام ما لا يطمحون إليه، وتساءل:

((لمن الأرض؟ ومن فيها؟)).

فالأرض ومن فيها – بالنســبة إلى مســتوياتهم – أمر فوقي، بعيد جداً، لا يحلمون به، وربما لا يفكرون فيه. ولكن: اعطف أفكارهم إليه، واستفززهم، حتى يحاولوا التفكير حوله – على الأقل –:

((إن كنتم تعلمون)).

وكل إنسـان يحب التظاهر بالعلم ورد الجهل، فيضطـرون إلى التفكير والإجابة، ولا يجدون حرجاً من الاعتراف بالحق فيما هو خارج عن مداراتهم.

فـ ((سيقولون: لله)). وعندئذ: تجد الاعتراف الذي تستطيع الاعتماد عليه، لتشديد النكير عليهم.

فـ ((قل: أ فلا تذكرون؟!)).

وأما الصنف الثاني من الناس، أي: الملوك والرؤساء: فلا تكون حجتك بالغة إذا قلت لهم:

((لمـن الأرض؟ ومن فيها؟))، لأنهم قد تأخذهـم العزة بالإثم، فيقولون: (لنا: الأرض، ومن فيها)، وقد يتواضعـون، فيقولون: (لله). ولكن: (الأرض، ومن فيها ظاهـراً، والله يملك الأرضومن فيها) واقعاً في مدى مطامحهم، ولا يتصاغرون إذا عرفوا أن (الأرض، ومن فيها) لله، لأنهم يملكون (الأرض، ومن فيها) واقعاً، ولعلهم لا يشعرون بذلك الفاصل البعيد بين من يملك الأرض ظاهراً وبين من يملكها واقعاً، فلا يبهرهم هذا المنطق وأنت تجد – لهم – منطقاً آخر، أقوى وأعلى، يضعهم أمام ما لا يطمحون إليه، فـ ((قل:)) – لهم – ((من رب السماوات السبع؟ ورب العرش العظيم؟))، فالسماوات والعرش – بالنسبة إلى مستوياتهم – أمر فوقي، بعيد جداً، لا يحلمون به، وربما لا يفكرون فيه. وخاصة: عندما تسألهم : (رب السماوات والعرش)، لا عـن: (ملك السـماوات والعرش)، لأنهم يعتبرون الملك من نوعهـم – وإن كان أعلى منهم بكثير – فإذا طرحته عليهم بهذه الصيغة، فإنك تفاجئهم بما لا يسـتطيعون حتى ادعاءه استعلاء أو مغالطة، فسيضطرون إلى الاعتراف بالحق، و ((سـيقولون: لله)). وإذا انتزعت منهم هذا الاعتراف فأحكم عليهم حجتك و((قل: أ فلا تتقون)) الله الذي هو رب السماوات والعرش؟!

وأمـا الصنف الثالث من الناس، وهم: الذين يتعاملون مع الروحانيات، والقوى الخفية: فإنهم – على أثر الرياضات القاسية – يتحلون بشيء من الشموخ الفكري، وتتسامى مطامحهم عن الماديات – حتى ولو كان طريقهـم باطلاً – فإذا قلت لهم: ((لمن الأرض؟ ومن فيها؟))، أو: ((من رب السـماوات؟ والعرش؟))، فإنك لا تهزهم بمقدار ما لو طرحت عليهم سـؤالاً عن القوى الخفية، التي استهلكوا أعصابهم... وأعمارهم... في تسخير شيء منها، ففشلوا، أو نجحوا نجاحاً ضئيلاً. فـ ((قل:)) – لهم – ((من بيده ملكوت كل شيء؟))، لأنك تصدمهم عندما تذكرهم بـ: ((ملكوت كل شيء))، فيتضاءلون، ولا يجدون حرجاً في الاعتراف بـ: أنه ليس بأيديهم، ولا يمكن أن يكون بأيدي البشر.

ثم: إنهم يعملون لإنقاذ مســحور، أو مغالبة ساحر. فواصل سؤالك عنهم، ((و)) قل لهم: من ((هو)) الذي له القدرة المطلقة في مجال القوى الخفية، فـ ((يجير، ولا يجار عليه)) أبداً؟ واستفززهم بقولك: ((إن كنتم تعلمون)) شيئاً عن قضايا الروحانيات.

وعندئذ: لا يجدون بداً من الاعتراف بالحق، و ((سيقولون: لله)). فإذا أخذتهم إلى هذا الاعتراف، تستطيع أن تشدد الوطأة عليهم، وأن تؤنبهم بأنكم – أنتم الذين – تسحرون الناس بما تدَّعون من تعاملكم مع القوى الخفية، فكيف استحوذ عليكم المشعوذون؟! و ((أنى تسحرون)) عما هو من مجالات اختصاصكم؟!

(٢٤)

سورة النور

مدنية

وهي أربع وستون آية

التوبة

((إلا الذين تابوا – من بعد ذلك – وأصلحوا ، فإن الله غفور رحيم)).[(سورة النور : الآية ٥).

العصيان: نزوة الشذوذ التي تستخف بإنسان، فتخرج به عن الخط الصحيح في الحياة. والتوبة: هي العودة إلى ذلك الخط.

والعودة: عمل تصحيح يلافي ما فات، وليست مجرد شعور عابر لا يؤدي إلى عمل.

فالشـعور بالخطأ: يسـبق العصيان ويرافقه ويعقبه، لأن العصيان هو المخالفـة مع العلم بها، والإصرار عليها بإرادة مستقلة.

وأمـا نوبة المرارة: التي تصطدم العاصي لدى تذكر العصيان، أو توقع نتائجه؛ فليسـت توبة تؤدي إلى الغفـران. فما من مجرم إلا وتجتاحه نوبات عارمة من النـدم المرير كلما خلا بضميره، وترتفع درجة الندم بارتفاع درجة الجريمة، حتى تبلغ درجة الانهيار أو الجنون.

وليس توبة، وإنما هو الانتفاض بموجة الندم عند المعصية. ولا ينفضها إلا إصلاح ما أفسدته المعصية. فتصحيح الخطأ يغفره ويستره، وأما مجرد الاهتزاز بالخطأ فلا يغفره.

ثم: إن الله لا يغفر الحق العام، ما دام الحق الخاص قائماً لم يغفره العاصي، بإعادته إلى مجراه. فإذا غفر العاصي الحق الخاص عملياً، غفر الله الحق العام لمن يشاء، وفق المقاييس الدقيقة، التي سنها لقبول التوبة والعفو عن السيئات.

حديث الإفك

((إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم، لا تحسبوه شراً لكم، بل هو خير لكم...)). [(سورة النور، الآية ١١)].

١- الدفـاع – في هذه الآية – ورد بمجرد التعبير بـ: (الإفك) فقط، ولم يرد كما ورد بالنسـبة إلى مريم ابنة عمران:

((ومريـم ابنة عمران: التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا، وصدقت بكلمات ربها وكتبه، وكانت من القانتين)) (١٧٧).

((يا أخت هارون! ما كان أبوك امرأ سوء، وما كانت أمك بغياً ۞ فأشارت إليه. قالوا: كيف نكلم من كان في المهد صبياً؟! ۞ قال: إني عبد الله...)) (١٧٨).

ولا كما ورد بالنسبة إلى النبي – عندما اتهم بإغلال قطيفة –:

((ومـا كان لنبـي أن يغـل، ومن يغلل يأت بما غل يـوم القيامة، ثم توفى كل نفس ما كسـبت وهم لا يظلمون)) (١٧٩).

ولا كالدفاع عن يوسف:

((... كذلك: لنصرف عنه السوء والفحشاء، إنه من عبادنا المخلصين)) (١٨٠) (١٨١).

٢- تهوين وقع التهمة:

أ) بأنها ليســت دخيلة على المســلمين من غيرهم، حتى يتعاون المســلمون جميعاً لدفعها، وإنما وجهت من قبل بعضكم.

ب) إن هذه التهمة غير صحيحة، فهي: (إفك)، ولكنه يستحب – اجتماعياً – أن يكون مثل هذا الإفك موجوداً – لأسباب كثيرة –:

((لا تحسبوه شراً لكم، بل هو خير لكم)).

٣- العفو في بعض القوانين – كالقانون العراقي – على قسمين:

عفو خاص: ويعني: إسقاط العقاب على جريمة، بعد التسليم بأن العمل الصادر – من المعفو عنه – كان جريمة بالفعل.

والعفو العام، ويعني: ســلخ صفة الجريمة من الجريمة، أي: عدم اعتبارها جريمة في الأساس، لا إسقاط العقاب عليها.

والعفو – ســواء الخاص أو العام – لا يصح أن يصدر إلا ممن له صلاحية إصداره، وهو الملك أو رئيس الجمهورية لا غير.

وإذا كان الملك أو رئيس الجمهورية يصدر العفو الخاص والعام، فماذا يمنع أن يكون الله قد أصدر عفواً عاماً – في هذه الآية – فاعتبره غير إفك وإن كان في واقعه إفكاً بالفعل.

ظلمات المشرك

((أو كظلمات في: بحر، لجي، يغشاه موج، من فوقه موج، من فوقه سحاب. ظلمات بعضها فوق بعض. إذا أخرج يده لم يكد يراها. ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور)). [(سورة النور: الآية ٤٠)].

هذه الآية تحتوي – فيما تحتوي – على جزأين:

١- ((أو كظلمات في: بحر، لجي...)).

٢- ((ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور)).

في الجزء الأول: تشبيه للظلمة النفسية، التي يتخبط فيها المشرك، بأقصى ظلمة مسرفة توجد في الأرض، وهي الظلمة الموجودة في أغوار البحار العميقة.

ذلك: أن الأرض لا نور لها، وإنما نورها مكتسب من الشمس، وسائر النجوم، التي يصل ضوؤها إلى الأرض. وأضواء الشمس والنجوم، تصل إلى الأرض بقوة: فإذا حجبها السحاب، امتص جزءاً كبيراً منها. فإذا وصلت إلى مياه البحر، امتصت جزءاً آخر. فإذا تراكمت المياه آلاف الأمتار، حجبت الأضواء، إلا جزءاً من مليون جزء لا يجدي على الإطلاق. فإذا تحرك الموج على سطح البحر، حجب الموج جزءاً آخر. وإذا تحرك التيار تحت سطح البحر، حجب الضوء تماماً، فلا يصل إلى أغواره النائية أي جزء علمي من الضوء.

وعادة: يتحرك الموج على سطح البحر، ويتحرك التيار تحت سطح البحر لمسافة معينة، وأما في الأغوار النائية فالماء راكد هادئ.

ويصور القرآن (بحراً لجياً) عميقاً، لا تصل إلى غوره حركة التيار. ثم يصور إنساناً، في ذلك القاع البعيد. ثم يصور الحواجب التي تحجب عنه الضوء، وهي – بالنسبة إليه –: حاجب الماء، وحاجب حركة التيار، وحاجب حركة الموج، وحاجب السحاب.

وخص التيار والموج، مع أن كثافة الماء كافية لحجب الضوء، لأن الماء الهادئ لا يحجب الضوء بمقدار ما يحجبه الماء المتحرك، فالحركة في الأجسام الشفافة تساعد على بعثرة موجة النور واستهلاكها.

فالإنسان الذي يكون في مثل هذا الغور، ((إذا أخرج يده)) من جنبه إلى محاذاة عينيه، ((لم يكد يراها))، لفقدان إمكان الرؤية بسبب فقدان مادة النور. وإذا عجز عن رؤية يده المواجهة لواجهة عينيه، فهو أعجز عن رؤية الأشياء الأخرى. هكذا... المشرك، لا يستطيع أن يتبين أقرب الأشياء إليه، لفقدانه نور السماء، وإنما يعتمد على نظريات متحركة متناقضة، لا يمكنه التأكد من صحتها. فيما المؤمن، الذي يعتمد على نور السماء، يستطيع أن يتعرف – من مصادر الوحي – على الخطوط العريضة للحياة، وأن يتخذ منها أرضية ينطلق منها في اتجاه الأمور الفرعية.

وفي الجزء الثاني من الآية: بيان لحقيقة واضحة، وهي أن الإنسان يعيش في داخله أكثر مما يعيش في خارجه: فالذي يجد في أعماقه بذور المعرفة، يمكنه الاستعانة بالعلوم المعروفة لتوسيع معارفه. والذي تتحرك في قرارة نفسه نشوة السعادة، يستطيع أن يستعين بمباهج الحياة، لنشر تلك النشوة على حياته.

وأما الذي تكون الظلام في نفسه، فلا يمكنه الاستهداء بأنوار الحياة.

والمشرك الذي ليس له من النور بمقدار ما يدله على الله، وهو أجلى وأكبر من جميع الحقائق مجتمعة، فنفســه خلاء، وأنوار المعرفة المقتبسة من: (سواد على بياض) لا تدله على الحقائق الرفيعة للكون والحياة والإنســان، فيعيش بحواســه، المحدودة – كالأعمى في معرض الفنون البصرية – حتى يســتنفد هوسه من الشهوات ثم يستسلم للموت، بالانكماش على نفسه أو بالانتحار.

النور الإلهي

((. . . من لم يجعل الله له نوراً فما له من نور)) .[(سورة النور : الآية ٤٠) .

هنالك: أشــياء يعيشها الناس، فتكون لهم انطباعات جاهزة عنها، بحيث لو سمعوا أسماءها، استحضروا تلك الانطباعات، وتفاهموا على صعدها.

وهنالك: أشــياء أخرى، لا يعيشــها إلا أفراد معدودون، فلا يملك غيرهم انطباعــات جاهزة عنها حتى يملكوا التفاهم على صعدها، ويحملهم الغرور على عدم الاعتراف بها، بينما هي أشياء واقعة.

ومن هذا النوع من الأشياء: (النور الإلهي) الذي ينير الله به القلوب الطاهرة، فتتفتح بوعي مشرق معطاء، يعبــر عنــه بعض بالعبقرية ويعبر عنه آخــرون بالتفوق، وما هو إلا موهبة ســماوية، يبحث عنها أناس في الكتــب، ويبحث عنها آخرون في الجدل العقيم؛ فلا يجدونها. ففي الكتب معلومات محترمة، وفي الجدل – مهما كان مخلصاً – صراع فكري. ولكن النور الذي ينير الآفاق القاتمة، فيخرج منه الإنسان بأشياء، غير معروفة لدى الآخرين فيسمونها إبداعاً؛ هذا النور، ليس في كتاب ولا في جدال، وإنما هو موهبة خاصة من السماء. والذي لم يهبه الله هذا النور، لا يجده في أي مكان، لأن مصدر النور هو الله وحده:

((ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور)).

الصلاة الكونية

((ألم تر؟ ! أن الله يسبح له من في السماوات والأرض ، والطير صافات . كل قد علم صلاته وتسبيحه والله

عليم بما يفعلون)) .[(سورة النور : الآية ٤١) .

ما هو مفهوم الصلاة؟ وما هو التسبيح؟ وما هو السجود؟ في التعبير القرآني، حتى تشمل الإنسان، والحيوان، والجماد...؟

في اللغة: الصلاة: الدعاء، والنداء، والطلب.

والتسبيح: التنبيه.

والسجود: غاية الخضوع.

وإذا كان هذا... مفهوم الصلاة والتسبيح والسجود: فكل شيء يصلي، لأنه يدعو، وينادي، ويطلب القدرة الكونية التي تنميه، وتمده بالقدرة على الاستمرار. وكل شيء يسبح، فينبه إلى وجوده، ويدافع عنه، بأسلوبه الخاص الذي ألهمه الله تعالى، للتعبير عن وجوده، وللدفاع عنه. وكل شيء يسجد، لأن له غاية الخضوع للنظام الكوني، الذي سخر الله كل شيء له.

فالرعد ينبه إلى وجوده. والشمس والقمر يسجدان – رغم كبرهما، وارتفاعهما – لأنهما يخضعان، خضوعاً مطلقاً ودقيقاً، للنظام الكوني. والطير – صافات محلقات في الجو – تصلي، فهي بطيرانها تكسب من طاقات الكون، وتنميها في وجودها.

وحتى الملحد بالله، بوجوده الروحي والعضلي، يصلي، فيستمد الطاقة، ويخضع خضوعاً مطلقاً لنظام الله في الكون، وينبه إلى وجوده، ويدافع عنه. حتى بحركته الكفرية، يصلي ويسجد ويسبح.

إن الملحد، بخفقات قلبه، بدورته الدموية، بتقلصات وتفتحات رئته، بتلويات معدته، بإفرازات غدده، بحركات خلايا جسمه... بكلها... ينفذ إرادة الله، وبكلها يطبق نظام الكون. وحتى إذا قال: (أنا لا أؤمن بالله). فبحركة لسانه، وأسنانه، وحنجرته، ورئته، وعضلات فمه... يطبق نظام الكون، فهو يسجد لله.

إن الطير، بحركات أجنحتها، وبصفيف ريشها، تنفذ إرادة الله، وتطبق نظام الكون. فهي ساجدة لله.

لأن إرادة الله تتمثل في نظام الكون الاختياري وغير الاختياري، وهو دين الله في الكون، غير أننا تعودنا

أن نسمي مقدار الاختياري منه بالدين. فمن انحرف عن خط الله في الجزء الاختياري منه، لا يمكنه أن ينحرف عن خط الله في الجزء غير الاختياري منه. فيبقى منفذاً لإرادة الله، ومنسجماً مع خط الله، وملتزماً التزاماً إجبارياً بدين الله.

ولعل إلى ذلك، يشير الإمام (ع) – عندما سئل عن الجبر والتفويض – بقوله: (لا جبر ولا تفويض، بل أمر بين الأمرين) (١٨٢).

فالدين: لا جبر مطلق، ولا اختيار مطلق: بل قسم منه جبر، وقسم منه اختيار. فهو أمر مركب من الأمرين معاً.

أما إذا خرج شيء عن نظام الكون، الذي هو نظام الله في الوجود، ولم ينبه إلى وجوده، ولم يستمد الطاقة من الله؛ فهو كافر قد حجب على نفسه بالموت، وهو غريب عن الكون والوجود، لا بد من استهلاكه في موجودات تصلي وتسجد وتسبح. وهكذا... يتطور كل شيء ميت إلى أشياء حية، تعمل أعمال الموجود الحي، التي هي الصلاة والسجود والتسبيح.

فكل شيء يؤدي واجبه الوجودي، في صلاة وسجود وتسبيح. وعلى هذا المفهوم الواسع الدقيق، فكل موجود يمارس وجوده فهو عبادة الله، والكون هو المحراب الكبير الذي لا يغيب عنه شيء لحظة واحدة، إلا إذا مات، فيطرد من محراب العبادة إلى موقف العقاب والثواب.

فاستمرار الموجود في وجوده عبادة، لأن حركة الوجود عبادة، فيها: الاستمداد الكوني، والالتزام بالنظام، والتدافع الوجودي أو تنازع البقاء.

ولكن الاستمرار الوجودي، ليس حركة نحو الأعلى والأفضل. إن الحركة التصاعدية نحو الكمال، تحتاج إلى عمل من نوع آخر. تحتاج إلى تكريس مطلق أمام مصدر الوجود ومصدر الطاقة. تحتاج إلى الصلاة الروحية والعضلية، التي هي عمود الدين. والصيام: تكريس مطلق، من نوع آخر، أمام الله. والحج: تكريس مطلق، من نوع ثالث، أمام الله. وهكذا... فكلها لازمة، حتى يكون الإنسان ملتزماً بالدين كله، القسم الاختياري والقسم الإجباري منه معاً. فالدين حركة نحو الكمال، فيحتاج إلى حركة عمودية ترفع نحو الأعالي، ولا تكفيها الحركة الأفقية الطبيعية الرتيبة، التي لا تساعد إلا على الاستمرار.

وهكذا... الصلاة الكونية لا تغني عن الصلاة العبادية. وهكذا... السجود الطبيعي لا يكفي عن السجود الإرادي. وهكذا... التسبيح الشرعي. والعبادة الذاتية في محراب الكون الكبير، لا تؤدي دور العبادة الدينية

في محراب المسجد البسيط.

سعادة الإنسان مقدمة لتكامل الإنسان

((وعد الله الذين آمنوا - منكم - وعملوا الصالحات:

ليستخلفنهم في الأرض، كما استخلف الذين من قبلهم.

وليمكنن لهم دينهم، الذي ارتضى لهم.

وليبدلنهم - من بعد خوفهم - أمناً؛

يعبدونني، لا يشركون - بي - شيئاً.

ومن كفر - بعد ذلك - فأولئك هم الفاسقون)).

[(سورة النور: الآية ٥٥).

ما هو الهدف؟

سعادة الإنسان أو تكامل الإنسان؟؟

هنالك من يقول: (إن الإنسان وجد بطريقة ما، والهدف - الآن - هو تأمين سعادة هذا الإنسان بأية طريقة كانت. والأنبياء كانوا مجرد مصلحين، وضع كل واحد منهم منهجاً متناسباً مع مستواه لإسعاد الإنسان، واستفادوا من غريزة العبادة: فأطلقوا على أنفسهم لقب الأنبياء، وأطلقوا على مناهجهم اسم الأديان. والملائكة ليسوا إلا القوى الإيجابية، والشياطين ليسوا سوى القوى السلبية، والجنة ليسوا سوى القوى الخفية العاملة في الظلام، والله ليس غير روح الطبيعة.

ومن هنا: نجد أن الله الذي كان - في تعبير موسى - النور الذي تجلى له وحده على جبل سيناء، وامتنع أن يظهر لغيره؛ توسع - في تعبير المسيح - فكان: (أبانا الذي في السماء)؛ ونزل من سمائه - في تعبير محمد - فأصبح: (أقرب إليه من حبل الوريد). وهو ليس - في الواقع - ذلك (السبوح القدوس)، وإنما

هو روح الطبيعة، المتعايشـــة مع الناس على مائدة الطعام، وفي الحقل، والمعمل، والســـوق، والطريق، والمدرسة...

والجنة التي بشر بها الأنبياء، هي الحياة الرغيدة، التي يحظى بها الإنسان عندما يسيطر على قوى الشر، وتكتمل الديموقراطية.

والجحيم، هو الحياة الملوثة بالديكتاتوريات، والفقر، والجهل، والمرض...).

(وكل تاريخ الأنبياء والأديان، ليس ســـوى أســـاطير رتبها الأنبياء، للاستفادة من غريزة العبادة في إطلاق الطاقات، من أجل تأمين الســـعادة للإنســـان. فمن أمَّن أكبر قسط من الســـعادة للناس، كان أفضل ولو كان ملحداً. ومن لم يؤمِّن السعادة للناس، كان تافهاً في منطق الحياة، مهما عد في منطق الأديان. حتى يمكن أن تضع كلمة: (الله) مكان كلمة: (الناس)، وبالعكس، فلا فرق أن نقول: في سبيل الله، أو في سبيل الناس).

(فالهدف هو ســـعادة الإنســـان، ما دام الإنســـان قد وجد. ولا مبرر للحديث عن: طريقة وجوده، وفلسفة وجوده. كما لا مبرر لتكبير الفرد أكثر من اعتباره أداة في معمل أو عضواً في جسم، يحسب له حسابه بقدره في المجموع، لا كياناً مستقلاً متعاملاً مع مجموعة كيانات مستقلة).

ولكن:

١- لا يمكن تحديد الهدف من الإنســـان إلا بعد اســـتيعاب الفلسفة العامة للحياة، لأن الإنسان لم يوجد وحده، وإنما وجد حلقة في سلسلة حياتية لم يعرف الإنسان – بعد – إلا بعض حلقاتها.

٢- ثم: كيف يمكن تحديد هدف الإنسان؛ إذا تجاوز طريقة وجوده، وفلسفة وجوده؟!

٣- إن الجمود على التفسير المادي للحياة، ومحاولة إرجاع القوى الغيبية إلى القوى المادية المتعايشة مع الإنسان؛ تحجير على العقل، وتجهيل للإنسان، حتى لا ينطلق إلى الآفاق الرحيبة المحيطة به.

إن كل المخترعيـــن والمفكرين، هم الذين قفزوا فوق الجدران التي كانت تحتويهم. وما بعث الأنبياء إلا ليركزوا على الإيمان بالغيب، حتى لا يبقى الإنســـان قاصراً ضمن حدوده اليومية، ويبلغ رشـــده، فيتحدى حدوده جســـمه، وبلده، وقومه، وأرضه... ويطمح بفكره إلى الآفاق البعيدة... البعيدة... ويعلم: أن وراء كونه ألف كون... وكون... ووراء آدمه ألف آدم... وآدم... ووراء المادة ما وراءها.

إن أكبـر كارثة أصابت الفكر البشـري – في تاريخه –، وأرجعته ألف قرن إلـى الوراء؛ هي المحنة المادية، التي تضغط كل آفاق الإنسـان وامتداداته، وتحبسها في: جسـمه، وخبزه، ويومه... ليكون أداة في معمـل، لا فرداً متحركاً في مجتمـع، فيمكن الطواغيت منه، حتى يعاملوه لا كإنسـان ولا كحيوان، وإنما كأداة، مجرد أداة صماء، تتحرك بإرادة مسيرها، ولا تملك من: أمرها، واتجاهها، ومصيرها... شيئاً.

وقد وضعت هذه الأفكار كلها، لسـلخ الأفراد من إرادتها، وتجريدها من حريتها، حتى تسـخر بقناعة، دون أن تحلم بالإرادة والحرية.

وما بعث الأنبياء إلا ليعيدوا إلى الإنسان إنسانيته، ويحرروا عقله وإرادته:

((... ويضـع عنهم إصرهم، والأغلال التي كانت عليهـم...)) (١٨٣)، حتى يأخذ كل فرد محوره ومداه، ويتحرك بوحي ضميره في طريق التكامل.

صحيـح: أن الفرد لا يطيق التحرك الطولي ما دام مشـدوداً بموقعه، يفكر في: خبزه، وثقافته، وحريته... ولا يستطيع التحليق فوق واقعه ما دامت حاجاته الجسمية معطلة: ولذلك: أمر الله، ودعا الأنبياء، إلى إسعاد الإنسان، وإعداد المناخ النفسي المناسب له، لا هدفاً، وإنما وسيلة لتحريره من حاجاته، حتى يتفرغ لهدفه، وهو: تكامله، الذي لا يكون إلا باتصاله بالغيب المطلق، وهو: الله – سبحانه وتعالى –، عن طريق العبادة.

فالتكامل المادي وسيلة، في عرض القرآن الكريم، لمسير الواعين العاملين من الناس في الحياة:

فقد ((وعد الله الذين آمنوا – منكم – وعملوا الصالحات))، وعدهم إذا تابعوا المسير بلا تردد أو تلكؤ: ((ليسـتخلفنهم في الأرض))، فيعيدهم إلى مكانهم الطبيعي في قيادة البشـرية، ((كما استخلف الذين من قبلهم)) ممن آمنوا وعملوا الصالحات، فنقل إليهم السلطات الزمنية، بعد أن استأثر بها الماديون المتسلطون. ((و)) يحـرر عقولهم وإرادتهم، ليتابعوا الخط الذي آمنوا به بحرية العقل والضمير: ((ليمكنن لهم دينهم، الذي ارتضى لهم)). ويمنحهم الحرية التي صودرت منهم بأسـاليب وفلسفات مختلفة، ((وليبدلنهم – من بعد خوفهم – أمناً)). ولكن هذه المنح الثلاث: نقل السـلطة إليهم، وإعطاءهم الاسـتقلال في اتباع الخط الـذي آمنوا به، وتحرير إرادتهم لاتخاذ القرار المناسـب غير متأثرين بضغوط؛ كل ذلك وسـائل للسـير التكاملي: ((ويعبدونني، لا يشركون بي شيئاً)). فالهدف هو التكامل الروحي، لا مجرد التنعم المادي التافه، الذي يشوه شموخ الإنسان ونبوغه.

تطويق الجنس

((وإذا بلغ الأطفال – منكم – الحلم، فليستأذنوا، كما استأذن الذين من قبلهم.

كذلك: يبين الله لكم آياته، والله عليم حكيم)).

[(سورة النور: الآية ٥٩)].

((وإذا بلغ الأطفال)) الذين يعايشونكم، ويعتبرون جزءاً من حياتكم الداخلية، حتى كأنهم ((منكم)). إذا بلغ هؤلاء الصغار مبلغ: ((الحلم)) (١٨٤)، وخلعوا الطفولة، ودخلوا الدور الذي يحلمون فيه بالجنس، وهو دور التمني والمراهقة، الذي يعبر عنه – بلغة الفقه الإسلامي – بـ: (دور التمييز)، فأصبحوا يشعرون بقضايا الجنس؛ ((فـ)) لا تسمحوا لهم بأن يدخلوا عليكم في: (العورات الثلاث) بدون استئذان. لأنهم – وإن لم يصبحوا: (مكلفين)، ولم ينتقلوا إلى دور المسؤولية – ولكن تحرك الجنس فيهم، يفرض عليكم أن تعاملوهم كـ: (المكلفين) في هذا الخصوص. و ((ليستأذنوا)) إذا أرادوا الدخول عليكم في تلك الحالات.

وفيه إلفات إلى خطورة هذا الدور في عمر الإنسان.

وأيضاً: ينبه الأولياء – وكذا كل مسؤول – على شدة المحافظة والتكتم لكل ما يثير الجنس فيهم، ويدعوهم إلى تخليص الأجواء الاجتماعية – ومنها العائلية – عن كل المثيرات الجنسية، وتنزيهها عنه.

(٢٥)

سورة الفرقان

مكية

وهي سبع وسبعون آية

فلسفة تدرج ميلاد القرآن

((وقال الذين كفروا:

لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة؟

كذلك: لنثبت به فؤادك، ورتلناه ترتيلاً)).

[(سورة الفرقان: الآية ٣٢)].

أولئك الذين كانوا يستطلعون ما يتصورونه نقاط الضعف في الإسلام، ليسددوا إليها سهامهم. وكانوا ينطلقون من مواقع الضعف، لأنهم منافقون يعيشون تحت سيطرة الإسلام. فيطلقون الأسئلة، لا ليفهموا، وإنما ليكتشفوا نقاط الضعف المزعومة:

((وقال الذين كفروا: لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة)) كما تنزلت كتب السماء على رسل الله جملة واحدة، وإنما نزل القرآن سورة... سورة...، أو آية... آية...، أو آيات... آيات...، تنزلت في مناسبات... أو في شأن أفراد...؟

فكان الجواب:

إن القرآن كان جاهزاً – كله – قبل نزوله نجوماً، ولكن ما نزل دفعة واحدة، وإنما نزل متفرقاً، في مناسبات... أو في أفراد...:

١- ليعطي تلك المناسبات... وأولئك الأفراد... أهمية خاصة، لإيجاد المثل... والقدوة... في حياة المسلمين، لتصبح غنية بمثلها... وقدواتها... فلا تحتاج إلى استعارة المثل... والقدوات...

٢- لتساعد تلك المناسبات... وأولئك الأفراد... على تركيز القرآن في مشاعر المسلمين. فترفق كل سورة... أو آية... بقصة تنقل، فيشرب التأثير القرآني بالتأثير القصصي.

٣- لتجدد عهد الأمة بالسماء. لأن نزول القرآن يلهب حماس الأمة، ويدلها على ارتباطها

الفعلـــي بالســـماء. فلو نزل القرآن دفعة واحـــدة، لانتهى زخم التجديد فيه في فتـــرة زمنية. وأما وقد نزل متفرقا، فكان زخم التجديد فيه مستمراً، يروي المشاعر الإيمانية بالدم الجديد.

وتلك المناســبات... وأولئك الأفراد... ما كانت لتستأثر بالقرآن، بل كان القرآن يلقي الضوء عليها، ومن خلالها: يلقي الضوء على مناسبات... وأفراد... الأمة جمعاء.

فتلك المناســبات... تصبح المثل لكل المناسبات المشابهة في أوضاع الأمة، وأولئك الأفراد... يصبحون القدوات لكل أفراد الأمة.

فمثلاً:

((لقد نصركم الله في مواطن كثيرة، ويوم (حنين): إذ أعجبتكم كثرتكم، فلم تغن عنكم شيئاً، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت، ثم: وليتم مدبرين ۞ ثم: أنزل الله ســكينته على رسوله... وعلى المؤمنين... وأنزل جنـــوداً لم تروهـــا، وعذَّب الذين كفروا، وذلك: جزاء الكافرين ۞ ثم: يتـــوب الله – من بعد ذلك – على من يشاء، والله غفور رحيم)) (١٨٥).

نزلت في تقييم وضع المسلمين يوم حنين، ولكن ما اختصت به، وإنما بقيت – من خلاله – لتقييم كل وضع مشابه له.

ومثلاً آخر:

((ومن الناس: من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله، والله رؤوف بالعباد)) (١٨٦).

نزلت في الإمام أمير المؤمنين (ع)، ولكن ما اختصت به، وإنما شـــملت – من خلاله – كل من يضحي بكل شيء في سبيل دينه.

كيف تتبدل السيئات حسنات؟

((. . . ومن يفعل ذلك :

يلق أثاماً * يضاعف له العذاب – يوم القيامة – ، ويخلد فيه مهاناً *

إلا من :

تاب ، وآمن ، وعمل عملاً صالحاً : فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفوراً رحيماً *

ومن تاب ، وعمل صالحاً : فإنه يتوب إلى الله متاباً)) .

[(سورة الفرقان : الآيات ٦٨ – ٧١) .

السيئة هي: الإساءة... والإساءة، إما تكون إلى النفس من خلال ترك الواجبات الشخصية، أو ارتكاب المحرمات الشخصية... وإما تكون إلى الآخرين من خلال ترك الفرائض المتعلقة بالآخرين، أو ارتكاب الجرائم بحق الآخرين... ولا يمكن الإساءة إلى الآخرين قبل أن تنعكس على النفس، لأن التصميم على الإساءة إلى الغير يساوي قبول الانحدار إلى درك المسيئين، ثم: تنفيذ الإساءة بحق الغير يساوي إيقاف النفس في صف المسيئين، وهكذا... ينعكس الظلم على الظالم قبل أن ينعكس على المظلوم، فيكون ظالماً لنفسه قبل أن يكون ظالماً لغيره.

وسلبية السيئة تتبدل إيجابية، إذا تاب المسيء توبة نصوحاً، سواء أ كانت سيئة إلى النفس... أو سيئة إلى النفس والمجتمع.

أما إذا كانت السيئة إلى النفس: فلأن إيجابية التصميم على إقلاع العاصي عن السيئة، بعد أن ذاق طعمها الزائف، أقوى من سلبية السيئة. لأن للسيئة طعماً مغرياً – وإن كان طعمه طعم السم المداف بالعسل – فمن لم يذق طعمها يسهل عليه الابتعاد عنها، وأما من ذاق طعمها... وتعودها... فإنه يصعب عليه الإقلاع عنها. فالتوبة، أصعب من اجتناب المعاصي قبل التعود عليها.

وأما إذا كانت السيئة إلى النفس وإلى المجتمع: فحجم التوبة عنها أكبر من حجمها. لأن التوبة من الذنب تجربة إيجابية لصالح الجبهة الملتزمة، والتائب من الذنب عبرة يستفيد – هو – منها حتى لا يقدم على الذنب من أي نوع آخر، لأنه عرف – من خلال تجربته الشخصية – أن مصير المذنب إلى الندم. كما أن التائب عبرة، يستفيد منها المجتمع، حتى لا يتورط أي فرد منه في الذنب.

ومهما كان الذنب كبيراً، فالتوبة تغسل آثاره. لأن التوبة تأخذ حجمها من حجم الذنب الذي تضع له حداً، فتكون أقوى منه. فمثلاً: شرب الخمر يترك أثره السلبي على شاربها، وعلى محيطه الذي يعلم بأنه يشرب الخمر... فتوبته تترك أثرها الإيجابي عليه، وعلى ذلك المحيط فقط.

ولكن معصية (الحر بن يزيد الرياحي) أثَّرت – سلباً – على محيط واسع، كقائد جعجع بالإمام الحسين (ع) في طريق كربلاء المقدسة... فتوبته أثرت – إيجابياً – على ذلك المحيط الواسع، كقائد يخرج من الجيش الأموي، ثائراً عليه، ويدافع عن الإمام حتى الشهادة.

وجريمة (فرعون) عززت جبهة الكفر، في عهده... وبعد عهده... ولو كان يتوب، لكان قد عزز جبهة الإيمان، في عهده... وبعد عهده. وهكذا... تحجم التوبة بحجم الذنب، ولكنها لا توازيه في الميزان، وإنما ترجح عليه، لسببين:

الأول: أن التوبة عمل إيجابي، والذنب عمل سلبي. والإيجابية تغلب السلبية إذا تساوتا في الميزان، كما أن النور يكسح الظلام إذا كان بحجمه.

الثاني: أن العمل الذي يستقر عليه الإنسان، يكون حجة على العمل الذي يقتلع عنه. لأن الثاني يكون من نوع التجربة التي لا يركن إليها، بينما الأول يكون من نوع اختيار المصير الذي يركن إليه. فكأن التائب يقوله – بعمله –: (يا من تعرفون أوضاعي! أنا عرفت (بالتجربة الشخصية) أن الذنب يؤول إلى الندم. فاتخذوني عبرة، ولا تكرروا التجربة).

ومن هنا يظهر:

لماذا يكون عقاب (المرتد الفطري) أشد من عقاب (المرتد الملي). ذلك: لأن سلبية كفره بعد الإيمان، أقوى من إيجابية إيمانه قبل الكفر. ولهذا: لا تقبل توبته، ويقتل – ضمن شروط مذكورة في الفقه – لعل العقاب العاجل، يخفف من سلبية ارتداده في المحيطين: المؤمن، والكافر:

((إن الذين آمنوا، ثم كفروا، ثم آمنوا، ثم كفروا، ثم ازدادوا كفراً: لم يكن الله ليغفر لهم، ولا ليهديهم سبيلاً)) (١٨٧).

ومن هنا نعرف:

لماذا هدَّد القرآن الكريم، زوجات النبي الأكرم (ص)، بمضاعفة العذاب إن أتين بفاحشة مبينة:

((يا نساء النبي! من يأت منكن بفاحشة مبينة، يضاعف لها العذاب ضعفين، وكان ذلك على الله يسيراً)) (١٨٨).

ذلك: لأن نساء النبي (ص)، حيث عايشن معدن الوحي، فإتيانهنَّ بالمنكر يوحي إلى ضعاف الإيمان، بأن ليس في الدين ما يمسك عن الانسياق وراء الشهوات، طالما أن نساء النبي (ص) لم يتماسكن، فالأحرى بغيرهن أن ينفلت.

ومن هنا يبدو:

لماذا يغفر الله – تبارك وتعالى – للجاهل سبعين ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنباً واحداً (١٨٩)؟.

ذلك: لأن ذنب العالم حجة لغيره على أن لا تثريب من الذنب، كما أن تجاوز الطبيب تعاليمه الصحية ينزع ثقة الآخرين من واقعية تعاليمه.

الدعاء

((قل:

ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم، فقد كذبتم، فسوف يكون لزاماً)).

[(سورة الفرقان: الآية ٧٧).

(العبء) هو: الثقل. وعبأ به: ثقل به، أي: حمل همه حتى ثقل ووقر. وتعبأ به: تشحن به وامتلأ. وعبأ الجيش للقتال: شحنه شحنة بلغت به درجة الانفجار والمغامرة بالنفس. وتعبأ زيد بعمرو: امتلأ به. ولا

يعبأ به: لا يمتلئ به. وما يعبأ به: بماذا يتحمله؟ أو: لماذا يحمل عبأه؟

هذه دلالة الكلمة – في إطلالتها الأرضية – وعندما تستعمل لإطلالة سماوية، فإنها تتخلى عن دلالتها التطابقية بشيء من العناية والمجاز، شأن كل الكلمات الأرضية حينما تحاول أن تعكس المعاني السماوية.

ولعلنا لا نجرؤ على تمديد دلالة الكلمة إلى مقام الربوبية، فنتبع المفسرين – في تفسير العبء بالمبالاة – فنقول:

((قل)) يا محمد! لهؤلاء الناس المتوغلين في أنفسهم ((ما يعبأ بكم ربي)) وماذا يجعله يبالي بكم؟ إن فقد آخر سبب يعطفه عليكم، وهو: الدعاء.

فأنتم تتوجهون إلى الله – تبارك وتعالى – وسبب توجهكم إليه حاجتكم إليه، بل إن حاجتكم (تَوَجُّهٌ) إليه. وأما توجهه إليكم، فيحتاج إلى سبب، والسبب أحد أمرين لا ثالث لهما:

١- إيمانكم به، الذي يدمجكم في إرادته، فتحظون بتوجيهاته المرسلة ضمن إرادته، فتستحقون من فيضه بقدر اندماجكم في إرادته، أي: بقدر إيمانكم به.

٢- توجهكم إليه، ودعاؤكم إياه وهذا التوجه لا يحق لكم فيضه ما دمتم تناقضون إرادته، ولكن (الفيض المطلق) لا يمتنع عن المتعرضين له.

وهذا هو السبب الضعيف الأخير، فاحرصوا عليه، فإنه لن يتوجه إليكم ((لولا دعاؤكم)) لأنكم خسرتم – في أكثريتكم – السبب الأول ((فقد كذبتم)) به، أو بشيء من: رسله... ورسالاته... فلستم مندمجين في إرادته.

حقيقة الدعاء

وما دام (الدعاء) هو السبب الثاني – والأخير – الذي يعطف توجه الله إلى الناس، فلا بد من التأمل لمحاولة تفهم حقيقته.

فما هو الدعاء؟

هل هو: تفرقع كسير... وأنين مألوم... وتفجع مهيض...؟

هل هو: تعبير طبيعي عن التوترات الغائرة في الأعماق؟

كلا... إن نداء اللاشعور لا يلفت توجه الشعور، فكيف بتوجه الله؟!

فلا بد أن يكون (الدعاء) توجهاً شعورياً، يركز كل المؤشرات... والنبضات... – بما فيها اللسان – في اتجاه الله، بحيث يستحق توجه الله بالمقابل.

فلماذا لا يستجاب؟

وإذا كان الدعاء الحق، هو: التوجه الحق، فلماذا لا يستجاب عندما يتحقق؟

لأن الدعاء ليس مجرد توجه كسيح، وإنما هو: تطابق المؤشرات... والمعبرات... في القنوات التي تتفرغ في الهدف. وهذا ما لا يتحقق – في كثير من الأحيان –، فتبقى ذبذبة لسان وهي تعطف توجه السماء.

مثلاً: قد تستعين – أنت – بجهاز هاتف سليم، وتدير الأرقام في اتجاه شخص معين، فتخاطبه بالشكل المناسب، فتنال مقصدك. ويراك طفل مترعرع يريد أن يتكلم مع جاره، فيقبض سماعة الهاتف، ويدير الأرقام دون أن يعرف: توفر الحرارة في الأسلاك، والرقم المطلوب، وحتى وجود الهاتف لدى جاره.

دعاء الأولياء

و (دعاء الأولياء) يستجاب، لأنهم يعرفون كل الشرائط اللازمة، فيدعون كما تدعو – أنت – ولي أمرك، فلا يحجب عن ملك الأرض والسماء، بينما تدعو – أنت – كما يصرخ الطفل في جهاز الهاتف.

فدعاء الأولياء ليس تعبداً تائهاً، وإنما هو: عمل متجاوب يتكاملون به. كما أن صلواتهم ليست طقوساً مفروضة، وإنما هي: أعمال مرحلية يتابعون – من خلالها – تصاعدهم، تماماً... كلقاءاتك مع المسؤول الأعلى منك. أ وليس في الحديث: (الصلاة قربان كل تقي) (١٩٠)، (الصلاة، معراج المؤمن) (١٩١).

(٢٦)

سورة الشعراء

مكية

وهي مئتان وسبع وعشرون آية

(٢٧)

سورة النمل

مكية

وهي ثلاث وتسعون آية

الجحد بعد الاستيقان

((فلما جاءتهم آياتنا – مبصرة – ، قالوا : (هذا . . . سحر مبين) . *

وجحدوا بها – واستيقنتها أنفسهم – ظلماً وعلواً . فانظر : كيف كان عاقبة المفسدين؟ !) .

[(سورة النمل : الآيتان ١٣ – ١٤) .

كما يتمرد المجرمون على السلطات، ويستهترون بالكلام ضدها، تعبيراً عما يعانون من عقد، وهم مذعنون بأنهم في قبضتها، حتى إذا ألقي عليهم القبض، أصيبوا بسلسل الاعتراف، حتى بما لم يفعلوا...

هكذا: العصاة، يتمردون على الله، ويستهترون بالكلام الشاذ، تعبيراً عما يعانون من عقد، وهم مذعنون بأنهم في قبضته، فإذا أجهدهم البلاء، أو تراءت لهم عوامل الموت الداهم، تضرعوا صاغرين...

ولكن الله، لا يغيب عنهم لحظة، حتى وهم في أوج عتوهم، وكفرهم بالله.

((قالت: (يا أيها الملأ!

أفتوني في أمري، ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون) ۞

قالوا:

(نحن: أولو قوة، وأولو بأس شديد. والأمر إليك، فانظري: ماذا تأمرين؟) ۞)).

(سورة النمل: الآيتان ٣٢ – ٣٣).

في هذين البندين من القصة، تعليم تربوي، للمشاركة في صنع القرار بين كل رئيس وكل مرؤوسين. فمن جانب الرئيس: عليه أن لا يقطع أمراً في غياب المرؤوسين:

١- للإفادة من آرائهم.

٢- لمشاركتهم فعلياً، طالما القرار لا يخصه شخصياً، بل هو مشترك بينه وبينهم على حد سواء، وربما يخصهم أكثر مما يخصه. فعليه، الاعتراف بما يخصهم من القرار، من باب الاعتراف بالحق.

٣- لتحميسهم، ولإيجاد الإيمان لهم بالقرار، حتى يتجهوا نحوه بكل طاقاتهم، طالما التنفيذ يخصهم دونه، وبدون إيمانهم به لا يتم تنفيذ أفضل.

ومن جانب المرؤوسين: عليهم أن يعبروا عن آرائهم بحرية كاملة، حتى تتم الإفادة، وتتحقق المشاركة، ولكن دون إصرار عليه:

١- لأن الرئيس – بمقتضى تفرغه، واستيعابه لمختلف الآراء، وجوانب الموضوع – يكون أكفأ في اتخاذ القرار.

٢- لمنحه حرية التحرك، حتى يستطيع اتخاذ القرار، والإفادة من رأيه أيضاً.

٣- لمشـــاركته، فعليـــاً، طالما القرار لا يخص مرؤوســـيه دونـــه. وكما لا تصـــح ديكتاتورية الرئيس في اتخاذ القرار، بل عليه مشاركة مرؤوسيه، من باب الاعتراف بالحق؛ كذلك: لا تصح ديكتاتورية مرؤوسيه في اتخاذ القرار، بل عليهم مشاركة رئيسهم، من باب الاعتراف بالحق ذاته.

٤- تحميسه، وإيجاد الإيمان له بالقرار، حتى يوجه كل طاقاته لتصميم التنفيذ. فكما لا يتم تنفيذ أفضل بدون حماس وإيمان المرؤوسين، هكذا... لا يتم تصميم التنفيذ الأفضل بدون حماس وإيمان الرئيس.

(٢٨)

سورة القصص

مكية

وهي ثماني وثمانون آية

مواصفات سلطة الإمام المنتظر (ع)

((ونريد: أن نمنَّ على الذين استضعفوا في الأرض، ونجعلهم أئمة، ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم في الأرض، ونري: فرعون، وهامان، وجنودهما – منهم – ما كانوا يحذرون)).

[(سورة القصص: الآيتان ٥ – ٦)].

((و)) كذلـــك ((نريد)) نحن: الله ((أن)) نصطفي لنعمائنـــا جماعة، زودناهم بالمؤهلات العالية فغمطت أصحاب الســـلطات الزمنية حقوقهم، وطاردتهم، حتى كأنهم لا يستحقون شيئاً. بينما احتفظوا بمستواهم، فلم يســـفوا تحت وطأة الطوارئ، ولم يركعوا للأحـــداث، وإنما رفضوا الهزيمة، وصمدوا بمناعتهم الذاتية. فاســـتحقوا أن نصطفيهـــم لنعمائنا، ونعلن – مـــن خلالهم – أن إرادتنا هي المنتصـــرة، مهما تألبت ضدها القوى، لأن إرادتنا تجسد الواقع، والواقع ينتصر في المدى الطويل.

وهـــؤلاء... هـــم (الذين)) جابهتهم قوى الأرض، فـ ((اســـتضعفوا فـــي الأرض)). ولكنهم ما ضعفوا ولا انهاروا، وإنما واصلوا الســـير، من خلال الطوارئ التـــي أعدت لإيقافهم. فهؤلاء... الذين آمنوا بالله، والتزموا بأوامره، فانطلقوا من مقاييس الدين، غير آبهين بمقاييس الدنيا، وعلقوا أبصارهم بنور الحق، مستهزئين

بظلام الباطل. هؤلاء... سنضاعف ثوابهم في الدنيا – بالإضافة إلى ثواب الآخرة –، فنخولهم سلطتين:

الأولى: السلطة الروحية، في أعلى مراتب السلطة الروحية، وهي: (الإمامة). فنخولهم الإمامة، ((ونجعلهم أئمة)): التي هي السلطة الروحية المطلقة.

الثانية: السلطة الزمنية، في أعلى مراتب السلطة الزمنية، وهي: (الوراثة) فنخولهم الوراثة، ((ونجعلهم الوارثين)): التي هي السلطة الزمنية المطلقة، التي لا أعلى منها إلا سلطة الله.

وسلطة الوراثة أعلى سلطة، لأسباب:

١- سلطة الوراثة ليست معلقة بين قمة آمرة وقاعدة مأمورة، كما هي – عادة – حال السلطات الزمنية. فكل سلطة زمنية إنما هي – في الواقع – سلطة تنفيذية فحسب، وتؤدي دور الجندي فقط.

ففي الأنظمة الديكتاتورية: تتسلم السلطة الزمنية أوامرها من الحاكم الديكتاتور – ملكاً أو رئيس جمهورية –، والحاكم الديكتاتور – نفسه – يبقى مأموراً بردود فعل التيارات المتشابكة تحته، وبالأنظمة القاهرة فوقه. لأن الحاكم – مهما تركزت سلطته – يبقى عاجزاً أمام المتغيرات حوله، والأعراف السائدة حتى عليه وفي بيته.

وفي الأنظمة الديموقراطية: تتسلم السلطة الزمنية أوامرها من الحاكم الديموقراطي – المتمثل في السلطة التشريعية، التي تتسلم صلاحياتها من القاعدة المأمورة وهي الشعب –، فتبقى السلطة الزمنية – بمختلف أشكالها – محصورة في حدود لا تستطيع تجاوزها، وتكون حاكمة على محكوم ومحكومة لحاكم.

بينما تكون سلطة الوراثة أقوى، لأنها وريثة خبرات السلطات كلها، وخلاصة تجاربها. فلا تحمل جبروت الديكتاتورية، ولا عجز الديموقراطية. وإنما تكون نوعاً ثالثاً من السلطة، ليست عليها بصمات طيش الديكتاتورية، ولا وصمات جهل الديموقراطية، بل تكون سلطة مطلقة وصالحة، سجل التاريخ بعض تجاربها في سلطات الأنبياء والأئمة (ع) الذين حكموا.

٢- سلطة الوراثة ليست مرهقة بالتأسيس، كما هي – عادة – حال السلطات الزمنية: حيث أنها ترهق في خروجها من تحت الأرض، ووثوبها إلى سدة الحكم. وترهق في السيطرة على القطعة التي تستولي عليها من الأرض، والقطاع الذي تستولي عليه من البشر. وترهق في تجربة نوعية الحكم... فتمارس الحكم، يبيسة النشاط، ضحلة القدرة. بينما تكون سلطة الوراثة أريح، لأنها تجني ثمار هذه الرهقات بلا رهق، فتمارس

الحكم ريانة النشاط، وفيرة القدرة.

٣- ســلطة الوراثة ليســت قلقة، كما هي – عادة – حال الســلطات الزمنية، التي هي مادة التنازع بين هواتها، فلا ينتزعها أحدهم من أســلافه بالعنف والقهر، إلا وهو يعلم أن أخلافه ســينتزعونها منه بالعنف والقهر، وكما أنه صب الويلات واللعنات على أســلافه، سيصب أخلافه عليه الويلات واللعنات، وكما أن من قبله نكب بها، سينكب هو بها...

بينما تكون سلطة الوراثة آمن، لأنها مستقرة لا يستطيع هواتها أن يتنازعوها، وصاحبها مهيمن لا يحاذر أن تنشق الأرض عن من يقضي عليه ليستأثر بها.

٤- ســلطة الوراثة ليست مؤقتة، كما هي – عادة – حال السلطات الزمنية، التي يعلم صاحبها: أنه يبني لمن يهدم، ويزرع لمن يدوس. فهي في تداول مستمر بين المتناقضين. وكل من يستأثر بها – برهة من الزمن – يؤسسها وفق أفكاره، فإذا انقضت فترته، جاء بعده من يستأثر بها، لينسف كل ما أسس سلفه، ويؤسسها بشكل آخر، وإن لم يختلف مع سلفه في الرأي، وإنما لمجرد أن يثبت أنه ليس استمراراً له، وإنما هو أتى بالجديد في كل شــيء، وأنه كان في كل شــيء على باطل. فيما تكون ســلطة الوراثة أبقى، لأنها مصيرية، ويعلم صاحبها: أنه يؤسس للأبد، ويبني للأجيال، وأن جهوده لا تذهب باطلاً.

وهكذا... تكون سلطة الوراثة أقوى وأريح وآمن وأبقى. فهي أعلى مراتب السلطة الزمنية.

وللسلطة الروحية – في مستوى الإمامة – مكانة عظيمة، وللسلطة الزمنية – في مستوى الوراثة – مكانة عظيمة، فإذا اجتمعتا في شخص؛ يجتمع له المجد من أطرافه، ويكون أقوى إنسان على الأرض.

فالذين استضعفوا في الأرض وما انهاروا، يمنحهم الله هاتين السلطتين معاً، ويضيف إليهما خصلتين:

الأولــى: أن الله يمكنهم فــي الأرض: ((ونمكن لهم في الأرض)) حتى تكون ســلطتهم مطلقة لا تحدها حدود، إلا إرادة الله فقط، ومتينة لا تطوف بها الزلازل والتمردات، كفاء ما استضعفوا وأهدرت طاقاتهم.

الثانية: أن الله يسلطهم على أعدائهم: ((ونري: فرعون، وهامان، وجنودهما – منهم – ما كانوا يحذرون))، فيعاقبون – بأيديهم – من استهان بهم، وأنكر مواهبهم، وكبت قدراتهم.

تعديل غريزة الخجل

((فجاءته إحداهما، تمشي على استحياء...)).

[(سورة القصص: الآية ٢٥)].

الحياء – أو الخجل – قد يطغى ظله على فرد، فتسلبه حقوقه، وتشله عن واجباته. وربما يتقلص ظله عن فرد، فيغدو وقحاً مكروهاً.

وبين هاتين الحالتين، علينا أن ندرس (غريزة) الخجل، فنعدله وننصفه.

فالخجل: يلزم أن يكون له واقع مستقل حاكم، لا ظل شفيف حائم.

فبالنسبة إلى كل موضوع، يلزم أن ندرسه: فإن آمنا به –بمقتضى الفلسفة العامة التي نعتنقها–، كان علينا أن لا نسمح للخجل بالحيلولة دونه. وإن لم نؤمن به – بمقتضى تلك الفلسفة –، كان علينا أن لا نسمح للخجل بالتوريط فيه.

فالقضية – قبل الخجل – للإيمان بشيء، إيجاباً أو سلباً. ثم يأتي دور الخجل كـ (غريزة)، لتجميل الأداء قولاً أو عملاً.

فالخجل (غريزة)، لو تركت لعفويتها تخبط – كسائر الغرائز –، وإن روضت تصبح أداة مستحبة الأداء.

وهكذا... جاءت ابنة شعيب، تطلب يد موسى. وهذه جرأة، مارستها مرتين: مرة، عندما عرضت على أبيها رغبتها فيه: ((قالت إحداهما: يا أبت! استأجره...)) (١٩٢). ومرة، عندما جاءت – مباشرة – إليه، تعرض عليه نفسها. ولكنها لم تأت بوقاحة، وإنما جاءته باستحياء. فكان للحياء دور تجميل الجرأة، لتظهيرها في زي مقبول: ((فجاءته إحداهما، تمشي على استحياء...))، فغطت مجيئها الجريء بالحياء.

فأعطت للحياء دوره المروض، كما أعطت لرغبتها صيغة العفاف.

فاســتجابت لغريزتها، واســتجابت لحيائها. ولولا ذلك، لكان عليها: إما تلبية رغبتها على حســاب عفافهــا، فتظهر وقحة مرفوضة. وإما تلبية حيائها على حســاب غريزتها، فتصــاب بالعقد التي يصاب بها الفاشلون في تلبية الغريزة.

مصدر الهداية

((إنك لا تهدي من أحببت، ولكن الله يهدي من يشاء، وهو أعلم بالمهتدين)).

[(سورة القصص: الآية ٥٦)]

((إنك)) يا محمد! ((لا تهدي)) إلى الحق ((من أحببت)) من الناس، أو من أحببت هدايته، لكونه قوياً، لو امتص الإسلام طاقته لنما وتوسع. ((ولكن الله يهدي من يشاء)) (١٩٣) الهداية: فالذي يتجاوب مع الهداية، يمــده الله، لينال الهدايــة بقدر ما يجد في ضميره من هدى. والذي يتنكر للهداية، لا يلزمه الله بالهداية، وإن أحببته – يا محمد! –، أو أحببت هدايته لمصلحة الإســلام. فمحبتك لفرد، أو لمصلحة الإسلام في هداية فرد؛ لا تجعلان العنصر الخبيث طيباً. والله لا يشاء مناقضة الحقائق التي قررها، وأجرى عليها نظام خلقه.

العاقبة للمتقين

((تلك الدار الآخرة، نجعلها للذين: لا يريدون علواً في الأرض، ولا فساداً. والعاقبة للمتقين)).

[(سورة القصص، الآية: ٨٣).

هنالك ظنون: إن الله خالق القوة، والكون، والجنة، والنار... له كل شــيء، وله القدرة على التصرف كما يريــد. ولكنه – في الوقت ذاته – أناني، يحب الإطراء والمديح. وســاذج، يمكن الهروب من ناره، ومغالبته على جنته، بكلمة اســتغفار بعد ألف عام من العصيان. كما يمكن إثارة غضبه، وحبط عمل ألف عام، بزلة بسيطة – تعالى الله عما يظنون –.

ويغذي هذه الظنون، ظاهر بعض الروايات القائلة بـ: (إن امرأة دخلت النار، في هرة ربطتها...) (١٩٤)، و: (إن عاهرة دخلت الجنة، لأنها سقت كلباً مشرفاً على الهلاك عطشاً) (١٩٥).

فيمــا الواقع: أن الله، خالق الفكــر والذكاء، لا يمكن أن يؤخذ بالمكر والخــداع. ولا يمكن أن تأخذه

البساطة، إلى نسيان كل المعادلات التي ركز عليها الوجود، واعتبرها سنته، التي تحدث عنها فقال:

((... فلن تجد لسنة الله تبديلاً، ولن تجد لسنة الله تحويلاً)) (١٩٦).

فمن الصعب الاطمئنان إلى صدق هذه الظنون، وإنما أظنها مفتعلة، اصطنعها الملحدون، وسمموا بها أوساط البسطاء، لتشويه عقائدهم. لأن أصحاب هذه الظنون – أنفسهم – إذا وقفوا أمام سياسي محنك، أو عالم مفكر، لا يفكرون في المغالطة والخداع، لأنهم يعتقدون أن لعبهم لا تنطلي عليه، ومجرد محاولتها يثير فيه سوء الظن، الذي يكشف جميع أوراقهم، فتعود بالكارثة عليهم، ويخسرون الموقف نهائياً. ولكنهم – بين يدي الله، الذي خلق كل المحنكين والمفكرين – يحاولون اللعب، ويجترئون على المجاهرة بعصيانه طيلة شبابهم، ظانين أنهم يتمكنون من استرضائه بكلمات – أو صلوات – في نهاية شيخوختهم. ومثل هذا الظن لا يكون واقعياً، وإنما مدسوساً على البسطاء الذين يفكرون بأدمغة غيرهم، وغطاء على الملحدين الذين يجاملون محيطهم المؤمن بأغطية إيمانية.

فالله الذي لا يخطئ شيئاً في التكريرات الكونية: فيختار الجزيئات الصالحة، من الطعام المختلط في المعدة، ويزود بها الجسم، ويدفع غيرها خارج الجسم. ويلتقط من الهواء، والماء، والشمس، والأرض... العناصر المنسجمة مع النبات، ويبعد غيرها عنه. ويستخرج الذرات العذبة من الماء الأجاج، ويرفعها مع الحرارة، ليعيدها – بعد حين – ماءً عذباً، يروي به المزارع، والإنسان، والحيوان... ويجري عمليات الاستخلاص الدقيقة، في كل شيء، دون أي خطأ؛ كيف يمكن أن يصطفي عناصر النار للجنة، ويحشر عناصر النور في جهنم؟! إن هذا... يشبه أن تتدلى الصخور البركانية من أغصان الورد وتقذف البراكين حزمات الرياحين.

فالجنة للعناصر المنسجمة معها، والسعير للعناصر المنسجمة معه.

فـ: ((تلك الدار الآخرة، نجعلها للذين)) خلصت نفوسهم، فما صدرت منها السيئات، ولا تفاعلت فيها النوايا السيئة. فـ: ((لا يريدون)) حتى ((علواً في الأرض))، مجرد العلو – الذي قد يكتسب بطرق مشروعة – لا يهاجسهم. لأن مجرد إرادة العلو، تعبير عن الأنانية التي تشوه النفوس، وتعيقها عن الارتفاع فوق الأرض، فيبقى صاحبها مشدوداً بالأرض. ومن تشده النوازع إلى الأرض، لا يكون خالصً للسماء:

((واتل عليهم: نبأ الذي آتيناه آياتنا، فانسلخ منها، فأتبعه الشيطان، فكان من الغاوين ۞ ولو شئنا لرفعناه بها، ولكنه: أخلد إلى الأرض، واتبع هواه. فمثله كمثل الكلب: إن تحمل عليه يلهث، أو تتركه يلهث. ذلك: مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا. فاقصص القصص لعلهم يتفكرون)) (١٩٧).

فمن يخلد إلى الأرض لا يرفع عنها، وإنما يبقى من عناصرها.

((و)) لا يريدون ((فساداً))، مجرد إرادة الفساد لا تساورهم، حتى أحيان الغضب والفرح، وإنما يعيشون المقيـاس الأرفـع من هواجس الأرض – في جميع الحالات –. فهؤلاء... هـم عناصر الجنة، الذين جعل الله الآخرة لهم.

((و)) الحاصل: أن كل هذا الكلام من قبيل التفاصيل، وأما مجمل القول فهو: أن النتائج تتبع المقدمات، و ((العاقبة)) الحسنة ((للمتقين)) عن السيئات. وأما الذين تركبت مطامحهم وآمالهم من السلبيات، فتحركت نبضات أفكارهم وأعصابهم بالأمور السـلبية؛ كيف يمكن أن يجدوا مجالهم في مصاف الإيجابيين، الذين تتابعت نبضاتهم وخطواتهم إلى الأمام؟! إلا إذا تسـاوى الهدَّام والبنَّاء، وإلا إذا التقى السـائر إلى الوراء مع السائر إلى الأمام.

والمـرأة التي دخلت النار في هرة، لم تدخل النار لمجرد هرة، وإنما كل حياتها سـلبية، ولكن ظروفها ضغطـت بها في الإيجابيات، حتى إذا وجدت حرية التعبير عن ذاتهـا، ألقت الحجاب عنها، فكان عملها الحر المعبر: حبس هرة، وتجويعها، وتعطيشها، حتى تأكل التراب، فتموت جوعاً وعطشاً.

والعاهرة التي سـقت الكلب، لم تدخل الجنة في مجرد كلب، وإنمـا كانت كل حياتها إيجابية، ولكن ظروفها دفعت بها إلى السلبيات، حتى إذا وجدت حرية التعبير عن ذاتها، ألقت الحجاب المفروض عليها، فإذا بها تقص شعرها، لتمد الحبل إلى البئر، فتسقى كلباً عاطشاً.

فهذه النماذج، ليست الأسباب الوحيدة لتقرير مصائر الأفراد، وإنما هي مجرد تعبيرات، تكشف الذاتيات المتحركة في اتجاه السلب أو الإيجاب، فلا تؤخذ على أنها كل شيء في حركة المصير.

(٢٩)

سورة العنكبوت

مكية

وهي تسع وستون آية

فلسفة الامتحان الإلهي للإنسان

((الم * أحسب الناس: أن يتركوا أن يقولوا: (آمنا) وهم لا يفتنون؟! * ولقد فتنا الذين من قبلهم. فليعلمن الله الذين صدقوا، وليعلمن الكاذبين)).

[(سورة العنكبوت: الآيات ١ - ٣)].

كلمات: (الافتتان)، (الامتحان)، (الإمهال)، (الإملاء)، (الابتلاء) ... هذه الكلمات... تتردد بكثرة في القرآن الكريم.

وهنا يأتي السؤال:

لماذا الامتحان من قبل الله للناس؟ إن الامتحان لاكتشاف طاقة أو نشاط: فالرياضي يمتحن المنتمي إلى ناديه، ليعرف مقدار طاقته الجسدية. والمعلم يمتحن تلميذه، ليعرف نشاطه التعليمي.

وبكلمة واحدة: الامتحان يكون لإظهار شيء كامن ومستور.

أما الله، الذي هو أقرب إلى العبد من حبل الوريد، ويعلم السر وأخفى، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور... فلماذا يعرضه للامتحان؟

الجواب:

١- يقال: إن الله يمتحن عبده، ليظهر واقعه الصالح أو الفاسد، فيظهر أن الله عادل في ثوابه وعقابه.

٢- إن الله – تعالى – يمتحن العبد، لينمو نموه الطبيعي، ويأخذ مداه، فيبلغ أوج كماله. وبعدئذ: إما يكون عنصر خير، يلتقي مع مركز الخير، وهو الجنة. أو يكون عنصر شر، فيلتقي مع مركز الشر، الذي هو الجحيم. فيقرر هو مصيره، ولا يفرض عليه بالإكراه.

فالله، يوفر المناخ الطبيعي الملائم – في الدنيا – لعنصر الخير وعنصر الشر معاً، ويترك كل إنسان بين خيارين: ((وهديناه النجدين)) (١٩٨).

وذلك: أن توفر المناخ الطبيعي الملائم، يساعد على نمو الشيء نمواً كاملاً وصريحاً. بينما المناخ غير الملائم، يساعد على نمو الشيء، ولكن نمواً ناقصاً ومشوهاً.

فعنصر الشــر، إذا تواجد في مناخ الخير، ينمو نمواً ناقصاً ومتكلفاً. أما إذا تواجد في مناخ الشــر، فإنه ينمو نمواً كاملاً ومطلقاً.

ولذلــك: تعمل المناخــات الملائمة – في المختبرات – لتنمية الخلايا الحيــة والميكروبات، حتى تنمو نموها الطبيعي الكامل المطلق، فتعبر عن واقعها، وتحدد اتجاهها ومصيرها بطبيعتها.

أصحاب السيئات

((أم حسب الذين يعملون السيئات: أن يسبقونا؟! ساء ما يحكمون)).

[(سورة العنكبوت: الآية ٤)].

أصحاب الســيئات يتصورون: أن هناك هدفاً يتسابق الله وأولياؤه إليه من جهة، والعصاة من جهة أخرى، فإذا عملوا ســيئة، ظنوا أنهم ســبقوا الله وأولياءه. وهذا التصور ناتج من تصور آخر هو: أن الله وأولياءه، إذا أمروا بشــيء، أرادوه تكويناً، وكأنهم نزلوا بكل ثقلهم لتحقيقه. وإذا نهوا عن شــيء، حاولوا بكل جهدهم منعه. فإذا لم يفعل العاصي ما أمروا به، وارتكب ما نهو عنه، ظن أنه سبقهم، وانتصرت إرادته على إراداتهم. بينما الله إذا أمر بشــيء لا يريده تكويناً، وإذا نهى عن شــيء لم يمنعه، وإنمــا يعرض الناس للتجربة. فمن خالف، فشل في التجربة، وسبق بالفعل، ولكن إلى: خسارة شيء – نفسياً أو اجتماعياً – وضرر أخروي.

الانحلال والالتزام

((أم حسب الذين يعملون السيئات: أن يسبقونا؟! ساء ما يحكمون* من كان يرجو لقاء الله؛ فإن أجل الله لآت. وهو السميع العليم* ومن جاهد. فإنما يجاهد لنفسه. إن الله لغني عن العالمين)).

[(سورة العنكبوت: الآيات ٤ – ٦)].

هنالك ظن يتبادر إلى ذهن كل من لم يفقه فلســفة الحياة، يقول: إن كل من ضحَّى خســر، وإن كل من استأثر ربح. فمن ضرب، ونهب، وقتل، وتمرد، وأشبع رغباته... فاز. ومن تورع، وجاهد، وتعب، وحرم...

خسر.

وهذا الظن، هو ظن كل من ينظر إلى حدود نفســه، ولا يتجاوز حدود يومه. وأما من ينظر إلى أبعد من ذلك، فإنه يرى:

أن من يجاهد دون مجموعة بشرية، إنما يرفع نفسه فوق تلك المجموعة التي يجاهد دونها، ويورث بنيه مجداً. فهو وإن كان يجاهد دون غيره، إلا أنه – في المدى البعيد – إنما يضع نفســه في مســتوى أرفع ممن يجاهد دونهم، فيجاهد عن نفسه.

وإن من يعمل الســيئات في حدود نفسه، إنما يناقض تيار الكون، والأمواج الكونية. وكل من ناقض تيار الكون، فإنه مقضي عليه بالهلاك. وإن لم يهلك في يومه، فإنه هالك في المدى البعيد، ولو بعد الانتقال من هذه الحياة إلى حياة أخرى، لأن الإنسان مستمر رغم الموت.

وإن من يظلم، فيضرب وينهب، وإن ربح في النظرة القريبة، إلا أنه يضع نفســه هدفاً لكل من يظلمهم، ولا بد أن يصيبه أحدهم، ولو في المدى البعيد. فالظالم لا يســبق ضحيته أبداً، إن ســبقه اليوم فهو مسبوق به غداً.

لأن الكون بني على العدل. والإنســان مهما انحرف، ومهما اســتطاع أن يغالب الكون على اتجاهه؛ فإن نشــاطه لا بد أن يضعف يوماً، فيجرفه تيار الكون. وإذا جرفه الكون إلى اتجاهه، فإنه يقتص منه، اقتصاص من لا ينسى ولا يغفر.

وأما الله – تعالى –: فبالنســبة إلى من يجاهد وإلى من يعمل الســيئات، على حد سواء. أعلى وأجل من أن يعضد بهذا... ويطال بذلك... فهو غني عنهما، وعن العالمين جميعاً. وإنما – لطفاً منه بعباده – أرشدهم إلى ما ينفعهم وما يضرهم. فمن يجاهد يحصن نفسه، ومن يعمل السيئات، يحطم الحواجز التي تدرأ عنه المــكاره. فمن يلتزم بالدين، يركــب تيار الكون، فيفوز، مهما امتد أمامه الطريــق. ومن ينفلت من الدين، يناقض تيار الكون، ولا بد أن يجرفه، فيهلك مهما اختصر الطريق.

إن من يلتزم يوفر أعصابه، ومن ينفلت يأكل أعصابه.

الصلاة... معراجاً إلى ذكر الله

((اتل ما أوحي إليك من الكتاب ، وأقم الصلاة : إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر . ولذكر الله أكبر . والله يعلم ما تصنعون)) .

[(سورة العنكبوت : الآية ٤٥) .

الصلاة أكمل صلة يمكن أن تتم بين العبد وربه، تفرغه – حتى عن الكلمة والالتفاتة – لتكرسه أمام الله. فهي السلم الذي يمكن أن يرقى به الإنسان إلى التوجه الكامل إلى الله، حيث يبعد عن نفسه كل العلائق، لينصرف إلى الله تعالى. فهي معراج المؤمن، إلى التوجه الكامل إلى الله. ومن توجه إلى الله كل يوم مرات، متذكراً آلاءه وآياته، متعوذاً من الانحراف عنه؛ إلى الضلال عنه أو إلى غضبه... فإنه لا يعاود معاصيه. وإن عاود مرة، أو عشر مرات، أو خمسين، أو ألف... فإن طاقة النفاق تنفد فيه يوماً، ولا يعاود المعاصي. فالصلاة زمام يجره إلى الله، ومهما كان الإنسان صعباً فإن جره إلى الله – كل يوم مرات – يذلله على الصراط المستقيم يوماً من الأيام.

فقد روى أنس، أن فتى من الأنصار، كان يصلي الصلاة مع رسول الله (ص)، ويرتكب الفواحش، فوصف ذلك لرسول الله فقال: (إن صلاته تنهاه يوماً ما) (١٩٩).

فالصلاة – في حقيقتها – ليست طقساً يؤدى، وإنما هي قائد يوجه ويكرس، في توجهه إلهام، وفي تكريسه إلزام.

كما روى ابن مسعود عن النبي (ص): (لا صلاة لمن لا يطع الصلاة، وطاعة الصلاة أن تنهى عن الفحشاء والمنكر) (٢٠٠).

فالصلاة لا تقف موقف العمل الخاضع، لصياغة الإنسان، وإنما تقف موقف الآمر الذي يأمر وينهى. فهي تنهى عن الفحشاء والمنكر، نهياً كاملاً مرفقاً بالتنفيذ، حتى إن من لم ينته عن الفحشاء والمنكر؛ فقد عرف أنه لم يؤد الصلاة، وإلا فالصلاة لا يمكن أن تقصر عن التنفيذ، فمن لم يتأثر بالصلاة لا صلاة له.

ويقال: إن عدد المعاصي أربعة آلاف، وللصلاة أربعة آلاف حد. فكلما تجاوز العبد حداً من حدود الصلاة، تغلب على ذبذبة الحنين إلى معصية تقع في ذلك الحد. حتى إذا بلغ أقصى حدود الصلاة، تغلب

على كل ذبذبات الحنين إلى المعاصي. وتلك الذبذبات، هي التي عبر عنها القرآن بالوسوسة عندما قال: ((من شر الوسواس...)) (٢٠١).

ولكن الصلاة تبقى توجيهاً وتكريساً للإنسان، ولكن إلى أين؟ إلى الله. فهدف الصلاة هو تذكر الله، فتذكر الله أكبر من الصلاة، لأن الصلاة لا تعدو معراجاً ووسيلة إلى ذكر الله، أما ذكر الله المطلق، المتحرر من الاعتبار بآيات السماوات والأرض. أي: إفناء الآنات في محض ذكر الله، وذكر الله المحض؛ هو الهدف الأسمى من خلق الكون، فهو أكبر من كل العبادات.

الصلاة ناهية

((. . . إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر)) .

[(سورة العنكبوت : الآية ٤٥) .

من يصلي يكرس نفسه أمام الله: يمكن أن يصلي مرة، أو مرات، شارد الفكر. ويمكن أن يصلي مرة، أو مرات، غير ملتزم بشرائط وآداب الصلاة. ويمكن أن يصلي، وهو منغمس في حمأة الفحشاء والمنكر... ولكن ليصلِّ، فإنه طالما يصلي، فهو في تيار يسير به نحو الشاطئ. ولتزحف نحوه الأمواج من كل صوب، فإن تيار الصلاة أقوى من كل موج.

ذلك: أن الذي يصلي، يجد نفسه مكرساً أمام الله. وكل من كرس نفسه أمام الله كل يوم عدة مرات، لا بد أن يتأثر بالله، ولا بد أن يعي – في لحظة من لحظات الصفاء – معنى الصلاة، ولا بد أن تسري الرعشة – يوماً – في أعصابه؛ من التناقض بين واقعه وبين الهدف من وجوده في الحياة، ولا بد أن يفكر – يوماً – في الانتقال من الانحلال والارتجال إلى الانسجام والالتزام...

فـ: (إن صلاته تنهاه يوماً) (٢٠٢) – كما ورد في الحديث الشريف –.

إن الذي يقف أمام الله كل يوم مرات، سيسمو... ويسمو... إلى مداه تدريجاً، ويرتفع... ويرتفع... عن تفاهات الحياة، وتناقضات نفسه. كما أن من يتاح له اللقاء كل يوم مرات، بأكبر شخصية في بلاده؛ لا يمكن أن يهرب من تياره والتأثر به، ولا يمكن أن يبقى وضيعاً حيث ابتدأ، وإنما تنعقد له – مع الأيام – شخصية، لا تسمح له بأن يتعامل مع نفسه كأي إنسان عادي في البلاد.

ومن يصلي عشـــرة، أو عشـــرات، من الســـنين، ولا زال بعيداً عن هدفه، فليس لأن الصلاة لا تؤدي مفعولهـــا، وإنما لأنه ابتدأ من بعيد، فشـــوطه طويل، فيحتاج إلى المزيد من الوقت، حتى يجتاز المســـافة الشاسعة التي بينه وبين هدفه، فـ: (دعه يصلي، فإن الصلاة تنفعه يوماً ما)، وستقوده تدريجاً إلى هدفه.

تقييم الدنيا والآخرة

((وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب،

وإن الدار الآخرة لهي الحيوان؛ لو كانوا يعلمون))

[(سورة العنكبوت: الآية ٦٤)].

الأهداف في رحاب الحياة كثيرة، ويمكن لأي إنسان الاتجاه إلى أحدها. تبقى فلسفة الإنسان، التي تكون منطلقه الذي يحدد هدفه. لأن المنطلق والهدف صورتان لواقع واحد: فالمنطلق هو الصورة الفكرية للهدف، والهدف هو الصورة العملية للمنطلق.

ولكن الفلســفات – أيضاً – عديدة، يمكن قناعة الإنســان بأي منها. فيبقى الواقع الكوني العام، الذي لا يتغير بتصورات الإنسان ولا بمحاولاته. لأنه جزء متغير منه، وليس القدرة القاهرة عليه.

فالواقــع الكونـــي العام، واحد لا يتغير ولا يتأثر بتصورات ومحاولات الإنســـان، وهذا الواقع هو مقياس الصحة والخطأ في الفلسفات.

وهذا الواقع – استناداً إلى مصدره: الله – يقول:

((وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب))، فهي – في مجال الواقع الكوني العام – مجرد دمية تسلي بعض الوقت، من عمر الإنسان الطويل، ولكنها لا تتبنى شيئاً من الإنسان، وإنما يستطيع الإنسان أن يتخذ منها أداة لبناء نفسه، استعداداً لحياته الطويلة، وتأميناً لحاجاته المختلفة فيها.

((وإن الدار الآخرة لهي الحيوان))، والناس كثيراً ما يخطئون، لـ:

١- أنهم لا يستوعبون الواقع الكوني العام، لأنهم خاضعون له، فلا يستطيعون استيعابه.

٢- لا يعتمــدون على مصادر الوحي، لأنهم – من الخفة – بحيث تجذبهم المغريات التي تناديهم في جنبات الطريق.

ونتيجــة لقصورهم الذاتي في اســتيعاب الواقع الكوني العــام وغرورهم بالمغريــات الوقتية الجانبية، واستغنائهم عن المصادر الشــاملة للواقع الكوني العام؛ يقتنعون بإحدى الفلسفات المحدودة، التي تصمم لهم منطلقاً محدوداً، وهو – بدوره – يحدد لهم هدفاً محدوداً، فنراهم:

١- يحددون هدفهم بالمال، فينصرفون إلى بناء شــخصيتهم القريبة بالمال، ظانين أن أقصى اتساعهم، هو ما يمكنهم منه المال.

٢- يحددون هدفهم بالشــهرة، فينصرفون إلى بناء شــخصيتهم القريبة بالشهرة، المكتسبة عن طريق: السياسة، أو الفن، أو أمثالهما، ظانين أن أقصى اتساعهم، هو ما تمكنهم منه الشهرة.

٣- يحددون هدفهم بالعلم، فينصرفون إلى بناء شــخصيتهم القريبة بالعلم، ظانين أن أقصى اتساعهم، هو ما يمكنهم منه العلم.

ويختلفون في اختيار أحد هذه الأهداف، باختلاف الأمزجة، الناتج من اختلاف المركبات.

ومجمل هذه الأهداف صحيح، لو كانت امتدادات الإنسان محصورة بسياج هذه الدنيا.

غير أن مصادر الوحي، تقول بانفتاح الواقع الكوني العام – بكله – على الإنســان، ذلك الواقع الواســع، الذي ليست الدنيا فيه إلا (لهواً ولعباً) لمجرد التسلية الوقتية.

فبناء الشخصية الإنسانية، لا يكون بما تحدده هذه الدنيا، وإنما بما تتسع له الآخرة.

فــلا بــد من اتخاذ الدنيــا مجرد أداة لبناء الشــخصية الأخروية للإنســان، حتى تنطلــق طاقاته بأقصى امتداداتهــا، وحتى يتطابق الإنســان مع الواقع الكونــي العام، فلا يكون فيه تافهاً، في واقع واســع يتجاوز التافهين الحقيرين.

وهذا... لا يكون باعتماد الدنيا مجالاً وهدفاً، وإنما يكون باتخاذها وسيلة ومساراً.

فلا بد للإنسـان من تلبية الواجب في هذه الدنيا، لا الاستقلال بتحديد الهدف، وتحديد الواجب على ضوئه.

وذلك: ما كان عليه العظماء الكبار، فالأنبياء والأوصياء (عليهم السـلام) لم يكونوا يعملون شـيئاً إلا من خلال تلبية الواجب، على ضوء الفلسفة العامة، التي تؤطر الكون والحياة والإنسان – وما وراءها – في إطار واسـع شامل مطلق؛ تلك الفلسفة التي أكَّدتها مصادر الوحي. وهذه الفلسفة حددت منطلقهم، وهو التعبد الإيماني. وهو – بدوره – حدد هدفهم، وهو إطلاق جميع طاقاتهم، للاتساع بأقصى ما فيهم من ذاتيات.

(٣٠)

(سورة الروم)

مكية

وهي ستون آية

الإنسان القديم

((أولم يسيروا في الأرض، فينظروا: كيف كان عاقبة الذين من قبلهم؟ !كانوا: أشد منهم قوة، وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها، وجاءتهم رسلهم بالبينات، فما كان الله ليظلمهم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)).

[سورة الروم: الآية ٩].

هذه الآية:

حقيقة علمية لم يكتشفها العلم، ولم يتوصل إليها علماء الآثار.

وهي: أن الإنسان القديم كان يمتاز عن الإنسان الحديث بميزتين:

الأولى: أنه كان أشد قوة جسدية من الإنسان الحديث.

والقوة: تقبل التفسير بالقوة الجسدية العضلية، كما تقبل التفسير بالقوة الفكرية العلمية. ولكن المراد من القوة – هنا – هو القوة الجسدية، بدليل إردافها بالقوة الفكرية:

((وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها)).

فالإنسان القديم كان أشد قوة جسدية من الإنسان الحديث، وهل كان أضخم جثة؟ ربما! لأن القوة الجسدية تتوازن – عادة – مع حجم الجثة.

والمعلومات الجيولوجية تتوارد على أن الحرارة الكونية كانت – قديماً أغزر في الأرض، فكانت كائناتها أضخم وأشد. ووجدت في الحفريات، بقايا حيوانات وأشجار ضخمة عملاقة لا توجد نماذجها اليوم، رغم أن سلالاتها مستمرة حتى اليوم.

والإنسان القديم – كنوع من أنواع الحيوان – لا يستبعد أن يكون أضخم وأطول من الإنسان الحديث، تناسباً مع درجة حرارة الأرض وسائر كائناتها.

وعلى العموم: إن المخلوقات الأرضية في مرحلة تفجر فتوة الأرض، كانت أشد منها اليوم وهي في مرحلة الكهولة، بدليل أنها سائرة نحو الشيخوخة التي تتناقص فيها الحرارة الكونية – وبالتبع: مخلوقاتها سائرة نحو الضعف، أي: التضاؤل الجسدي والفكري – حتى تصبح حرارتها دون مستوى شهوة الحياة، فيموت عليها جميع الناس والحيوانات. ثم: تلبث (ما شاء الله) – كما في الأحاديث – وهو تعبير عن مدة طويلة جداً، ولا نعلم: كم مئة من ملايين السنين أو ملياراتها يشاء الله؛ – حتى تحدث تطورات مهمة ترفع درجة الحرارة الكونية في الأرض إلى مستوى هيجة الحياة، فيحشر الناس والحيوانات إلى القيامة.

وعلى ضوء ذلك: يمكن أن نفهم كيف؟ ولماذا؟ يروي القرآن أن الناس القدامى: ((كانوا: أشد منهم قوة)).

الثانية: إنه كان أشد قوة فكرية من الإنسان الحديث، والقوة الفكرية تنعكس على الحياة الاجتماعية حضارة، فكان أفضل حضارة من الإنسان الحديث:

((وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها)).

وآثار هاتين الميزتين باقية في طبقات الأرض، كما أن آثار مصيرهم المفزع – أيضاً – باقية في طبقات

الأرض:

((أ ولم يسيروا في الأرض، فينظروا: كيف كان عاقبة الذين من قبلهم؟!)).

س: فمن هو الإنسان القديم؟

ج: لعل الإنسان القديم إنسان ما قبل آدمنا، لأن آدمنا ليس أول إنسان على الأرض.

ولعلــه الأوائل من أولاد آدمنــا، إذ لم يثبت – بالضبط – تاريخ آدمنا، فلعله كان قبل مئات الملايين من الســنين. والتاريخ لا يصمد أمام السافيات من السنين، ولا يصمد أمام الحروب المدمرة الشاملة، فقد يكون ما حذف من التاريخ أكثر مما بقي منه.

س: ولماذا لم يعثر العلماء، على آثار حضارة أفضل، بواسطة الحفريات؟

ج: إن أرشــيف الأرض يحافظ علــى آثار جميع الحضارات، بل آثار جميع حركات الإنســان والحيوان والنبات، ولكن لا بد من ملاحظة ما يلي:

١- أن آثــار الإنســان المتوغل في القدم، تكون في طبقات عميقة جــداً، لم تتوصل إليها – حتى اليوم – حفريات العلماء. وربما تكون آثار الإنســان الأول، في الطبقة العجينية، التي لا يمكن دراســة الآثار فيها بالوسائل العلمية المعاصرة.

٢- إن الحروب الذرية تدمر حتى الآثار، خاصة: إذا كانت الكميات الذرية التي اســتخدمت في الحرب، كبيرة جدا. وربما تكون الحروب الذرية، التي عصفت بالأرض في أزمنة بالغة القدم، عديدة ومتنوعة.

٣- إن الحفريات لم تمســح – بعد – قشرة الأرض، ولذلك: يكتشف العلماء – كل يوم – شيئاً جديداً، ولعلهم يكتشفون – في المستقبل – آثار الإنسان القديم، والحضارات التي أقامها.

وإذا اســتطاع العلم أن يســتخلص، من طبقات الجو، الأصوات التي انطلقت قبــل مئات الملايين من السنين، فقد يعرف تاريخ الإنسان الأول.

وإذا اســتطاع العلم أن يقرأ البصمات على ذرات التراب، في الطبقات العميقة من القشــرة الأرضية،

فربما يعرف أنواع الحضارات التي أقامها الإنسان القديم.

❁ ❁ ❁

وقبل أن يغلق القرآن ملف الإنسان القديم، يركز الضوء على نقطتين توجيهيتين:

الأولى: أن الله لم يهمل الإنسان القديم، ولم يتركه لنفسه، وإنما أمده بتوجيهات السماء. فأخذ بالجانب العلمي منها، وترك الجانب التوجيهي منها. فأقام حضارات أسطورية، لم يستطع الإنسان الحديث التوصل إليها. ولكنه دمرها – في نهاية المطاف – ودمر نفسه معها: ((وجاءتهم رسلهم بـ))، القضايا ((البينات))، التي تتغلغل في الأدمغة والقلوب بلا استئذان، ولكنه أعرض عنها، واتبع رغبات التسلط والاستئثار، التي أدت به إلى الدمار.

الثانية: أن فناء الإنسان القديم وحضاراته، إنما تم بفعله، على أثر انسياقه مع نزوات الطغيان التوسعية، ولم يكن نتيجة لضربات الأقدار، التي يمكن للماديين أن يلوموا عليها السماء. فهو الذي يتحمل مسؤولية فنائه، ولا يحق له أن يحمل السماء مسؤوليته: ((فما كان الله ليظلمهم))، أو ليظلم سواهم، لأنه هو الذي قرر المقاييس العادلة، ولا يناقضها... ((ولكن)) الناس هم الذين ((كانوا)) وسيظلون ((أنفسهم يظلمون)).

تمغنط الإنسان بين الموجب والسالب

((ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى : أن كذبوا بآيات الله ، وكانوا بها يستهزئون)) .

[(سورة الروم : الآية ١٠) .

وهذه الآية:

حقيقة علمية أخرى، لم يكتشفها العلم المادي، ولم يتوصل إليها العلماء الماديون، ولن يتوصلوا إليها عن طريق المعامل والمختبرات. ولن يكتشفها غير العلم الكوني الشامل، الذي يدرس الماديات والروحيات معاً، بمقدار ارتفاعهما في واقع الحياة.

وهي: أن الإنسان مزيج مركب من جميع أخلاط كوننا الصغير – ونشدد على كلمة: (كوننا) لأننا لا نعرف تفاصيل الأكوان الأخرى – وهي تفرز – في نهاية دورتها الكمالية – إلى عناصر موجبة يعبر عنها بـ:

(العناصر النورانية)، وإلى عناصر ســالبة يعبر عنها بـ: (العناصــر الظلمانية). والأولى تتفتح على مصدر الكون، وتواكب مسيرة الكون، وفي – نهاية التجربة – تشكل: (الجنة) وكل ما يفرز إليها. والثانية تنغلق عن مصدر الكون، وتناقض مسيرة الكون، وفي – نهاية التجربة – تشكل: (جهنم) وكل ما يفرز إليها.

والروحيات الموجبة – كالأســماء، والكلمات، والملائكة، وأرواح المعصومين من الناس – مخلوقة من العناصر النورانية، أو هي أنوار ذاتها.

والروحيات السالبة – كالشياطين – مخلوقة من العناصر الظلمانية، أو هي ظلمات ذاتها.

أما الروحيات المتوسطة – كالجن، وأرواح الإنسان، والحيوانات، وسائر المكلفين – وجميع الماديات، فهي مخلوقة من مزيج من العناصر الموجبة والسالبة، بنسب مختلفة، بحيث تتطابق الأرواح مع الأجساد.

وهل كانت النسب مختلفة في ابتداء الخليقة، أي: أول ما خلق الله؟

ربما قال قائل: نعم! وأن الله ضحى ببعض المخلوقات – التي جعل فيها نسبة السالبات أعلى – لمصلحة المجمــوع، حتى يكون التناقــض حاداً، والامتحان جــاداً، لأن التكامل لا يأخذ مــداه إلا في جو صراعي متوتر.

ولكن التضحية بالبعض – ولو لمصلحة المجموع – تقبل التفســير بالمحاباة، وترجيح من غير مرجح، لأنهــا – في النهاية – لمصلحة بعض على حســاب بعض، ولا يتورط فيها إلا عاجــز أو ظالم. وأما القدرة المطلقة، في العدل المطلق: فلا تلجأ إلى مثل هذا المأزق.

ولعل الصحيح: أن الله – تعالى – ابتدأ الخلقة بخلائق متوازنة، تتعادل فيها العناصر الموجبة والســالبة، ثم لما طرحت للتجربة – في أول العوالم – انقسمت على بعضها: فمن عمل الخير أكثر، ارتفعت فيه نسبة العناصر الموجبة. ومن عمل الشر أكثر، ارتفعت فيه نسبة العناصر السالبة.

والذين عملوا الشــر، أصبحوا معصومين من أنبيــاء وأوصياء، واختلفت درجاتهم باختلاف مقدار الخير الذي عمله كل واحد منهم.

والذين لم يعملوا الخير، أصبحوا أئمة الكفر، واختلفت دركاتهم باختلاف مقدار الشر الذي عملوه.

والذين لم يعملوا الخير والشر، وكان خيرهم أكثر، أصبحوا صالحين.

والذين كان شرهم أكثر، أصبحوا فاسقين، وعلم بهذا السابق لا ينافى في الاختيار. فالله – تعالى – عدل في البدء، والناس – ومثلهم سائر الخلائق – هم الذين غيروا المعادلات بمحض اختيارهم:

((كان الناس أمة واحدة. فبعث الله النبيين – مبشرين ومنذرين –، وأنزل – معهم – الكتاب بالحق، ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه. وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه، من بعد ما جاءتهم البينات، بغياً بينهم. فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه – من الحق – بإذنه. والله يهدي – من يشاء – إلى صراط مستقيم)) (٢٠٣).

والعناصر الموجبة – في كل مخلوق – تشكل رصيد الخير في ذاته، وتنزع إلى جميع الإيجابيات: ابتداء بالإيمان بالله، ومروراً بالواجبات وانتهاء بآخر المستحبات.

والعناصر السالبة – في كل مخلوق – تشكل رصيد الشر في ذاته، وتنزع إلى جميع السلبيات: ابتداء بالكفر بالله، ومروراً بالمحرمات، وانتهاء بآخر المكروهات.

ومهمة الملائكة، تنشيط العناصر الموجبة في ذات كل مخلوق. ومهمة الشياطين، تنشيط العناصر السالبة في ذات كل مخلوق. ولعل ذلك هو معنى الأحاديث، المتواترة معنىً، التي تؤكد: ((أن في قلب كل إنسان لمتان: لمة الملائكة، ولمة الشياطين...) (٢٠٤).

وبما أن دلالات العناصر الموجبة والسالبة غامضة، لأنها أشبه بالجنين – ولذلك: يعبر عنها بـ: (اللاشعور) –: جاء الأنبياء ليجهروا بدلالات العناصر الموجبة، ويقننوها، ويوظفوها في قنوات واضحة، ثم يسبغوا عليها الشرعية. وجاء الطواغيت: (شياطين الإنس) ليجهروا بدلالات العناصر السالبة، ويقننوها، ويوظفوها في قنوات واضحة، ثم يموهوا قبحها الذاتي. ولذلك: ما بعث الله نبياً إلا وبعث – في الجانب الآخر – طاغوتاً يضاده ويناده. ولم يرفع الله – على خندق – راية حق (من وصي، أو عالم) إلا ورفع – على الخندق الآخر – راية باطل (من داعية إلحاد، أو مسول فساد). أولم يقل الله تعالى: ((وكذلك: جعلنا – لكل نبي – عدواً: شياطين الإنس والجن، يوحي – بعضهم إلى بعض – زخرف القول غروراً. ولو شاء ربك ما فعلوه، فذرهم وما يفترون ۞ ولتصغى – إليه – أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة، وليرضوه. وليقترفوا ما هم مقترفون)) (٢٠٥).

فالعناصر الداخلية – الموجبة والسالبة – سواء توازنت (وهو قليل إن وجد) أو اختلفت (وهو كثير إن

لم يكن الكل)؛ فإن كلاً منهما يجد المشـجعات والأجواء المناسـبة، والله – تعالى – يسهل الأمور لهما معاً، بل قد يعينهما على حد سـواء. وإعانته إياهما، لطف منه عليهما سـيان. لأن مرده إياهما عمل إيجابي يسـاعدهما على تكاملهما، ولا يغيـر طبيعة العمل كيفية توظيفه من قبل الآخريـن: ((وهديناه النجدين)) (٢٠٦)، ((كلاً نمد: هؤلاء... وهؤلاء... من عطاء ربك، وما كان عطاء ربك محظوراً)) (٢٠٧).

فالمدد الكوني، من الله تعالى، مسـتمر لكلتا الجبهتين سـواء بسواء، بواسـطة قاعدة كونية هي قاعدة: (تجاذب الأمثال). فالفاعليات الموجبة تتكتل، كما تتكتل الفاعليات السالبة. فالجبهة الموجبة تلقى الدعم، بتوارد المفردات الموجبة، المنتشرة في الكون، إليها. والجبهة السالبة تلقى الدعم، بتوارد المفردات السالبة، المنتشرة في الكون، إليها.

والإنسـان مجال رحب خصب لكلا الجانبين: فالعناصر الموجبة، تنسـحب على جميع الناس، بنسـب متفاوتة، بمقتضى اختياراتهم في العوالم السـابقة. كما أن العناصر السـالبة، تنسـحب على جميع الناس، بنسـب متفاوتـة، بمقتضى اختياراتهم في العوالم السـابقة. ولكن لا يخلو فرد – سـوى أئمة الكفر – من العناصر الإيجابية، كما لا يخلو فرد – سوى المعصومين – من العناصر السالبة. ويبقى كل فرد بينهما، سيد نفسه وصاحب القرار، فهو يملك الانضمام إلى أي طرف شاء: فإذا اختار طرف الإيجاب، تلقى الدعم الكافي من المفردات الموجبة للارتفاع، وبمعدل ارتفاع نسبة العناصر الموجبة فيه، تنخفض العناصر السالبة فيه، حتى يتخلص – نهائياً – من العناصر السـالبة، ويخلص للعناصر الموجبة، ويبلغ مستوى: (أعلى عليين). وإذا اختار طرف السلب، تلقى الدعم الكافي من المفردات السالبة للانحدار، وبمعدل ارتفاع نسبة العناصر السـالبة فيه، تنخفض نسـبة العناصر الموجبة فيه، حتى يفرغ – نهائياً – مـن العناصر الموجبة، ويتفرغ للعناصر السالبة، ويبلغ مستوى: (أسفل سافلين):

((الله ولـي الذين آمنوا، يخرجهم من الظلمات إلى النور. والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت، يخرجونهم من النور إلى الظلمات، أولئك: أصحاب النار، هم – فيها – خالدون)) (٢٠٨).

وهكذا... يسير الجانبان في خطين متضادين، حتى يقفل الفرد الموجب على الإيجاب فلا يبقى للشيطان فيه نصيب، وحتى يقفل الفرد السالب على السلب فلا يبقى للإيمان فيه نصيب.

إذن: فـكل مـن يأتي إلى هذه الحياة – باسـتثناء المعصومين – يحمل في هيولاه عناصر سـالبة، وهذه العناصر السـالبة تبثُّ ظلمات، وهذه الظلمات تنعكس عليه شراً، وباختلاف نسبة تلك العناصر تكون نسبة الكفر فيه.

وكل مـن يأتي إلى هذه الحياة يحمل في هيولاه عناصـر موجبة، وهذه العناصر الموجبة تبث أنواراً، وهذه الأنوار تنعكس عليه خيراً، وباختلاف نسبة تلك العناصر تكون نسبة الخير فيه.

ونسـتخلص من كل ذلك: أنه لا يخلو إنسان من الشر – باستثناء المعصومين –، كما لا يخلو إنسان من الخير. وهكذا... يمكن أن نفهم الأحاديث الواردة في هذا المجال.

والإنسان يبقى سيد نفسه وصاحب القرار، قبل أن يقفل، فيستطيع التحول من خط إلى خط:

((ضرب الله مثلاً للذين كفروا: امرأة نوح وامرأة لوط، كانتا تحت عبدين من عبادنا الصالحين، فخانتاهما، فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً، وقيل: ادخلا النار مع الداخلين)) (٢٠٩).

((وضـرب الله مثـلاً للذين آمنوا: امرأة فرعون، إذ قالت: رب! ابن لـي عندك بيتاً في الجنة، ونجني من فرعون وعمله، ونجني من القوم الظالمين)) (٢١٠).

((واتل عليهم: نبأ الذي آتيناه آياتنا، فانسلخ منها، فأتبعه الشيطان، فكان من الغاوين)) (٢١١).

((ثم)) وبعد العوالم السـابقة والتجارب السابقة، بقي السـلبيون – من الأمم السابقة – أصحاب القرار، ولكنهم اسـتهانوا بالمحرمات، فارتكبوا واحـدة منها، وهذه الواحدة مهدت للأخـرى، والأخرى للثالثة، وبالتتابع وصلوا إلى المنزلق، حتى ((كان عاقبة الذين أسـاءوا السـوأى)) وهم يظنون: أنهم يرتكبون مجرد محرمات، يستطيعون الإقلاع عنها، والتوبة منها متى شاؤوا، غير شاعرين بأنهم وصلوا إلى نقطة اللاعودة، فانتهـوا إلـى: ((أن)) كفروا بالله، و ((كذبوا بآيـات الله))، وربما توغلوا في الكفر: ((وكانوا يسـتهزئون)) ليمنعوا غيرهم عن التجاوب معها. فأصبحوا من دعاة الكفر، من حيث لا يتوقعون الوصول إلى هذه النهاية، لأنهم أنكروا حقيقة واضحة هي: أن كل من سـار على خط وصل – يوماً – إلى نهايته. والطاعة خط ينتهي إلى الإيمان الخالص، كما أن المعصية خط ينتهي إلى الكفر الخالص.

هذه... سُنَّة الله في الذين خلوا من قبل، وهي... سنة الله في الذين يأتون من بعد. لأن سنن الله – في الحياة – ثابتة، ترفض التحويل والتبديل.

من مزايا الإنسان

((ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى: أن كذبوا بآيات الله، وكانوا بها يستهزئون)).

[(سورة الروم: الآية ١٠)].

١- لعل أغرب ظاهرة في الإنسان، رغم صغر كتلته، وبساطة مظهره؛ أنه ملتقى مجموعة هائلة العدد، من طاقات الأرض وطاقات السماء. حتى أنه لم يكتشف العلم شيئاً من طاقات الأرض، إلا وهي موجودة في الإنسان. وحتى أنه لم يكشف الدين عن شيء من طاقات السماء، إلا وهي موجودة في الإنسان. ولم يكشف الدين – ولا العلم – عن كتلة أخرى، تكون جامعة لكل طاقات الأرض والسماء، ككتلة الإنسان.

٢- ولعل أغرب ظاهرة في حياة الإنسان، أن كل طاقة من هذه الطاقات – المتجمعة في الإنسان – قابلة للتنمية والتضخيم: فالإنسان يستطيع تنمية جسمه فقط، ويستطيع تنمية يده وحدها، أو رجله وحدها، أو سامعته فقط، أو عينه فحسب... كما يستطيع تنمية روحه فقط، ويستطيع تنمية طاقة من طاقات روحه، بحيث يتخصص فيها حتى درجة التفوق، فينمي طاقة: السياسة، أو الرياضيات، أو الأدب، أو الفقه، أو الفلسفة، أو الطب...

٣- ولعل أغرب من كل مظاهر الإنسان، أن كل شيء في الحياة يستهلك بالحركة، غير الإنسان، فهو ينمو بالحركة. وأن كل شيء يحتفظ بكامل كيانه وهيئته، بالجمود – إذا كان في وضع صحي – إلا الإنسان، فهو يتضاءل بالجمود، مهما كان وضعه صحياً. فلا يحتاج الإنسان في تنمية جسده – أو بعض جسده – إ إلى تحريكه بشكل مناسب، حتى ينمو بمقدار تلك الحركة. ولا يحتاج في تنمية روحه – أو إحدى طاقات روحه – إلا إلى تحريكها بشكل مناسب، حتى تنمو بمقدار تلك الحركة. وهذه الدينامية الخاصة بالإنسان، تدل على أن كل فرد منه، عضو متصل بالكون، في شقيه: المادي والروحي – رغم أنه يبدو وحدة متكاملة، منفصلة عن بقية الكون – بدليل أنه يأخذ من الكون عندما يحتاج إلى الأخذ، والحركة تعني الحاجة. والكون يأخذ منه كلما استغنى عن شيء منه، وعدم الحركة يعني الاستغناء.

٤- والخير والشر طاقتان من طاقات الروح:

فإذا تحركت فيه طاقة الخير بشكل مناسب – والدين مقياس الشكل المناسب – تنمو فيه طاقة الخير، حتى تبلغ قمتها، وهي الإيمان الكامل، الذي تلازمه العصمة الكبرى، التي لا ينبض معها حنين فيه إلى

الشر، مهما فبركته الظروف في اتجاه الشر.

وإذا تحركت فيه طاقات الشـر بشكل مناسب – ومخالفة الدين مقياس الشكل المناسب – تنمو فيه طاقة الشر، حتى تبلغ قمتها، وهي الإلحاد الكامل، الذي لا ينبض معه حنين فيه إلى الخير، مهما فبركته الظروف في اتجاه الخير.

ويدل على أن تحريك طاقة الخير ينتهي بالعصمة الكبرى، قول الله تعالى – في شأن الأنبياء، والملائكة –:

((وما كان لنبي أن يغل...)) (٢١٢).

و: ((... لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون)) (٢١٣).

ويدل على أن تحريك طاقة الشر ينتهي بالإلحاد الكامل، قول الله تعالى – عن أهل النار –:

((... ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، وإنهم لكاذبون)) (٢١٤).

فعمل الخير البسيط، خطوة على طريق الخير، الذي ينتهي بالإيمان المطلق.

وعمل الشر البسيط، خطوة على طريق الشر، الذي ينتهي بالإلحاد المطلق.

هكـذا... يبدو من الطبيعي، أن تكـون عاقبة الذين يعملون الخير هي الإيمـان، وأن تكون عاقبة الذين يعملون السوء هي الإلحاد.

ضرورة العاطفة

((ومن آياته:

أن خلق لكم – من أنفسكم – أزواجاً، لتسكنوا إليها. وجعل – بينكم – مودة ورحمة. إن في ذلك لآيات لقوم

يتفكرون)).

[(سورة الروم: الآية ٢١).

قبل أن ندخل في تفسير الآية، لا بد من تفسير العاطفة، وتبريرها:

١- تفسير العاطفة:

العاطفة طاقة عمياء وجامحة، تسيطر على العاطفيين، وتغالب الفكريين. وهي طاقة تريد، ولا تبحث عن تبرير لما تريد. فلماذا خلقها الله؟

٢- تبرير العاطفة:

خلقها وقوداً يحرك الإنسان. ولولاها، لما تحرك العاطفيون. ولا الفكريون، إلا قليلاً.

ذلك: أن الله – تعالى – خلق الفكر ضياء ينير درب الإنسان، ويوضح له طريق الخير عن طريق الشر، حتى لا تتشابك أمامه الطرق. ولكن طاقة الفكر لا تطيق تحريك الإنسان، فهو خلود إلى الأرض، ولا يتحرك في اتجاه الخير إذا رآه، ولا يتحرك في الاتجاه المضاد للشر إذا رآه، وإنما هو بحاجة إلى طاقة دافعة، لا تدعه يخلد إلى الأرض.

ولذلك: خلق الفكر، وخلق – وراءه – العاطفة، تسنده وتدفع إليه. فجاءت كل عاطفة خلف فكرة تنسجم معها، لتأمين إحدى ضرورات الوجود.

فمثلاً: تسلسل البشر، ضرورة من ضرورات الوجود. وكانت فكرة تكوين الأسرة من نواة إيجابية ونواة سلبية: رجل وامرأة، تؤمن تسلسل البشر. ولكن: أي رجل مستعد لتحمل الأسرة؟ وأية امرأة مستعدة لتحمل الإنجاب؟ لا أحد... غير المؤمنين القلائل، الذين بلغ بهم الإيمان درجة التضحية. وهم لا يستطيعون تأمين تسلسل البشر، لقلة عددهم، وتسلسل البشر يحتاج إلى اشتراك أكثر الناس في هذا المجال. ولما انتهى دور الفكر في كشف هذه الضرورة، ولم يتحرك الناس، جاء دور العاطفة، التي تحرك الناس بلا نقاش، في اتجاه هذه الضرورة. فرغم أن العاطفة طاقة عمياء، كثيراً ما ترمي بالناس في المهالك، ولكن لا بد منها رغم أخطارها، إذ لا يستطيع تأمين هذه الضرورة، غيرها.

وضرورة تسلسل البشر حياتية، فلا بد من تأمينها بالفكر إن أمكن وإلا فبالعاطفة، رغم ما تكبد الأفراد من تضحيات، لأن المصلحة العامة تبرر التضحية بالمصالح الخاصة.

ففلسفة العاطفة، هي: أنها القوة التنفيذية للفكر، ودورها دفع الناس في الاتجاه الذي يعبِّده الفكر.

الدين القيم

((فأقم وجهك للدين حنيفاً، فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله. ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون)).

[(سورة الروم: الآية ٣٠).

هنالك: تصورات تعتبر الدين عنصراً دخيلاً في الوجود، فرضه الله على البشر، لمجرد ممارسة سلطانه عليهم، وإشعارهم بربوبيته. فالجبان الخانع، يتمسك به، تخلفاً وقلة حيلة. والشجاع اللامع، يتمرد عليه، ويمارس رغباته، ثم يقنعه – آخر الأمر – بالاعتراف أو الاستغفار، دهاء منه وتقلباً.

وتعتمد هذه التصورات على إسرائيليات تقول:

إن يعقوب (ع) صارع الله، من أول الليل إلى آخره، فلما طلع الفجر صرعه، وانتزع منه البركة – أي: النبوة –.

وإن إبراهيم (ع) دعا الله إلى خروف، فأكله بالجملة.

واختفى آدم (ع) منه خلف شجرة في الجنة، فلم يعرف الله مكانه.

وإلى آخر ما هنالك من مفتريات، لفقها المتاجرون باسم الدين، ضحكاً على ذقون جهلة في القرون الخالية، ثم بقيت... مع ما بقي من آثار – تفسر أفكار الناس في تلك القرون.

ولست أدري: كيف تستطيع هذه التصورات الساذجة، أن تفسر الجمع بين الدقة في الخلق والبساطة في المعاملة؟! فإذا كان الله، هو الذي خلق كل شيء، بهذا الإتقان الهائل الذكي؛ فكيف يعامل الناس بهذه البساطة المتناهية؟!

إن أصحاب هذه التصورات، يعاملون الله بما لا يعاملون به أسيادهم وحكامهم، وكان أولئك – لديهم – أذكى وأدق من الله. والعياذ بالله.

بينما الله خلق كل هذا الكون الرحيب، الحافل بكل غامض ورهيب. وكل هذه الحيوانات المتداخلة، من القوى الخيرة والشـــريرة. وكل هذه الأجيال، من البشـــر الصغير والكبير. إن الله الذي خلق كل هذا... أحكم من أن يستطيع البشر تصور أي جانب من جوانب عظمته، أ ولم يقل الإمام (ع): (ما عرفتك حق معرفتك) (٢١٥)؟!

إن دراسة أصغر شيء من مخلوقاته، تكفي للدلالة على مدى غباوة هذه التصورات.

فجاءت هذه الآية تدحض تلك التصورات، وتعرض نســب الإســلام وواقعه فــي الكون، وبيان أنه جزء مكمل من النظام العام في الكون، وأنه ليس طارئاً أو دخيلاً على الوجود.

فالله – تعالى – عندما بدأ الخلق، بدأه وفق نظام عام متناسق:

فخلق الكون من نوره، وكان باستطاعته أن يخلقه من لا شيء – كما خلق نوره من لا شيء –، ولكنه لم يفعل.

وخلق السماوات والأرض في ستة أيام – حسب تعبير القرآن –، وكان باستطاعته أن يخلقهما في لحظة أو في أكثر من ستة أيام، ولكنه لم يفعل.

وخلق الملائكة، والشــياطين، والجن، والإنســان، والحيوان، والنبات... كلاً من أصل معين، وقرر لها – جميعاً – نظاماً إدارياً عاماً واحداً، وســير كل هذه الأشياء وفق ذلك النظام، فجعلها تتفاعل وتتلاقح وفق المقاييس الدقيقة الخاصة – ضمن ذلك النظام –:

((... ربنا: الذي أعطى كل شيء خلقه، ثم هدى)) (٢١٦).

((والشمس تجري لمستقر لها)) (٢١٧) وفق ذلك النظام.

((والقمر قدرناه منازل...)) (٢١٨) وفق ذلك النظام.

((... والنجوم مسخرات بأمره...)) (٢١٩) وفق ذلك النظام.

((... كل في فلك يسبحون)) (٢٢٠) وفق ذلك النظام...

(٣١)

سورة لقمان

مكية

وهي أربع وثلاثون آية

عمل الإنسان في الكون

((يا بني!

إنها إن تك مثقال حبة من خردل، فتكن:

في صخرة،

أو في السماوات،

أو في الأرض،

يأت - بها - الله.

إن الله لطيف، خبير)).

[(سورة لقمان: الآية ١٦)].

إذا أردنا أن ندرس عمل الإنسان في الكون، لا بد أن تسبقه دراسة الإنسان في الكون. وإذا أردنا أن ندرس

الإنسان في الكون، لا بد أن ندرس الكون ذاته:

١- الكون:

مؤسسة نامية، تحمل – في ذاتها – عنصر النمو من ناحيتين: ناحية نمو كل شيء منه، وناحية التكاثر بالتوالد.

فكل شيء في الكون يكبر ويولد؛ إذا بقي في مكانه الذي وضعه الله فيه.

هذان: (النمو، والتكاثر) اللذان نراهما – بوضوح، وبسرعة – في الحيوانات بأنواعها... والنباتات بفصائلها... لا يختصان بالحيوانات والنباتات، وإنما هما موجودان في كل شيء من هذا الكون: فذرات الرمال، تنمو وتتكاثر، مع آلاف السنين. والجبال، تنمو وتتضخم، مع ملايين السنين. والذرات السابحة في الفضاء، تكبر وتتوالد، ثم تتلاحم، وتتكور نجوماً، مع مليارات السنين. والعناصر شبه الأولية – كالأوكسجين – تنمو جزيئاته وتتكاثر، فلا تقل نسبته في الهواء مع تكاثر استهلاكه بتنفس الحيوانات والمحروقات. وهكذا... كل شيء في الكون، دائب في النمو والازدياد، ما دام الكون – بصورة إجمالية – دائباً في التوسع. فكما أن الشجرة لا يمكن أن تنمو إلا بنمو كل جزء من أجزائها؛ كذلك الكون، لا يمكن أن ينمو إلا بنمو كل جزيئة من جزيئاته:

((والسماء بنيناها بأيد، وإنا لموسعون)) (٢٢١).

وكما أن للكون (حركة النمو)؛ له حركة أخرى هي: (حركة التطور)، فجزيئاته تتفاعل مع مثيلاتها. وهذا التفاعل، يؤدي إلى أن مجموعة متفاعلة من جزيئاته، تتقمص صيغة وجودية معينة، فتكون: شجرة، أو بحراً، أو جبلاً، أو حيواناً، أو سحاباً... وهذه الكتلة من الجزيئات المتفاعلة، لا تتقمص صيغة وجودية معينة، إلا إذا سلطت عليها روح معينة: جمادية، أو نباتية، أو حيوانية، أو غيرها من سائر الأرواح.

وقلما تتعلق الروح بكتلة كبيرة، كنجمة. فغالباً: تتعلق الروح بكتلة صغيرة من الجزيئات المتفاعلة – كالبويضة بالنسبة إلى الحيوان، والبذرة بالنسبة إلى النبات – فتساعد الروح تلك الكتلة الصغيرة على التقاف الجزيئات المتناسبة معها، وضمها إلى تلك الكتلة.

وهذه العملية – عملية التقاف الجزيئات، وضمها إلى تلك الكتلة – هي: عملية النمو.

وعملية النمو لها جانبان:

فبالنسبة إلى الخلية الحية الأولى، هي: (حركة نمو).

وبالنسبة إلى الجزيئات المنضمة إليها: (حركة تطور).

فتلك الجزيئات، تتطور، حتى تصبح أجزاءً في الكيان النامي: فالتراب يغادر صيغته الترابية عندما يصبح نباتاً، والنبات يسلخ صيغته النباتية عندما يصبح حيواناً...

وإن كانت العناصر شبه الأولية لا تتطور، فالأوكسجين – مثلاً – يبقى هو هو في الهواء، وفي الماء، وفي النبات، وفي الحيوان. وإنما تتطور المركبات:

فالتراب، المركب من مجموعة معينة من العناصر شبه الأولية، لا يتطور نباتاً، إلا بعد أن يفسخ تركيبه الترابي، ويركب تركيباً نباتياً.

والنبات، المركب من مجموعة معينة من العناصر شبه الأولية، لا يتطور حيواناً، إلا بعد أن يفسخ تركيبه النباتي، ويركب تركيباً حيوانياً.

وهي: عملية (الحياة الدنيا).

وحركتا: (النمو، والتطوير) تتبعان نشاط الروح المسلطة على الخلية الحية الأولى، فبمدى نشاط تلك الروح يقدر مدى قدرة الخلية على النمو والتطوير. ومن هنا، يكون الاختلاف في حجم الأجسام الحية: من حبة رمل إلى جبل، ومن نبتة مستلقة إلى شجرة باسقة، ومن دودة مجهرية إلى الفيل والكركدن...

ولدورة العمر فترتان: فترة النمو، وفترة الانهيار. ففترة النمو هي: فترة ممارسة الروح نشاطها في التقاف الجزيئات المتناسبة، وضمها إلى الخلية الحية الأولى. وتلك ما نسميها بـ: (فترة الشباب). وفترة الانهيار هي: فترة فتور الروح في التقاف الجزيئات المتناسبة، وضمها إلى الخلية الحية الأولى.

وبما أن (الحرارة الغريزية) مستمرة في استهلاك الخلايا الحياة في الأجسام؛ لا تبدأ فترة فتور الروح في التقاف الجزيئات المتناسبة، إلا ويبدأ الكيان النامي في التضاؤل والضمور. وتلك ما نسميها بـ: (فترة الهرم) أو (الشيخوخة).

غيـر أن لعمليــة التعاقد بين الخلية الحية الأولى، وبين الروح المســلطة عليها؛ مدى معيناً، يختلف من شــيء إلى شيء. ومدة ذلك التعاقد، هي التي نســميها بـ: (العمر). فلكل شيء، عمر محدود، لا ينتهي إلا ويبــدأ الكون – عبر أجزائه الحية الأخرى – في فســخ ذلك الكيان النامــي، وتركيب جزيئاته تركيبات حيــة أخرى، حتى تتفرق تلك الجزيئات الملتقفة – تماماً – ويعود ذلك الشــيء النامي المطور، إلى حالته السابقة، خلية حية فقط. وهي عملية: (الموت).

مــن هنا: يظهر – بوضــوح – أن الكون دائب في أعماله بدقة واعية، دون أي خطأ أو تذبذب، وبشــكل حكيم، لا يمكن للإنســان أن يســتوعبه، إلا وينحني له ويعترف به. ومن هنا قيل: (لو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع).

٢- ... والإنسان:

باعتباره جزءاً من أجزاء الكون – فيما عدا تصرفاته الاختيارية – تجري فيه سنة الكون: فله عمر محدود، ولعمــره فترتا النمو والانهيار، ويمارس حركيته بالدقة والحكمة؛ اللتين لو كانتا في أعماله الاختيارية لكان كل الناس عظماء. ولكن عقله لا يستوعبهما، وضعفه يقعده عن ممارسة ما يستوعب منهما.

غير أن دقة الكون وحكمته تظهران – بوضوح – في أعمال خلاياه وأجهزته، بدون أي خطأ أو تردد.

٣- ... وعمل الإنسان:

باعتباره حركة تجري في الكون؛ يعاملــه الكون بالدقة والحكمة، الظاهرتين في جميع تحركاته، بدون أي خطــأ أو تردد. فعمل الإنســان – فكريــاً كان أم عضلياً – موجة تنطلق في الكــون، فتحدث تفاعلات متسلسلة باقية، تلتقي مثيلاتها وتنمو: (من سنَّ سنة حسنة، فله: أجرها، وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة. ومن سنَّ سنة سيئة، فله: وزرها، ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة) (٢٢٢).

فتتفاعل الأعمال وتتوالد، وتظهر في الوقت المناســب: كما تظهر البــذور، المبددة في الأتربة والرمال، فصل الربيع. وكما تظهر البويضات، المتفرقة في أعماق البحار، في مواســمها. وكما تظهر الأوراق والورود والثمار، من الأغصان اليابســة، في أحيانها. وكما تهيج الحيوانات، بالجنس، في أوقاته. وكما تنعقد ذرات البخار سحاباً، إذا انخفضت درجة الحرارة في الهواء بنسبة معينة...

فكيف يمكن أن يضيع عمل الإنسان في أرشيف الكون؟!:

((ووضـع الكتاب، فترى المجرمين مشـفقين مما فيه، ويقولون: يا ويلتنـا! مال هذا الكتاب لا يغادر صغيـرة ولا كبيرة إلا أحصاها؟!، ووجـدوا – ما عملوا – حاضراً. ولا يظلم ربـك أحداً)) (٢٢٣). فالكون الذي لا ينسى أي شيء، وإنما يستوعب كل شيء، ويصونه، ويأتي به في الوقت المناسب؛ هل ينسى عمل الإنسان؟!

ولقد عرف البشـر – متأخراً –: أن دماغ الإنسان يحدث موجات (كهرطيسية). وأن تفكير الإنسان، ليس إلا موجات شـعاعية موجهة، تنطلق من (خلايا) الدماغ في اتجاهات معينة، وتتفاعل مع الإنسـان – نفسه – قبل أن تتفاعل مع غيره، وتجري في دمه، وتنعكس على سلوكه:

((اليوم: نختم على أفواههم، وتكلمنا أيديهم، وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون)) (٢٢٤).

وثبت: أن الطاقة لا تفنى ولا تزول، وإنما تبقى سابحة في آفاقها:

((قال: فما بال القرون الأولى؟ ۞ قال: علمها عند ربي في كتاب. لا يضل ربي، ولا ينسى)) (٢٢٥).

وعرف الإنسـان – متأخراً –: أن الكلمات تبقى خالدة في الفضاء، ويمكن الاستماع إليها – في أي وقت – بأجهـزة خاصة. وأن تحركات الإنسـان – وغير الإنسـان – تصور على كل ما يحيـط به، من الجمادات والأشـجار والذرات المتحركة في الفضاء، حتى يمكن معرفة حجم الجسـم المتحرك ووزنه – ويعني بهذا الأمر علم الـ (سيكومتري) –:

((ويوم يحشـر أعداء الله إلى النار؛ فهم يوزعون ۞ حتى إذا ما جاؤوها؛ شـهد – عليهم –: سـمعهم، وأبصارهم، وجلودهم؛ بما كانوا يعملون ۞ وقالوا – لجلودهم –: لِمَ شـهدتم علينا؟ قالوا: أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء، وهو خلقكم أول مرة، وإليه ترجعون ۞ وما كنتم تستترون أن يشهد – عليكم –: سمعكم، ولا أبصاركـم، ولا جلودكم. ولكن ظننتـم: أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ۞ وذلكم – ظنكم الذي ظننتم بربكم – أرداكم، فأصبحتم من الخاسرين)) (٢٢٦).

فتبقى السـيئات ثابتة كما تبقى الحسـنات، ولا تمحوها التوبة، فـ (التائـب من الذنب كمن لا ذنب له) (٢٢٧)، ولكن لا تمحو عنه ذنبه. والله – تعالى – لا يمحوه عن المسـتغفر، وإنما يسـتره فقط، فيغيبه عن الأبصار، ولا يفنيه نهائياً. فوعد الله التائب إليه، والعائد إليه نصوحاً؛ أن يتوب عليه، ويعود إليه، فلا يبعده – أبدياً – عن حضرته، ووعد طالب المغفرة بالغفران؛ الذي هو الستر فقط.

فكل شـــيء من عمل الإنســـان – خيراً أو شراً – ثابت، ينعكس عليه، وإن كان معرضاً للتفاعل، الذي ينتهي بالغلبة أو الانكفاء:

فالخير: إذا ارتفعت نســبته – يســبغ صاحبه، حتى لا يبدو عليه الشر، وإن كان باقياً بالفعل. والشر – إذا ارتفعت نسبته – يسبغ صاحبه، حتى لا يبدو عليه الخير، وإن كان باقياً بالفعل:

((... إن الحســنات يذهبن السيئات...)) (٢٢٨)، فالحســنات يذهبن السيئات، وهذا دليل وجود السيئات رغم كثرة الحسنات، فلا يمكن ذهاب شيء غير موجود:

((... وحبــط ما صنعوا فيها، وباطــل ما كانوا يعملون)) (٢٢٩)، فالله يحبط مــا صنعوا، ويبطل ما كانوا يعملون، وهذه التعبيرات دليل وجود ما صنعوا وما كانوا يعملون.

فكما أن الألوان قد يغلب بعضها بعضاً، واللون المغلوب تبقى جزيئاته قائمة. وكما أن الصفات قد يطغى بعضها على بعض، والصفة الطاغي عليها تبقى ثابتة... كذلك الحســنات والســيئات، بعد تفاعلها، وغلبة بعضها على بعض. فلا شيء من عمل الإنسان يفنى فناءً مطلقاً – كأن لم يكن –، وإن كان يضمر ويتقلص. لأن الطاقة لا تفنى، والمادة لا تفنى. وعمل الإنســان، إما طاقة أو مادة، وليس شــيئاً ثالثاً يمكنه الخروج من حيز الوجود. ولعل إلى شيء من ذلك، أشار الإمام علي (ع)، في كتابه إلى نجله الحسن (ع): (واعلم: بأنك طريد الموت، وأسير الحياة) (٢٣٠).

فلقمان، عندما قال لابنه:

((يا بني! إنها إن تك مثقال حبة من خردل، فتكن: في صخرة، أو في الســماوات، أو في الأرض؛ يأت – بها – الله. إن الله لطيف، خبير))؛ لم يزد على أن ألفت ابنه، إلى أن عملك جزء من الكون:

فكما أن الله يأتي بكل شــيء – من الطاقات والأشــياء، المتبددة في أبعاد الفضاء، وأعماق الأرض – في الوقت المناسب؛ هكذا... يأتي بعملك في الوقت المناسب.

وكما تبقى عليك آثار: الطقس، والمناخ، والطعام، والشــراب، والاستنشاق... كذلك... تبقى عليك آثار: أفكارك، وكلماتك، وتحركاتك...

وكما أن الكون لا يبذل مجهوداً إضافياً، عندما يخرج أي شــيء عن مكمنه في موســمه، وإنما يمارس

سنته؛ أيضاً لا يبذل مجهوداً إضافياً، عندما يخرج عملك من مستودعاته في: جسمك، وفي سائر الأجسام والأجرام... وإنما يمارس سنته فقط.

هذا الواقع البسيط، الذي تتوقعه من الكون، وتبني حياتك على أساسه في: الجاذبية، والزراعة، والصناعة، وحتى في جسمك...؛ عليك أن تعرف أن أعمالك ليست مستثناة منه، وإنما هي أجزاء منه لا أكثر.

فكما تطَّرد سنن الكون في كل شيء؛ تطرد في أعمالك أيضاً.

كلمات الله

((ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام، والبحر يمده – من بعده – سبعة أبحر؛ ما نفدت كلمات الله. إن الله عزيز حكيم)).

[(سورة لقمان: الآية ٢٧)].

إذا تأملنا المواد الأولية لكل المخلوقات الكونية، نجدها أنواعاً من الأمواج المنطلقة من مصدر غير محدد. فجميع الأجرام الكونية مركبة من الذرات الكونية المتحركة في جميع الاتجاهات، وهي التي تتفاعل مع بعضها: فتتولد كريات ميكروسكوبية، وتترسب على كل الأجرام، فيكبر حجمها بانتظام.

وهذه الذرات تتولد من تفاعل أمواج الأشعة المختلفة، التي – هي بدورها – تتحرك في جميع الاتجاهات بانضباط عجيب، وتتفاعل بدقة غريبة.

وهذه الأشعة أنواع كثيرة. وتلك الذرات الكونية أنواع كثيرة كما أن الأجرام أنواع، وولائد تفاعلاتها أنواع لا يحصيها إلا الله.

وإذا افترضنا أن (النور) – الذي يطلق على جميع أنواع الأشعة – هو: (المادة الأولية) التي من مشتقاتها جميع المخلوقات المادية: كالسماوات، والأرضين، وما فيها، وما بينها؛ فإن الفضول يدفعنا إلى أن نمتدَّ بأذهاننا إلى أمرين:

١- مصدر اشتقاق النور.

٢- القدرة التي تحرك النور، وتلقح قدراً من هذا الشعاع بقدرين من ذلك الشعاع، بضعفيهما من شعاع ثالث؛ فتتولد ذرة معينة. وتزيد في نسبة هذا الشعاع، وتنقص من نسبة ذلك الشعاع؛ فتتولد ذرة أخرى. وهكذا... باختلاف الأشعة، وباختلاف النسب؛ تتولد أنواع كثيرة من الذرات.

ويمكن أن نقول: إن مصدر النور (كلمة الله). قال الله كلمة فكان النور، أو: قال الله كلمات فكانت كل كلمة شعاعاً، وبتعدد كلمات الله تعددت الأشعة.

وأما القدرة التي تحرك الأشعة، وتلقحها ببعضها، وتولد الذرات، ثم تلقح الذرات، وتولد الكريات، وهكذا... فهي – أيضاً – كلمات الله، ولكنها كلمات من نوع آخر.

هذه خلاصة الأحاديث التي تبحث في: التكوين، وكيفية تنشئة الأكوان، والكونيات.

صحيح: أننا لا نفهم طبيعة كلمات الله، ولا كيفية تطورها إلى الأشعة، ولا كيفية توجيهها للأشعة إلى تفاعلاتها المختلفة، ولا كيفية سيطرتها على حركة الذرات والأجرام وولائدها؛ ولكننا – حسب الروايات – نفهم:

أن كلمات من الله تطورت إلى الأشعة الكونية المختلفة. كما نفهم: أن القوى المحركة للأشعة، وكل مشتقاتها، كلمات أخر من الله.

وهذا النوع الثاني من الكلمات، هي التي تولد: الجاذبية، والدافعية، والنسبية العامة، وكل المعادلات والأوضاع التي تؤدي إلى التفاعلات والتوالدات الهائلة في هذا الكون الرحيب.

من كل ذلك، نستخلص نوعين من كلمات الله:

النوع الأول:

الكلمات التوليدية، وهي المتغيرات، أي: المواد الكونية الأساسية. فكل كلمة منها مادة تتفاعل وتتغير، ولكنها خالدة لا تفنى ولا تنتهي.

النوع الثاني:

الكلمـات التوجيهية، وهي المغيرات – أو المدبرات –. فكل كلمة منها قوة فاعلة، تحرك مادة معينة، بشكل معين، وباستمرار؛ لأنها خالدة لا تفنى ولا تنتهي.

والكلمات التوليدية كثيرة، ومنتشرة، لا يمكن الإحاطة بها لغير الله. ولكن يستطيع الفرد من البشر استيعاب بعضها المتناسب معه، كما يستطيع شرب مقدار معين من الماء، واستنشاق كمية معينة من الهواء.

والكلمات التوجيهية كثيرة، ومنتشـرة، لا يمكن الإحاطة بها لغير الله. ولكن يسـتطيع الفرد من البشـر استيعاب بعضها المتناسب معه، كما يستطيع تعلم بعض العلوم، وفهم بعض المعادلات.

والكلمات التوجيهية – على العموم – أهم، لأنها حاكمة على الكلمات التوليدية.

وكما أن بعض الكلمات التوليدية أهم من بعض، كذلك: بعض الكلمات التوجيهية أفضل.

كلمات الله أيضاً

ذلـك أن كل ذرة مـن ذرات الكـون – في ذاتها – قائمة بكلمة من كلمـات الله، أو بأكثر من كلمة. وفي حركتهـا، قائمة بكلمة من كلمـات الله، أو بأكثر من كلمة. وإذا كانت ذرات الكون – في ذواتها، وحركاتها – أكثـر من أن يحصيها إلا الله، فكلمات الله أكثر من أن يحصيها إلا الله. حتى... ولو كانت أشـجار الوجود – كلها – أقلام على سـبعين ضعفاً، وحتى... لو مدَّ البحر – بعده – سـبعون بحراً. إن كل ذرة من الماء، لا تكفـي مداداً لتكتب عن ذاتهـا وحركاتها، بالمقدار الكامل. بل لا بد من ذرات كثيرة من الماء، مداداً لكتابة: نشأة وتاريخ ذرة واحدة من الماء.

ومعنـى ذلك: أن البحار تحتاج إلى أكثر من سـبعة أبحر، حتى تكفي مـداداً للكتابة عن البحار، فقط: فكيف تكفي البحار الموجودة مداداً لكتابة جميع ذرات الوجود، وتحركاتها، وتفاعلاتها؟!

(٣٢)

سورة السجدة

مكية

وهي ثلاثون آية

(٣٣)

سورة الأحزاب

مدنية

وهي ثلاث وسبعون آية

الأسوة الحسنة

((لقد كان لكم في (رسول الله) أسوة حسنة؛ لمن كان: يرجو الله، واليوم الآخر، وذكر الله كثيراً)).

[(سورة الأحزاب: الآية ٢١).

– ١ –

إن الله – تعالى – اختار نبيه الكريم لمؤهلات كثيرة اجتمعت فيه، ثم جعله أسوة للمسلمين، فقال:

((لقد كان لكم في رسـول الله أسـوة))، فاقتدوا به، وحاولوا التحليق إلى مسـتواه، وإن لم تصلوا إلى مسـتواه بالفعل، فهو القمة التي لا تطال. ولكن في محاولة التحليق إلى مسـتواه، تصعيد لمستوياتكم إلى أقصى ما تزخر به إمكاناتكم، واستنفاد لطاقاتكم في طريق الكمال.

وإن كنتم في ريب من بعض صفاته أو كلها، وتشكونا في أنه بجميع صفاته أسوة،، أو أن في مجموعة صفاته صفات غير حميدة لا تنبغي محاولتها؟؛ اطمئنوا إلى أن كل صفاته فاضلة تجدر محاولتها.

فهو أسـوة ((حسنة)) تشـد المتمثلين بها إلى السماء. وتقربهم إلى الله والدار الآخرة. وهو مثل أعلى، لا تهضمـه عقول الضعفاء من أصحاب الأغراض الرخيصة والأهداف الدانية. فمن ينكب على دنياه المحدودة، ويسـتغني بمصالحه الموقوتة؛ لا يفهم شخصية بعيدة المدى كشخصية الرسول. وإنما الرسول خير أسوة

لمن يتجاوز الذات، وكل حدود الذات، وكل رغبات الذات. وإنما هو أســوة لمن تطمح به الآمال إلى ما وراء الأفق المحدود بالزمان والمكان، فهو أسوة لمن له أمل بالله وأمل باليوم الآخر.

إن الرسول مثل أعلى، وعلى الناس – جميعاً – أن يتأسوا به. ولكن إذا وضعنا في تقديرنا لزوم التقارب بين الأسوة والمتأسي حتى يتم الانسجام بينهما، فالرسول أعلى من أن يكون أسوة لمن يرجو الذات واليوم الحاضر، وإنما هو أســوة ((لمن كان يرجو الله واليوم والآخر))، ولا يحرم أحد من توجيهه كأســوة، ولكنه أسوة مباشرة لأصحاب المطامح البعيدة، وهم أسوات لأصحاب الرغبات القريبة.

وتخصيص أصحاب المطامح البعيدة، لأمرين:

١- إعطاؤهم الأفضلية، وتقديرهم، وتشــيعهم على الانطلاق نحو الرسول أسرع... فأسرع... فالرسول أسوتهم المباشرة، وهم المخصصون بالتأسي به.

٢- إشــعار أصحاب الرغبات القريبــة بأنهم مؤمنون من الدرجة الثانية، وتأنيبهم بتخلفهم، عســى أن ينبض فيهم الحنين إلى الارتفاع.

ومن بلاغة هذه الآية، أنها اســتخدمت التشجيع لأصحاب المطامح البعيدة، والتأنيب لأصحاب الرغبات القريبة. فكأنها تقول للصنف الأول: الرسول أسوتكم، فالتحقوا به. وتقول للصنف الثاني: الرسول أسمى من أن يكون أســوة لكم. ذلك: أن الرعيل الأول من الناس، أصحاب مشاعر مرهفة، يحركها التشجيع ويدوخها التأنيب. بينما الرعيل الثاني من الناس، أصحاب مشاعر بليدة، يخدرها التشجيع ويحركها التأنيب.

ولنأخذ مثلاً منا – نحن المؤمنين – في الأجيال المعاصرة: نغفو على الكلمات المعسولة، إن ربتت على أكتافنا. ولكن الكلمات القاســية، إن انقضّت علينا، فســتحرك فينا عرق الثأر لكرامتنا الموهومة؛ أن يعلن أنها موهومة.

فلقد قال القرآن:

((لقد كان لكم في رسول الله أسوة)).

ولكن الذهنية العامة، تحاول تخليص نفســها من هذه (الأســوة) التي أصبحت وكأنها كابوس لا بد من التخلص منها بأي أسلوب.

فإذا قيل لمن يمثل الذهنية العامة: (الرســول أســوة لك، وقد فعل ما لم تفعل، ولم يفعل ما تفعل)، أجاب: (وأين أنا من الرسول؟! ذلك كان معصوماً من عند الله، وكان نبياً و (آدم) بين الماء والطين، وقد كان الله يرعاه وهو يتقلب بين الأصلاب الشــامخة والأرحام المطهرة... وأنا أحد هؤلاء الناس، الذين هم أخصب مرعىً للشيطان، فهل تريدني أن أجاري الرسول؟).

وهكذا... أقام الجيل المؤمن المعاصر، بينه وبين الرسول الأسوة، جداراً رهيباً، لا يردمه التشجيع، ولكن قد يردمه التأنيب إذا قيل له: (إن الرســول أعلى من أن يكون أسوة مباشرة لك). فيندفع نحو الأعلى، ليثبت أن الرسول أسوة مباشرة له.

– ٢ –

١- الثقلان: كتاب الله، ورسول الله (ص). وبعد رسول الله (ص)، عترته الذين هم امتداداته عبر الأجيال.

٢- قد يقال: كتاب الله، مجموعة من إرادات الله. والرسول وعترته، مجموعة من خلق الله المفرز من إرادة الله. فالكتاب صادر من الله مباشــرة، وأما الخلق فهو صادر من الله بواسطة الإرادة. فالكتاب أقرب إلى الله من خلق الله، الذي أهمه الرسول وعترته.

إذن: فالكتاب هو الثقل الأكبر.

٣- هذا... في مجال التقييم الواقعي. وأما في مجال التفاعل الواقعي: فلا شــك أن فعل الكتاب أكبر من فعل الرسول وعترته، لأن الرسول – ذاته – من جملة من يتأثر بالكتاب.

٤- أما في مجال المجتمع: ففعل الرســول أكبر من فعل الكتاب، لأن الرســول من الناس، فتأثرهم به أعمق من تأثرهم بالكتاب، الذي ليس من نوعهم، وإنما هو من نوع جانبهم المعنوي فقط، وليس من نوع جانبهم المادي والمعنوي – معاً – كما هو شأن الرسول.

ولذلك: احدث الرسول تلك الضجة التي لا زالت تتفاعل بقوة هائلة، بينما لم يحدث مثلها الكتاب.

صحيح: أن الكتاب كان أهم وسائل الرسول في إحداث تلك الضجة، ولكن: الكتاب لا زال موجوداً، ولا يحدث الضجة التي أحدثها الرسول في فترة ثلاثة وعشرين عاماً.

ومن ثم نجد التعبير عن الرسول بـ: (آية الله العظمى). فالكتاب آية عظيمة من آيات الله. ولكن الرسول – فـي مجال المجتمع – آية عظمى، كما أن كل واحد من أوصياء النبي وعترته المعصومين آية عظمى من بعده.

– ٣ –

- هنالك: خطان متوازيان يقسمان العاملين في الحقـول المادية، ويحتاج كل خط إلى التخصص حتى يصل إلى درجة الاستيعاب.

وهما، العلم والعمل: فالميكانيك في الآليات المتحركة غير قائدها، والمدرب غير الملاكم، والعروضي غير الشاعر، والنحوي غير البليغ، والرياضي غير رجل الأعمال...

أما في مجال الدين: فيلتقي العلم بالعمل التقاءً عضوياً صلباً، كالتقاء الموجب والسالب في جميع ذرات الكون، بحيث لو انفصم أي منها عن الآخر؛ تحول إلى عنصر هدام: فـ (الشيطان) هو المثل الأعلى للعالم بلا عمل، و (بلعم بن باعورا) هو المثل الأعلى للعامل بلا علم...

فخط الدين يعتمد على هذين التوأمين معاً، فالأنبياء والأوصياء (عليهم السـلام) هم الذين ضموا العلم الواسع إلى العمل الصادق، وأعظمهم النبي محمد (ص)، لأنه أوسعهم علماً وأصدقهم عملاً.

وكل من حاول تجربة الدين، عليه أن يعرف – سـلفاً –: خطه، ومثله الأعلى. فخطه: الإسلام، بعنصريه العلم والعمل. ومثله الأعلى: الرسول الأكرم (ص)، بصفته (العالم العامل) في أعلى درجات الإمكان.

- والقيمومة على الحياة، تكون للفكر لا للفرد. لأن الفكر يتبلور بالنقاش، فيظهر: خلوصه من المؤثرات، أو انسـياقه معهـا. فيما الفرد، معرض – حتـى داخله – للانجراف. ورغم ذلك: أعلن الله نبيه مقياسـاً، مع الاعتراف بجانبه البشري. لأن النبي (ص) – بعد أن وضع الله عليه الصيانة – أصبح معبراً أميناً عنه، كما أن القرآن أصبح معبراً أميناً عنه بعد وضع الصيانة عليه:

((إنا نحن نزلنا الذكر، وإنا له لحافظون)) (٢٣١).

فالقرآن – وحـده – نال الصيانة، فكان المقياس دون بقية الكتب. والنبي وأوصياؤه المعصومون (عليهم السـلام) – وحدهم – نالوا الصيانة، فكانوا المقيـاس دون بقية الناس الذي حرموا من هذه الصيانة، حتى

ولو كانوا من صحابته أو من تابعيهم بإحسان.

من أرشيف أهل البيت (عليهم السلام)

((إنما يريد الله : ليذهب عنكم الرجس – أهل البيت – ، ويطهركم تطهيراً)) .

[(سورة الأحزاب : الآية ٣٣)] .

– ١ –

- هل كان في ((أهل البيت)) (عليهم السلام) رجس حتى أراد الله تطهيرهم؟

وأي رجس كان فيهم وقد خلقهم الله من نوره؟

وقد استجاب الله دعاء (إبراهيم) في أسرته جمعاء:

((... واجنبني – وبنيَّ – أن نعبد الأصنام)) (٢٣٢).

((ربنا! واجعلنا مسلمين لك، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك، وأرنا مناسكنا، وتب علينا، إنك أنت التواب الرحيم)) (٢٣٣).

فأبعد الله عنهم: شرك الآباء، وعهر الأمهات – كما في بعض الحديث – حتى ورد في زيارة (الوارث) للإمام الحسين (ع): (... لم تنجسك الجاهلية بأنجاسها، ولم تلبسك من مدلهمات ثيابها) (٢٣٤). وهذا النص، يعني أن الجاهلية لم تنجسه في آبائه. وأما في نفسه هو، فنقرأ في زيارته بمناسبة (يوم عرفة): (غذتك يد الرحمة ورضعت من ثدي الإيمان، وربيت في حجر الإسلام) (٢٣٥).

وقد ذهب جمع كبير من العلماء إلى أن آباء النبي حتى (آدم)، كانوا مؤمنين، كل بالديانة الحق في زمانه، وأوَّلوا بذلك قوله تعالى:

((الذي يراك حين تقوم ۞ وتقلبك في الساجدين)) (٢٣٦). واستدلوا لذلك بأدلة عقلية.

وإذا كان ((أهـل البيت)) (عليهم السـلام) مخلوقين من نور الله، ولم يتلوثوا بشـرك الآباء ولا بعهر الأمهات، فأي رجس كان فيهم حتى أراد الله تطهيرهم منه؟

- يضاف إلى هذا السؤال، سؤال آخر:

ورد في قصة ميلاد كل واحد من ((أهل البيت)) (عليهم السـلام): (... فولد طاهراً مطهراً) (٢٣٧). وورد عن النبي (ص) وعن الزهراء، في وصيتهما إلى الإمام علي (ع): (وغسلني في ثيابي، ولا تكشف عني، فأنا طاهر مطهر»٢٣٨مع أن الطاهر لا يطهر، وإنما يطهر الملوث؛ فلا يصح الجمع بين الطاهر والمطهر.

وقد وردت – في نصوص أخرى – كلمة (الطهر)، كما في زيارة الإمام الحسين (ع) بمناسبة أول رجب والنصف من شـعبان: (أشـهد أنك: طهر طاهر مطهر، من طهر طاهر مطهر. طهـرت، وطهرت بك البلاد، وطهرت أرض أنت فيها، وطهر حرمك) (٢٣٩).

و (الطهر) هو الطاهر بنفسـه المطهر لغيره، كالماء المطلـق. و (الطاهر) هو الطاهر مع الغض عن كونه مطهراً لغيره، سواء أ كان مطهراً لغيره كالماء المطلق أو لم يكن مطهراً لغيره كالماء المضاف، فبين (الطهر) و (الطاهـر) عموم وخصوص مطلق: فكل طهر طاهر، ولا عكـس. و (المطهر) هو الذي كان متلوثاً فطهره طهر، كجسم الإنسان – إذا تلوث بإحدى النجاسات – يطهر منها بالماء. وأما النجاسات: فلا تطهر، لأنها لا تطهر بالمطهرات ما دامت بصيغتها النجسة، وإنما تطهر بـ (الاستحالة) التي تعني تبدل تركيبتها الأساسية، وبـ (الاستهلاك) في طهر كالماء المطلق.

فكيف جمعت فيهم هذه الصفات، وهي لم تجتمع في شيء؟

ويمكن الجواب عن السؤالين:

١- لـ ((أهل البيت)) (عليهم السـلام) جانبان: جانب الروح السماوي، وجانب الجسد النابت في وعاء أرضي.

فأرواحهـم: خلقت من نور الله، فهي (طاهـرة) لم تتلوث بأوضار الدنيا والبشـر، لأنهم (معصومون)، عصمهم الله من الانزلاق في ما يهلك أو يشـين. وهي (طهر)، لأن أرواحهم لم تكن متقوقعة تقنع بطهارتها فقط، وإنما كانت فاعلة طهَّرت – بالفعل – المليارات من البشـر، من: الشرك، والظلم، والجهل، والآثام... فأرواحهـم (طاهـرة، طهـر).

وأما أجسـادهم: فقد نبتت في وعاء الأرض، وتولدت من آباء وأمهات لم تنجسـهم الجاهلية بالشرك والعهـر إلا أن الآباء كلهم وكذلك الأمهـات، لم يكونوا (معصومين)، وغير المعصوم قد يسـهو ويغفل، ويخطئ ويجهل، فتترك آثارها السلبية على السلالة. فأجسادهم حملت – بالوراثة – عينات الأرض وجينات الآباء، فاحتاجت إلى التطهير، فطهرها الله.

ويمكن الاستئناس لهذا الموضوع – وإن كان مع الفارق –، بقول الله – تعالى – عن أهل الجنة:

((ونزعنا ما في صدورهم من غل...)) (٢٤٠).

وهذا... يعني أن صفوة الخلق: (أهل الجنة) – بعد تكامل تصفيتهم في ثلاث تجارب، هي تجارب: عالم الدنيا، وعالم البرزخ، وعالم القيامة – يبقى في صدورهم (غل) ينزعه الله منها، ليصبحوا في مستوى الجنة. فإذهاب (شوائب الأرض) عن ((أهل البيت)) (عليهم السلام) في هذه الدنيا، يدل على أن استعدادهم لتقبل (التطهير) كان في مسـتوى الجنة وهم لا يزالون في قيود الدنيا. وهذا... يعني تصنيفهم في مصف لا يبلغه غيرهـم، لأن غيرهم قد يبلغه في الجنـة، ولا يبلغه: لا في عالم القيامة، ولا في عالم البرزخ، فكيف به في عالم الدنيا؟!

ولعـل خير ما يصـور تطهيرهم، حديث (العباس بـن عبد المطلب) (٢٤١)، وهـذا... يعني التطهير من شوائب الأرض.

٢- بما أن تركيبة ((أهل البيت)) (عليهم السلام) كانت تركيبة بشرية:

((قل: إنما أنا بشـر مثلكم، يوحى إلـيَّ...)) (٢٤٢)، ومن الطبيعي أن يحفل بالبشـر مقتضيات الأرض وشوائبها.

فتسديد أشخاص حتى لا يتورطوا أو لا يتلوثوا، بمثابة تطهيرهم. كما في بعض الحديث عن تسديد النبي (ص): (إن الله وكل به ملكاً من أعظم ملائكته، يرشده ويسدده) (٢٤٣). وهذا... يعني التطهير بالتسديد.

٣- إن الله حيث زود ((أهل البيت)) (عليهم السلام) بأقصى ما يتحمل البشر من العقل والعلم والحكمة، كانـوا يتتبعون نتائج الأشـياء، ولا يقتحمون بدون بصيرة واعية، فكانت لهم (عصمة) تقيهم من الانسـياق والانزلاق. وهذا... يعني أنهم متورطون لولا (العصمة) – حسب تعبير القرآن في قصة يوسف النبي:

((ولقـد همت به، وهم بها؛ لولا أن رأى برهان ربه)) (٢٤٤). فما همَّ، لأنه رأى برهان ربه. ولولا تلك الرؤية لهمَّ بها، كبقية البشر في مثل ذلك الموقف –.

فحيـث زودهم الله – تعالـى – بتلك المناعة الداخلية: (العصمة)، اعتبـر تزويدهم بـ (العصمة) تطهيراً لهم من شوائب الأرض، وذلك كما يقول الطبيب: (أنا طهرت هذا البلد من الكوليرا)؛ إذا طعم أهله ضدها. وهذا... يعني التطهير بالعصمة.

– ٢ –

١- في الآية، ثلاث أدوات تأكيد:

أ. ((إنما)).

ب. اللام في ((ليذهب)).

ج. ((تطهيراً)).

مضافـاً إلى: ((أهل البيـت)) الذي ورد لرفع الإبهام عن الضمير في ((عنكـم))، وفي الإيضاح نوع من التأكيد.

٢- ثم: كلمة ((يريد) تفيد أن الأمر غير متحقق، وإن كانت إرادة الله تساوي تحقيقه.

وكلمة: ((ليذهب)) تفيد أن المذهب به موجود.

وكلمتا: ((يطهركم تطهيرا)) تفيدان أن الطهارة غير متحققة.

مضافاً إلى: أن استخدام الكلمات بصيغة المستقبل، يفيد أن الأمر غير واقع.

٣- ((أهل البيت)) (عليهم السـلام) خلقوا من نور الله، ولم تنجسهم الجاهلية بأنجاسها، ولم تلبسهم المدلهمات من ثيابها. وقد عصمهم الله من شرك الآباء وعهر الأمهات، فلم يتلوثوا – في تسلسل الخلقة – لا روحاً ولا نسباً.

٤- ((أهل البيت)) (عليهم السلام) ممن ثبتهم الله على الحق فكراً وجسداً، فعصمهم الله من الزلل وآمنهم من الفتن، فلم يتلوثوا بانحراف عقيدي أو عملي.

٥- هنا يأتي السؤال: أي (رجس) هذا الذي أراد الله أن يذهبه عنهم؟ وأي (تطهير) هذا الذي أكده بالمفعول المطلق: ((تطهيرا))؟

والجواب:

إن ((أهل البيت)) (عليهم السلام)، خلقوا – جسدياً – في وعاء من الأرض، وإن كانت نطفهم من بعض فواكه الجنة – كما في الأحاديث (٢٤٥) – إلا أن آباءهم كانوا من الأرض، ثم استمرارهم كان من الأرض عبر طعامها وشرابها، فاختلطوا بالأرض – ولو بقاء –، فحملت إليهم الأرض لبعض مقتضياتها، كما حملت إليهم كل إيجابياتها. وفي مقتضيات الأرض ما هو رجس. فأراد الله تطهيرهم منه، وقد فعل.

واستخدم كلمة ((يريد))، وصيغ المستقبل، لأمرين:

١- ((أهل البيت)) (عليهم السلام)، لم يكونوا – جميعاً – حين نزول هذه الآية، حتى تقول: (طهر الله أهل البيت تطهيراً)، وإنما استمرارهم – عبر الأئمة الاثني عشر – استدعى استمرار عملية التطهير.

٢- استمرار اختلاط ((أهل البيت)) (عليهم السلام) بالأرض عبر الأمهات وعبر التغذية، أدَّى إلى استمرار عملية التطهير.

٦- وأما كيفية تطهير ((أهل البيت)) (عليهم السلام) من سلبيات الأرض، التي تظهر في الصفات السلبية؟

فلا نعرفها، لأنها من التفاعلات المعقدة التي لها جانب مادي وجانب معنوي. ومثل هذه الأمور لا تعرف في المختبرات التي تعنى بالتفاعلات المادية، وإنما تعرف عن مصادر الوحي. ولم يصل إلينا شيء منها.

ولعلها كانت بالطريقة التي تم بها إخراج العلقة من قلب الرسول الأعظم (ص)، وفصد الإمام الحسن العسكري (ع)، وما شابههما.

((أهل البيت)) في هذه الآية، هم: رسـول الله، وعلي، والزهراء، والحسنان – عليهم الصلاة والسلام –، وليسوا زوجات الرسول، لما يلي:

١- الآيات التي وجهت إلى زوجات الرسول (ص)، استخدمت (ضمير الجمع المؤنَّث):

((يا نساء النبي (٢٤٦) ... يا نساء النبي (٢٤٧))، وهذه الآية استخدمت (ضمير الجمع المذكر): ((عنكم... يطهركم)).

٢- الآيات الموجهة إلى زوجات الرسول، لم تعبر عنهن بـ ((أهل البيت))، وإنما عبرت عنهنَ بـ ((نساء النبي)).

٣- الآيات الموجهة إلى زوجات الرسـول (ص)، تعتبرهـنَّ معرضات للخطأ، وحتى للخطيئة الكبرى التي هي: ((فاحشـة مبينة)) (٢٤٨)، و((تبرج الجاهليـة الأولى)) (٢٤٩). ثم تنهاهنَّ عن: الخطأ، والخطيئة. وكونهن معرضات للخطأ والخطيئة، ينافي التطهير المطلق، الذي هو (العصمة).

٤- بعض الآيـات الموجهة إلى زوجات الرسـول (ص)، يتضمن تهديداً صريحـاً بطردهنَّ من الرباط المقدس مع الرسول (ص): ((عسى ربه إن طلقكنَّ...)) (٢٥٠). والتهديد بالطرد من الرباط المقدس مع الرسول (ص)، ليس وارداً إلا بالنسـبة إلى المعرضات للانزلاق إلـى المحرمات، التي تنافي مكانة قرينات صاحب الشريعة. ويكون التهديد غير وارد بالنسبة إليهن، لو أن الله طهرهن تطهيراً مطلقاً.

٥- في بعض الآيات الموجهة إلى زوجات الرسول (ص)، تصريح بأن في المسلمات خيراً منهن:

((عسـى ربه – إن طلقكـنَّ – أن يبدله أزواجاً خيراً منكن...)) (٢٥١). وكيف يوجد في المسـلمات خير منهن، لو أن الله طهرهن تطهيراً مطلقاً؟! وهل هنالك خير فوق (العصمة)؟! وإنما يضعهن هذا النص دون مستوى كثير من المسلمات، مع الأخذ بعين الاعتبار أن سائر المسلمات لم يكنَّ معصومات.

٦- في الآيات الموجهة إلى زوجات الرسول (ص): أمر بأشياء من جملتها طاعة الله والرسول (ص):

((... وأطعن الله ورســوله)) (٢٥٢)، ولا يصح الأمر بشيء ملتزم به من قبل المأمور به. ونهي عن أشياء من جملتها الخضوع بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض:

((إن اتقيتن، فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض)) (٢٥٣)، ولا يصح النهي عن شيء ملتزم بتركه من قبل المنهي عنه. وهذا... مما ينافي (العصمة).

٧- آيــة (الإفك) تدل على أن القصــة كانت خيالية فقط. ولو أن زوجات الرســول كنَّ معصومات بآية (الطهارة)؛ لوردت آية الإفك صاعقة على المؤفكين، ومذكرة بعصمتهن:

مثلاً: بلهجة نفي الأغلال عن الرسول:

((وما كان لنبي أن يغل)) (٢٥٤).

أو مثلاً: بلهجة نفي الخطيئة عن يوسف النبي:

((... كذلك: لنصرف عنه السوء والفحشاء، إنه من عبادنا المخلصين)) (٢٥٥).

أو بلهجة نفي التهمة عن مريم العذراء:

((ومريم ابنة عمران: التي أحصنت فرجها، فنفخنا فيه من روحنا...)) (٢٥٦)...

فالاكتفاء بالنفي المجرد، عن طريق استخدام كلمة (الإفك) فقط؛ لا يزيد على النفي المجرد:

((إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم. لا تحسبوه شراً لكم، بل هو خير لكم...)) (٢٥٧).

ولــو كنَّ معصومــات، لكان الإفك يعنــي التطاول على مقام العصمة، فكان شــراً يــرد عليه بغير هذه اللهجة.

٨- إن الدخول مع الرسول في الرباط المقدس، شيء طرأ على زوجات الرسول (ص)، ولم يولد معهنَّ. فلا يمكن أن يؤدي إلى العصمة، التي هي صفة تولد مع المعصوم.

٩- إن العصمة مقام رفيع، تستقي جذورها من مؤهلات قبل هذه الحياة. فلا يمكن أن تتوفر لنساء من سائر الناس، بمجرد اقترانهن برسول الله. وكم في نساء الأنبياء والأوصياء (عليهم السلام)، منحرفات عنهم وعن رسالاتهم، رغم كونهم معصومين. فلو كان مجرد الاقتران بمعصوم يؤدي إلى العصمة، لكان جميع نساء الأنبياء والأوصياء معصومات.

١٠- بالإضافة إلى: تفسير النبي (ص) ((أهل البيت)) (عليهم السلام) بـ (أنا، وعلي، وفاطمة، والحسنين))، وحتى تصريحه بأن أم المؤمنين الفضلى (أم سلمة) – التي نزلت هذه الآية في بيتها – خارجة عنهم أيضاً.

– ٤ –

من هم المعنيون بـ ((أهل البيت))؟

قال قوم: إنهم زوجات النبي (ص).

وقال آخرون: إنهم: علي، والزهراء، والحسنان (عليهم السلام).

وقد استدل القائلون بالقول الأول، بأن (أهل البيت) يطلق على عائلة الرجل، فأهل بيت النبي (ص) زوجاته.

ويرد على هذا القول:

١- أن (أهل بيت الرجل) لا يطلق على زوجاته فحسب، وإنما يطلق على عائلته بما فيها أولاده.

ولم يقل أحد – من أصحاب القول الأول – بعصمة جميع أبناء النبي وبناته، وإذا قال أحد بعصمتهم جميعاً، ففيهم الزهراء، ومواقفها تغير الكثير مما عليه أصحاب القول الأول.

٢- ولو كان المراد من ((أهل البيت)) زوجات النبي (ص)، لم يصح التعبير القرآني – لغوياً – لأن (ضمير الجمع المذكر) لا يطلق إلا على جماعة ذكور، أو على جماعة فيها ذكور وإناث – من باب تغليب جانب الذكور على جانب الإناث –؛ وزوجات النبي (ص) كلهن إناث، فلا يصح خطابهن بـ (ضمير الجمع المذكر) مرتين. مع العلم: بأن الآيات السابقة واللاحقة، وجهت إليهن (ضمير الجمع المؤنث) فيما كان

الخطاب مكرساً إليهنَّ. فتغيير الضمير يدل على تغير وجهة الخطاب؛ عن زوجات الرسول (ص) إلى أقربائه الأدنين.

٣- إذا كان المراد من ((أهل البيت)) زوجات الرسول (ص)، يصح النقاش بأن الآية: لا تشملهن قبل تزوجه بهنَّ، إذ لم يكن – بعد – من أهل بيته. ولا تشملهن بعد تزوجه بهن، لأن أمرهن مراعى بالطلاق. خاصة: وأن الرسول طلق بعض زوجاته، ولم يقل أحد بأنهن مشمولات بالآية. وقد هددهن القرآن بالطلاق:

((عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن...)) (٢٥٨)؛ والمهددات – قرآنياً – بالطلاق، كيف يكنَّ معنيات بآية التطهير، مع التأكيدات الواردة فيها: ((إنما))، واللام في (ليذهب))، و ((تطهيراً))؟!

٤- لو كانت الآية تعني زوجاته، كن معصومات. والمعصومات خير النساء، فلا يوجد – في النساء – خير منهن. فكيف تنسجم هذه الآية مع الآية التي تؤكد وجود خير منهن:

((عسى ربه إن طلقكن، أن يبدله أزواجاً خيراً منكن...)) (٢٥٩)؟!

٥- إن الصفات التي ذكرتها الآية الأخيرة لمن هنَّ خير من زوجات النبي (ص)، دون مرتبة العصمة – بكثير –:

((... مسلمات، مؤمنات، قانتات، تائبات، عابدات، سائحات...)) (٢٦٠).

وهذه... تعني أن النساء اللواتي يتحلين بهذه الصفات، خير من نساء النبي – اللواتي كن في حبالته حين نزول هذه الآية –.

وهذا... يعني أنهن لم يكنَّ في هذا المستوى، فكيف كنَّ معصومات؟!

٦- هنالك آية ثالثة، تدين بعض زوجات النبي (ص) بنوع من العمل التآمري ضده، حيث تقول:

((إن تتوبا إلى الله، فقد صغت قلوبكما. وإن تظاهرا عليه، فإن الله – هو – مولاه، وحبريل، وصالح المؤمنين، والملائكة – بعد ذلك – ظهير)) (٢٦١).

وهذه... تنافي العصمة بشكل واضح.

قيادة الله، وقيادة الرسول

((وما كان لمؤمن ولا مؤمنة – إذا قضى الله ورسوله أمراً – أن يكون لهم الخيرة من أمرهم . ومن يعص الله ورسوله ، فقد ضلَّ ضلالاً مبيناً)) .

[(سورة الأحزاب : الآية ٣٦) .

– ١ –

في العديد من آيات القرآن، اهتمام أكيد بأمر (القيادة)، باعتبارها العنصر الوحيد الذي:

١- يزيد فاعلية الأمة، وقدرتها على الدقة والسرعة.

٢- ويشد الأمة ببعضها، فيجعل كيانها متماسكاً، تتحطم عليه أسلحة التفتيت والتهديم.

والقيادة من الأمور الطرفينية التي تمارس – بنسبة واحدة – بين جانبين: فمن المستحيل أن تتحقق القيادة إذا لم تتوفر مواصفات القائد فيمن تصدى لها، مهما كان القطاع مطواعاً. كما أن من المستحيل أن تتحقق القيادة إذا لم تتوفر شرائط المقود في القطاع العام، مهما كان القائد قادراً.

لذلك: اهتمَّ القرآن – في العديد من آياته – بتركيز مفهوم القيادة، وإعطاء كل جانب حقوقه وواجباته.

وهــذه الآية، من الآيات التــي تعنى بجانب القطاع العام، وتبين أهمَّ ما عليه من واجبات، وهو أن يكون مطواعاً للقائد.

فكل إنســان – كعضو في القطاع العامل – له تقييم لكل أمر يعرض عليه، وله رأي يحدد – على ضوئه – موقفه، بإرادته التي تمليها المصلحة العليا في رأيه، سواء أ كانت تلك المصلحة العليا: مصلحته المادية، أو مصلحته المبدئية.

وهنا... يدخل القرآن ليعطي الإيضاح التالي:

كلما وجد الإنســان خيارين أو أكثر، فهو مخير: يقبل أي خيار شاء، ويرفض أي خيار لم يشأ، ولكن إذا قبل القائد خياراً معيناً ورفض غيره، فعلى كل فرد – من القطاع العام – أن يعرف أنه أمام خيار واحد لا ثاني له، هو ما اختاره القائد.

فمــن حــق كل فرد أن يمارس إرادته، في ما لم يتدخل فيه القائــد. وأما في ما تدخل فيه القائد، فتدخله يعني أنه مارس خياره وخيار القطاع العام معاً.

فالانقيــاد للقائد يعني: التجرد من الإرادة الفردية والاندماج في الإرادة الجماعية، وكأنما خلع إرادته على القائد يوم انضوى تحت قيادته.

((وما كان لمؤمن ولا مؤمنة – إذا قضى الله)) الذي هو القائد الأعلى – أولاً وبالذات – بمقتضى نواميس الكون، ((ورسوله)) وهو القائد البشري الأعلى – ثانياً وبالعرض – بتخويل من الله؛ ((أمراً – أن يكون لهم الخيرة من أمرهم)) فإذا لم يقض الله ورســوله (ص)، فلهم الخيرة وفق المصلحة التي يســعون إليها. أما إذا قضى الله ورسوله، انتهى الخيار.

وفي هذه الآية دلالات:

١- وحدة القضاء من الله والرســول (ص). فقضاء الرســول (ص) هو قضاء الله، لأن الرسول (ص) يعبر عن الله بدقة هائلة، فلا يمكن الاتجاه إلى الله إلا عن طريق الرســول (ص)، ولا معنى لطاعة الله بدون طاعة الرسول (ص)، فمن يرفض الانقياد للرسول فهو يرفض الانقياد لله.

٢- وحدة القيادة – في المجال البشــري – فقيادة الرســول (ص) عبارة عن قيادة الله، وكما أن قيادة الله شــاملة لا حدود لها ولا اســتثناء فيها؛ كذلك: قيادة الرسول (ص) شاملة؛ وإن خصصت الآية الأمر بالمؤمن والمؤمنــة. فلا تعني حصر الأمر بالمؤمن والمؤمنة، وإنما تعني أن المؤمن والمؤمنة هما اللذان يصح توجيه هــذا الخطاب إليهما. لأن الكافر والكافرة لا يعترفان بالله، فيكون المســتفيد مــن توجيه مثل هذا الخطاب القيادي هم المؤمنون.

٣- الشــمول الزمني لقيادة الرســول (ص) – كما هو لقيادة الله – فكل الأجيال المؤمنة مأمورة بالانقياد للرسول إلى يوم القيامة، مهما ارتفعت مستوياتهم العلمية والنفسية.

فكيف يمكن أن يأمر الله البشــرية جمعاء – منذ بعثة الرسول إلى انتهاء الدنيا – بالانقياد المطلق لرجل

عاش حياة (الجزيرة العربية) قبل قرون – مهما كان مستواه –، ويجعله الطريق الوحيد إلى السيادة في الدنيا والسعادة في الآخرة؛ وهو يخلق – كل يوم – عشرات العباقرة والمتفوقين؟!

والسبب: أن الله – تعالى – لا يختار رسله لمجرد تفوقهم في: الصفاء، والطاعة، والإخلاص، والطهارة...؛ فهم لا يقفون على قلوبهم أمام الله، وإنما يختار الله لرسالاته أكفأ المتفوقين في جميع المؤهلات: العقلية، والقلبية، والعضلية...

فعملية الاختيار للرسالة، عملية اختيار دقيقة – من عمليات الله التي لا يرد فيها احتمال لظل خطأ –. فالأعمال الشرعية، كالأعمال الكونية، دقيقة بشكل غير متناه. فهي من باب اختيار الموظف الصالح للمنصب الصالح، لأن النبوة منصب والنبي موظف. فإذا اختار الله نبياً لجيل كان أكفأ من كل أبناء جيله، وإذا اختار الله نبياً لأجيال كان أكفأ من جميع أبناء تلك الأجيال.

وكما لا يمكن أن يأمر الله الأرض – أمراً تكوينياً – بالانسياق في جاذبية حجرة، لأن مؤهلات الجاذبية أكثر من مؤهلات حجرة.

وكما لا يمكن أن يأمر الله الشمس – أمراً تكوينياً – بأن تستمد شعاعها من شمعة، لأن مؤهلات الشمس الإشراقية أكثر من مؤهلات شمعة.

هكذا... لا يمكن أن يأمر الله أي فاضل – أمراً تشريعياً – بالانقياد لمفضول.

وهكذا... لا يمكن أن يأمر الله أي أكفأ – أمراً تشريعياً – باتباع رسول غير أكفأ.

فإذا أمر الله الناس – منذ بعثة الرسول (ص) إلى انتهاء الدنيا – باتباع الرسول الأكرم (ص)، كان ذلك الأمر – وحده – دليلاً قاطعاً على أن الرسول (ص) – بمقتضى المقاييس الدقيقة – أكفأ من جميع الناس إلى يوم القيامة.

فكما أننا عندما نجد أن الله جعل الشمس – بأمر تكويني – منساقة في جاذبية (وكا)، نكتشف أن طاقة (وكا) أكثر من طاقة الشمس؛ كذلك: عندما نجد أن الله جعل الناس – بأمر تشريعي – منقادين للرسول (ص)، نكتشف أن مؤهلات الرسول (ص) أكثر من مؤهلات أي فرد من الناس. حتى لو أن الله لم يجعل (محمداً بن عبد الله ص) خاتم النبيين، لكان أقوى العباقرة مؤهلات.

وقد أكّد الرســول أن عملية الرسالة إنما هي عملية اختيار، في حديث أدلى به للإمام علي (ع) قائلاً: (إن الله اطلع على الأرض اطلاعة فاختارني منها...) (٢٦٢).

– ٢ –

١- إن الله – تعالــى – إذا قضى يكون قضاؤه عن علم وحكمة لا يمكن أن يســتوعبهما بشــر، فيكون قضاؤه خيراً من قضاء البشر، فلا خير للبشر فوقه أو عدله حتى يختار.

والرسول الأعظم (ص) إذا قضى يكون قضاؤه معبراً عن قضاء الله، لأن كلامه وحي، فلا يبقى إزاءه مجال لاختيار البشر.

٢- وكما لا يبقى الخيار للبشــر بعد قضاء الله ورســوله، لا يبقى الخيار للبشــر بعد قضاء أي واحد من مصادر الوحي، ســواء أ كان من الأنبياء أو من الأوصياء (عليهم الســلام). لأنهم – جميعاً – يعبرون عن الله، ولا يصح الاجتهاد في مقابل النص.

٣- وكما لا يبقى الخيار للبشــر في طول الأنبياء والأوصياء، أي بعد قضائهم؛ لا يبقى الخيار للبشر في عــرض الأنبياء والأوصياء، أي مع وجودهم؛ وإن لم يصدر الحكم منهم. لأنهم إذا تواجدوا يختص بهم حق القضــاء، ولا ينتقل إلى غيرهم إلا في غيابهم، إذ لا يصــح الاجتهاد المنعزل عن المعصوم إلا حين انغلاق باب العلم.

وأمــا إذا كان باب العلــم مفتوحاً بحضور أحد مصادر الوحي؛ فلا بد مــن تتبعه، ولا معنى للجوء إلى الاجتهاد المنعزل. إذ لا يعني الاجتهاد أكثر من السعي لاستنباط الحكم عبر الأدلة المتواجدة – وفق القواعد المقررة للاجتهاد –، ولا دليل أقوى من مصادر الوحي، ولا معنى للسعي بحثاً عن الموجود.

ذلك: أن الاجتهاد المنعزل حيلة العاجز التي لا يلجأ إليها من لم يكتمل عجزه، وهو الرؤية المغبوشة التي يستغني عنها من يستطيع الرؤية الواضحة؛ بالرجوع إلى مصادر الوحي.

فكل الاجتهادات المنعزلة الصادرة في حضور النبي (ص) أو الأئمة (ع) لا اعتبار بها، لسببين:

١- لأنها إما: صادرة ضد حكمهم، أو في حضورهم. وهي – في الحالتين – فاسدة.

٢- لأن قواعـد الاجتهاد لم تكن واضحة المعالم في عهودهم – لعدم الحاجة إليها –، وإنما اتضحت بعدهم حينما احتاج الناس إليها، فالاجتهاد المنعزل في عهودهم لم يكن وفق قواعده. وأي اجتهاد لا يكون وفق قواعده، لا يتخلص من المؤثرات الشـخصية، التي لا يصح الاعتماد عليها في أمور الدين، التي لا بد من الاطمئنان إلى سلامتها، والاحتياط فيها.

– ٣ –

يمكن تقييم الشعب بأحد اعتبارين:

الأول: كونـه مجموعـة مترابطة من خلق الله، فهو مـورد لحقوق وواجبات. وهـذا الاعتبار، موضوعي وصحيح.

الثاني: كونه مصدراً للسـلطة التشـريعية المطلقة، بحيث لو أراد الشعب – ولو بكله – وأراد الله خلافه؛ يؤخذ برأي الشعب دون إرادة الله. وهذا... غير موضوعي وغير صحيح. لأن جميع الشعوب وجدت بإرادة الله، فكيف يكن أن تكون لها سلطة تشريعية فوق إرادة الله؟!

وهنـا... لا بـد من أن نفرق: بين كيان الشـعب أمام الله، فهو كيان فرعي. وبين كيان الشـعب أمام حكام عاديين، فهم فرعيون.

والمنطق الذي به ندعو الحكام إلى طاعة الشعب، هو الذي يدعو الشعب إلى طاعة الله.

إلغاء التبني

((وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه : (أمسك عليك زوجك ، واتق الله) ؛ وتخفي – في نفسك – ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه . فلما قضى (زيد) منها وطراً زوجناكها ، لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً . وكان أمر الله مفعولاً * ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له . سنة الله في الذين خلوا من قبل ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً)) .

[(سورة الأحزاب : الآيتان ٣٧ – ٣٨) .

كانت في الجاهلية مفاهيم نابعة من التكون العفوي للمجتمع، فلما جاء الإسـلام كان من الطبيعي أن

يشن عليها حملة التصحيح. ومن تلك المفاهيم التي صفاها الإسلام:

١- أن الرجل الزكي الذكي، له قلبان في جوفه، بدليل أنه يعي أكثر من غيره.

٢- الظهار: أن الرجل إذا نفر من زوجته يقول لها: (ظهرك عليَّ كظهر أمي)، فتحرم عليه إلى الأبد، لأنها تكون – بذلك – أمه.

٣- التبنـــي. وقصة ذلـــك: أن الجاهليين ما كانوا يعتبرون البنت تراثاً ولا نســـلاً، وإنمـــا يعتبرون الولد – وحده – تراثاً ونســـلا. فإذا لم يرزق أحدهم ولداً، تبنَّى ولداً من أي ســـلالة ومن أي بلد كان، فأصبح ابنه بالفعل: يرثه، ولا يتزوج من أخواته من أبيه.

وهكـــذا... كانت الأســـرة غير جامعة ولا مانعـــة: فالبنت – التي من صميم الأســـرة – تعتبر خارجة منها، والدعي – الذي هو من خارج الأسرة – من صميمها.

وكان لا بد للإسلام من أن يصفي هذه المفاهيم؛ فيما يصفي من مفاهيم خاطئة.

ولهذه الحكمة، تبنَّى الرسول (ص) (زيد بن حارثة) رغم أن الرسول (ص) – يوم ذاك – كان يتمتع بالولد (٢٦٣). وكان زيد بن حارثة عبداً للنبي (ص)، فأعتقه وتبناه. فلما شبَّ أراد أن يخطب له، فخطب له (زينب ابنـــة جحـــش): حفيدة عبد المطلب، وابنة عمة النبي (ص). فلما خطبهـــا النبي (ص) لزيد، تصورت زينب – وتصور معها أخوها (عبد الله بن جحش) ابن عمة النبي (ص) – أن النبي يخطب زينباً لنفسه، فوافقا. فلما علما أن النبي (ص) يخطبها لزيد، رفضا.

فنزلت هذه الآية الكريمة:

((وما كان لمؤمن ولا مؤمنة – إذا قضى الله ورســـوله أمراً – أن يكون لهم الخيرة من أمرهم. ومن يعص الله ورسوله، فقد ضل ضلالاً مبيناً)) (٢٦٤).

فوافقا وتزوجها زيد. غير أن ذلك الزواج لم يكن – من ابتدائه – ناجحاً في المستوى العائلي، ولكن النبي (ص) أصر عليه، وأصر القرآن عليه، لأمرين:

١- إلغاء التقســـيم الطبقي، الذي يوزع المجتمع بين طبقة الأشـــراف وطبقة الشعب. فكان تزويج زيد:

ذلك العبد الطليق المتبنى، من زينب: السـيدة القرشـية، وابنة عمة الرسول (ص)؛ تحدياً واضحاً لذلك التقسيم.

٢- التمهيد لإلغاء التبني.

وكان زيـد يأتي إلى النبي (ص) ويشـكو من أمـر زينب، التي ما كانت تعترف به في مسـتوى زوجها – حسب المفهوم المرتكز في الأذهان يوم ذاك – فيصبره النبي (ص). وحاول أن يطلقها طالما لا تعترف به في هذا المسـتوى، فقال له النبي (ص): ((أمسـك عليك زوجك، واتق الله)). وربما كان النبي (ص) يخفي في نفسه أن يبقى هذا الزواج فترة يشيع خبرها بين الناس حتى يؤدي مفعوله، وربما كان النبي (ص) يحاول الإبقاء على الزواج حتى يحين الوقت ليضرب – عن طريقه – التبني، لقوله تعالى:

((وتخفي – في نفسك – ما الله مبديه. وتخشى الناس، والله أحق أن تخشاه)).

وعلى أي حال، بقي ذلك الزواج بذلك الشكل الخاص.

حتى إذا كلف – من قبل الله – بضرب مفهوم التبني، طلق زيد زوجته بعد العناء الطويل. فتزوجها النبي (ص) – وهـي فوق الأربعين، وهو فوق الخمسـين – لكي يعبر النبي (ص) عـن اعترافه بمكانتها، بعد أن زوجها من زيد الذي ما كانت تراه إلا نوعاً من الغض من كرامتها.

وكانت صدمة كبيرة للذين ارتكزت في مشـاعرهم عادة التبني، فأنزل الله – مسـنداً هذا الزواج إلى نفسه –:

((فلمـا قضى زيد منها وطراً زوجناكها، لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً. وكان أمر الله مفعولاً)).

ولكـن هـذا العمل كان يعتبر خروجاً على العـرف ومنكراً لدى الناس، فحتـى المؤمنين – الذين كانوا يرضـون بخرقه – ثقل عليهم أن يكون النبي (ص) أول من يخرق هذه العادة ويرتكب هذا العمل. ولكن لو لم يتقدم – بأمر الله – إلى خرقه في حياته الخاصة، لما تقدم أي فرد آخر إلى خرقه. فأنزل الله:

((ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له))، فالأنبياء – جميعاً – كانوا يسبقون إلى تعاليمهم، حتى يكونوا قدوة يجري الناس خلفهم:

((سنة الله في الذين خلوا من قبل، وكان أمر الله قدراً مقدوراً)).

ولكن هذا الأمر صدم المؤمنين وغيرهم، فاختلقت أسطورة تقول:

(إن النبي رأى زينب في بيت زيد – يوماً – فأحبها، فعرف زيد، فطلقها، فتزوجها النبي).

وهذه الأسطورة غير واقعية:

١- لأن النبي (ص) كان يعرف زينب – وهي فتاة، وهو شاب – لأنها ابنة عمته، ولأنها ترعرعت في بيت عبد المطلب الذي ترعرع فيه النبي أيضاً؛ فلم يخطبها لنفسه ولم يتزوجها. حتى عندما وافقت هي وأخوها، ورفضا أن يتزوجها زيد، و...؛ أحبها، وهي سيدة فوق الأربعين وهو متزوج بالعديد من النساء وفوق الخمسين؟!

٢- إن عدم نجاح الزواج، ومحاولة زيد طلاق زينب، وقول النبي (ص) له – عدة مرات –: ((أمسك عليك زوجك))؛ يدل على أن الطلاق كان طبيعياً، لا مدفوعاً بحب النبي (ص) إياها.

٣- إن ذلك بعيد – كل البعد – عن أخلاق النبي (ص) العائلية، الذي طلق عدة نساء قبل أن يدخل بهنَّ، لأنه صدر منهن – أو من بعض أقربائهن – ما يفهم منه عدم الاقتناع بالنبي (ص).

ولكن: عمل النبي (ص) كان صدمة للعرف الجاهلي، فكان من الطبيعي أن يقابل برد فعل تشكل بشكل تلك الأسطورة التي سبقت.

واستغلها بعض أعداء الإسلام للنيل من كرامة النبي (ص)، وبحث المسلمون حولها كثيراً، ولكن القضية – في جريها التاريخي – طبيعية تماماً، واختلاق تلك الأسطورة – أيضاً – رد فعل طبيعي يواجهه كل من يتحدى عرفاً اجتماعياً.

عطاء النبي وجفاء الأمة

((ما كان (محمد) أبا أحد من رجالكم، ولكن: رسول الله، وخاتم النبيين. وكان الله – بكل شيء

- عليماً ﴾ .

[(سورة الأحزاب : الآية ٤٠) .

- طريقة استقبال النبي الأكرم (ص) للبشرية طريقة فريدة، هي طريقة الأنبياء جميعاً، مع الاحتفاظ بفاصل المستوى بين النبي (ص) وسائر الأنبياء.

فالنبي (ص) أعطى، واجتهد في العطاء، وتحمل في عطائه ما لم يتحمل سواه من الأنبياء. ولم يأخذ من البشرية – من وسائل الأبهة والسيطرة – ما يعتبر لدى الناس شرطاً للعطاء، فعاش كما قال:

(أنا ابن امرأة من قريش: كانت تأكل القديد، وتجلس على التراب) (٢٦٥)؛ لا كرئيس دولة، ولا كزعيم قبيلة، ولا حتى كواحد من عامة الناس؛ وإنما كما وصف:

(كان يجلس كما يجلس العبد، ويأكل كما يأكل العبد) (٢٦٦).

وحينما أراد قومه أن يطعموا، ووزع عليهم الأعمال، أبى إلا أن يترك لنفسه حصة من العمل، فجمع لهم الحطب. وعندما خيره الله بين أن يكون ملكاً رسولاً وبين أن يكون عبداً رسولاً، اختار أن يكون عبداً رسولاً. وأحب أن يأكل يوماً ويجوع يوماً. ورفض أن يتصدر المجلس، إذا جلس إلى غيره...

- وأعطى للبشرية فلسفة الكون والحياة والإنسان، وأيقظ الروح، ومنح السلطة العليا للعقل، ونشر بذور العلوم، وأسس الدولة العادلة، وشرع النظام الكامل، وأخرجهم من الظلمات إلى النور، ووضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم...

- وأما طريقة استقبال البشرية للنبي (ص)، فكانت طريقة استقبالها لرجل هدام يريد التسلط، كما وصفوه: (إنه سب آلهتنا، وسفه أحلامنا، وأفسد شبابنا) (٢٦٧). فآذوه، وحاربوه، واتهموه بلا تورع. وإذا آمنوا به، اعتبروا إيمانهم عطاء له، فمنوا عليه:

((يمنون عليك أن أسلموا. قل: لا تمنوا عليَّ إسلامكم، بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان؛ إن كنتم صادقين)) (٢٦٨).

وكانوا ينبطحون حوله، ويحركون سيقانهم من خلف، ويقولون له: (حدثنا يا محمد!)؛ شأنهم مع القصاصين. وينادونه من وراء الحجرات. ويضربون باب بيته بالحجر، مستأذنين عليه...

وضاعت بينهم قطيفة، فاتهموه بها، قبل أن يمدوا أصابع الاتهام إلى غيره. ونافقوا عليه، واتهموه حتى في عرضه، وهم المسلمون به الذين بايعوه على دمائهم وأموالهم وأهليهم. وفي جميع الحالات، لم يزيدوا على أنه رجل منهم: فهو (محمد)، وفي أحسن الخطابات (أبو القاسم)؛ كأي رجل ساد في مجتمعهم القبلي.

- وحتى اليوم، يعتبرونه رجلاً منهم: لا يعرف لقاح النخيل، ولا أين ينزل في الصحراء – على الماء أو غيره –، ولا يستوعب من الأمور العامة بمقدار أبسط الناس...

ويتحدثون عنه – جنسياً – بما لا يقرونه لبعضهم، ونسبوا إليه: (أنتم أعلم بأمور دنياكم) (٢٦٩)؛ وإنما كان أمياً نزل عليه الوحي خطأ من جبرئيل، فجاء بالقرآن كمجموعة من التعاويذ. وأمر بالعبادات، كوسيلة للعروج إلى الجنة... فلا زال في العقلية العامة (محمداً)، وفي أفضل التعابير (أبا القاسم).

أما أن يكون صاحب نظام قادر على إنقاذ البشرية من كثير من عقد الحياة.

وأما أن يكون صاحب فلسفة يضع مؤسسة الكون بين أيدي البشر على المشرحة.

وأما أن يكون صاحب حضارة روحية ومادية كاملة...

فالنبي (ص) – بهذه المواصفات – لم يدخل – بعدُ – في الذهنية الإسلامية العامة.

حقاً: أننا لم نؤهل – بعد – لاستقبال هذا النبي (ص) ... وذلك الكتاب... إنما كان يكفينا نبي وكتاب دون هذا المستوى بكثير؛ إلا أن يكون الله – تعالى – أرسله وأنزله – عبرنا – لمن يأتي بعدنا. والبشرية لم تنته بعد، والمستقبل أعقل من الماضي والحاضر.

اتصال وانقطاع الوحي

((ما كان (محمد) أبا أحد من رجالكم، ولكن: رسول الله، وخاتم النبيين. وكان الله – بكل شيء

- عليماً)) .

[(سور الأحزاب : الآية ٤٠) .

إن الأرض تتحرك بســرعة، ومضت فترات كانت الأرض في مدارات (الوحي)، وبلغت أدنى قربها فترة بعثــة النبي الأكرم (ص)، كما يقول الإمام الحســين (ع) في دعائه الشــهير (يوم عرفــة): (بعثه الله في خير زمــان)، فالتقط من (الوحي) أقصى وأرفع ما يمكن التقاطه لبشــر. ثم ابتعدت الأرض، ولذلك: وجد — في أمة النبي (ص) — من هم أفضل من أنبياء كثيرين ولكن (الوحي) لا ينزل عليهم، لأن الأرض في وضع غير مناسب لـ (الوحي).

مهام النبي (ص)

((يا أيها النبي !

إنا أرسلناك : شاهداً ، ومبشراً ، ونذيراً ، * وداعياً إلى الله بإذنه ، وسراجاً منيراً)) .

[(سورة الأحزاب : الآيتان ٤٥ – ٤٦) .

-١-

((يا أيها النبي! إنا أرسلناك)) إلى الناس:

١- ((شاهداً)) على الناس، ومقياساً، تظهر مقدار استقامتهم أو انحرافهم. تبين ذلك بذاتك كـ (قدوة)، وبتوجيهك كـ (مبلغ): فشخص القدوة – بذاته الصامتة – يحكم الناس، ويعرضهم على نفسه – في معادلة عفويــة – لكشــفهم على واقعهــم – بما فيهم من اســتقامة أو انحراف ـ، وتقييمهــم بقيمهم، وتحديدهم بحدودهم؛ بأفصح مما يعرضهم على توجيهه – في معادلة هادفة – لكشفهم وتقييمهم وتحديدهم.

٢- ((ومبشــراً)) كل من آمن بك ببشــارتين: بشــارة قوليــة، قدمتها إليهم – أول مــا أعلنت دعوتك – قائلاً:

(جئتكم بخير الدنيا والآخرة) (٢٧٠).

وبشارة عملية، بأن وفرت لهم: النجاح في الدنيا، والنعيم في الآخرة.

٣- ((ونذيراً)) كل من تخلى عنك بإنذارين: إنذار قولي، وجهته إليهم يوم نقلت إليهم قول ربهم:

((ومن أعرض عن ذكري، فإن له معيشة ضنكا...)) (٢٧١).

((الذي يصلى النار الكبرى ۞ ثم لا يموت فيها ولا يحيا)) (٢٧٢).

وإنذار عملي، بأن أثبتَّ لهم – عبر التجارب الكثيرة – أن من تخلف عن ركبك: فله الفشــل في الدنيا، والعذاب في الآخرة.

٤- ((وداعيــاً إلــى الله)) الذي هو: المصــدر الأول، والمنتهى الأخير، والمهيمــن على كل فرد في كل لحظاته، ومنه كل طاقات الإنسان، وكل ما ينعم به ويسعد... فلم تكن داعياً إلى فكرة محددة أو نعمة مؤقتة، وإنمــا كنت داعياً إلى الله الذي هــو كل الخير ومصدر كل نعمة. ولم تكن داعيــاً إليه بأي دافع من الدوافع البشرية – من: حب الذات، أو كسب المال، أو الجاه... –، ولم تكن متطفلاً في الدعوة إليه، وإنما كنت داعياً إليه ((بإذنه))، فهو الذي حملك رســالة الدعوة. فلم تكن مفترياً حسب تعبير القرآن – باستفهامه الإنكاري –:

((... قل: الله أذن لكم، أم على الله تفترون؟!)) (٢٧٣).

٥- ((وســراجاً منيراً)) تلقي الضوء على كل شــيء، ليرى الناس الأشياء على حقيقتها، فلا يهيموا في ظلام، ولا يذبذب بهم الشك في الوعور.

- ٢ -

((وداعياً إلى الله بإذنه)).

الداعي بدون إذن الله – تعالى – يشــبه: من يقوم بأعمال عســكرية على جبهة العدو بدون أمر من القيادة الرســمية، أو من يقــوم بأعمال بلدية لتأمين المصالح العامة ولكن بدون إجــازة إدارة البلديات، أو الذي

يقوم بأي عمل غير مأذون فيه من مصدر السلطة المختصة... فأصل الإقدام على العمل تمرد على السلطة المختصة، بغض النظر عن صحة العمل وانسجامه مع الخطة العامة. لأن المفروض في السلطة المختصة أن تكون أكثر وعياً وخبرة في مجالها. بالإضافة إلى: أن مجرد التصدي بدون إذن يعني إنكار ما للسلطة المختصة من حق. وحتى لو كان المتصدي للعمل بلا مأذونية أوفر خبرة من السلطة المختصة، فعليه تحصيل الإذن: لينال الشرعية، ولئلا يرتكب الفوضى.

((وسراجاً منيراً)).

كلمة (السراج) وردت في القرآن أربع مرات، وفي إحداها وصفت بالتوهج:

((وجعلنا سراجاً وهاجاً)) (٢٧٤).

و (الإنارة) وصف بها القمر، لأن نوره انعكاسي، وليس ضوءه كاشفاً. فلو اقترب أحدنا من جرم الشمس وجد خيوط الضوء قوية فتاكة، ولكنها لا تكون كاشفة، فرأى الشمس جرماً شبه أحمر. ولكن عندما ينعكس ضوءها على الكواكب – كالأرض، والقمر، والمريخ... – يصبح ضوءها نوراً قابلاً للكشف، أي قابلاً للتفاعل البصري المناسب لمشاعر الإنسان.

والنبي (ص) له ضوء، ولكنه ليس من نوع ضوء غير قابل للتفاعل النافع بحسب الاستعدادات البشرية، وإنما هو – بذاته – يؤدي دور الإشراق ودور الإنارة. فالشروق والتوهج يطلقان على ما له ضوء كالنجوم، والإنارة تطلق على ما ليس له ضوء وإنما يعكس ضوء غيره كالكواكب. وهنا... وصف السراج بالمنير لأحد أمرين:

١- أن الله جمع لنبيه (ص) خاصتين هما: (التوهج) المفهوم من كلمة (سراج)، و (الإنارة) المصرح بها في (منيراً). لأن للنبي (ص): جانب الإفاضة بالنسبة إلى البشر، وجانب الاستقبال بالنسبة إلى الله – تعالى –.

٢- أن النبي (ص) يتوهج، وهو يعكس ضوءه، فيكون له نور. وذلك: أن النجوم حينما تشرق إذا لم ينعكس ضوؤها على جسم قابل لتعكيس الضوء؛ فهو قادر على إصدار الضوء وتكييفه، بحيث يصبح قادراً على الإنارة بالنسبة إلى المدارك البشرية.

واقع النبي كونياً، وشخصيته اجتماعياً

((يا أيها الذين آمنوا !

لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام : غير ناظرين إناه – ولكن إذا دعيتم فادخلوا ، فإذا طعمتم فانتشروا – ، ولا مستأنسين لحديث . إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم ، والله لا يستحيي من الحق)) .

[سورة الأحزاب : الآية ٥٣] .

١- البشر ليست له قيمة ذاتية، وخاصة: عند الله – تعالى – الذي خلق كل شيء بلا جهد ولا تفكير:

((ولقد خلقنا: السماوات، والأرض، وما بينهما – في ستة أيام – وما مسنا من لغوب)) (٢٧٥)، وإنما بمجرد إرادة.

والبشر لا يشكل إلا جزءاً يسيراً من خلائقه الكثيرة:

((لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس، ولكن أكثر الناس لا يعلمون)) (٢٧٦). وإنما قيمته الواقعية بإيمانه، فالإيمان يجعله مرتبطاً بالله الذي هو مصدر القيم.

ولكن الإيمان يجعل البشر قيما في مقياس الواقع فقط، لأن الإيمان – في كل التحليلات الدينية – ليس أكثر من الاعتراف بالواقع:

((... إن الله هو الحق المبين)) (٢٧٧).

والاعتراف بالواقع يجعل البشر منسجماً مع الواقع العام، لا متناقضاً معه، فيكون عنصراً متوائماً مع ما يعايش، بحيث يستطيع التفاعل معه، بينما الكفر يعني عدم الاعتراف بالواقع.

وعدم الاعتراف بالواقع يجعل البشر متناقضاً مع الواقع العام، فيكون عنصراً متنافراً مع ما يعايش، فلا يستطيع التفاعل معه.

والاعتراف بالواقع يجعل البشر جزءاً إيجابياً، وكونه جزءاً إيجابياً يجعله في مصافِّ سائر الأجزاء الإيجابية في الكون. مع العلم بأن كل أجزاء الكون الحية إيجابية، ولا ينقلب شيء سلبياً – أي لا يموت – إلا وتسعى العناصر الإيجابية – أي الحية – إلى استهلاكه، ليتحول إيجابياً.

فالبشر المؤمن لا يزيد عن سائر الأجزاء الحية في الكون:

((... وفضلناهم على كثير مما خلقنا تفضيلاً)) (٢٧٨)، فقط: (على كثير)، لا على كل الخلائق.

إذن: فالبشر المؤمن قيم – في مقياس الكون – كسائر الأجزاء الحية فيه. وأما عند الله: فالإيمان ليس شيئاً قيماً – في عمق الحقيقة – إذ الإيمان لا يمثل شيئاً يذكر عند الله – الذي هو المطلق في كل صفاته –.

أقصى ما هنالك: أن عدل الله يقضي بمعاملة المؤمن إيجابياً – حسب النظام الذي قرره الله – وهذه المعاملة الإيجابية لا تعني أنه أصبح شيئاً يذكر عند الله.

وإذا أردنا التواضع في المثال نقول: إن المواطن الصالح يعامل من قبل الدولة معاملة إيجابية، وهذه المعاملة الإيجابية – بمقتضى القانون – لا تعني أنه أصبح شيئاً يذكر عند رئيس الدولة.

وأما أن يغدو فرد من البشر قيما ومحترماً عند الله، حتى يؤدب الله خلقه تجاهه، حتى في التخاطب معه – بمثل هذه اللهجة –:

((ما كان (محمد) أبا أحد من رجالكم، ولكن: رسول الله، وخاتم النبيين)) (٢٧٩).

((إن الذين ينادونك من وراء الحجرات، أكثرهم لا يعقلون)) (٢٨٠).

وأما أن يبلغ فرد من البشر عند الله؛ حتى يدافع الله عن راحته – بمثل هذه اللهجة –:

((يا أيها الذين آمنوا! إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة...)) (٢٨١).

((... إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم، والله لا يستحيي من الحق)) ...

أما أن يصل فرد من البشر إلى هذا المستوى، فهذا... شيء يعجز العقل البشري عن استيعابه: كيف

وصل؟! وبماذا؟!

تأمل هذا النص:

((... فيستحيي منكم، والله لا يستحيي من الحق))، وما فيه من دلالات عظيمة جداً.

٢- إن أصحاب الرسالات لا يحتاجون إلى غيرهم – لأنهم يحلقون فوق غيرهم – وإنما يحتاج إليهم غيرهم. ولكن جهل الناس – وسائر العقد المركبة فيهم – تجعلهم يعرضون عن أصحاب الرسالات، وأصحاب الرسالات – لوعيهم جهل الناس – يقبلون عليهم.

٣- ولكن لا يشترط في كل صاحب رسالة أن يمتاز بشخصية مهيمنة، فكانوا يسعون إلى الناس فيما الناس يهربون منهم، فكم من صاحب رسالة كان يجامل ويتواضع لجعل الناس يسمعونه:

فنوح النبي (عليه السلام) إذا وعظ قومه:

((... جعلوا أصابعهم في آذانهم، واستغشوا ثيابهم...)) (٢٨٢).

وعيسى بن مريم (عليهما السلام) يغسل أقدام تلاميذه...

ولكن النبي الأكرم (ص) – بشخصيته المهيمنة – كان غنياً عن المجاملة والتواضع. فالناس كانوا يلتصقون به، ويلتفون حوله أكثر مما هو ضروري لتبليغ رسالته، وكانوا يتملقونه إلى درجة الإزعاج، حتى نزل القرآن دفاعاً عن راحته – كبشر يحتاج إلى الانصراف إلى شؤون فكره وجسده –:

((... إن ذلكم كان يؤذي الرسول فيستحيي منكم، والله لا يستحيي من الحق)).

((إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة...)) (٢٨٣)، وفي الحديث أن النبي قال:

(اتركوني على ما أنا عليه، فما هلك من كان قبلكم إلا لكثرة اختلافهم على أنبيائهم) (٢٨٤) ...

وحتى في مجال العبادات، ما كان النبي (ص) يعلم أمته تعليماً كلاسيكياً، وإنما كان يعمل هو ويأمرهم بالاقتداء به:

(حجوا كما رأيتموني أحج) (٢٨٥)، (وصلوا كما رأيتموني أصلي) (٢٨٦)، (توضؤوا كما رأيتموني أتوضأ) (٢٨٧) ...

وجاء القرآن معلناً إسقاط دور (المعلم) عن الرسول ومنحه صفة (القدوة) وتكليف أمته بالاتباع:

((لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة...)) (٢٨٨).

فليس على الرسول أكثر من أن يعمل هو، وأما الناس: فعليهم أن يتتبعوا أعماله، وأن لا يتوقعوا منه التعليم المباشر.

وتوالت الآيات تؤكد المستوى الرفيع الذي يتحرك فيه الرسول:

((ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى)) (٢٨٩).

((ما على الرسول إلا البلاغ...)) (٢٩٠).

((... قل: (الله)، ثم ذرهم في خوضهم يلعبون)) (٢٩١).

(... فلا تذهب نفسك عليهم حسرات...)) (٢٩٢).

((يمنون عليك أن أسلموا، قل: لا تمنوا عليَّ إسلامكم، بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان، إن كنتم صادقين)) (٢٩٣).

بل: لك حقوق عليهم مقابل حقوقهم عليك، فليست لهم حقوق عليك بلا مقابل، ولست مديناً لهم حتى يطالبوك دائماً وأنت تغض عنهم:

((ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له...)) (٢٩٤). فليس عليك أن تعطي... وتعطي... وليس لهم أن يأخذوا... ويأخذوا... وإنما عليهم أن يضعوك حيث أنت، ولا بأس عليك باستيفاء ما لك عليهم.

فشخصية النبي (ص) القوية جعلته يسير، وجعلت الناس يهرعون وراءه، ويتزاحمون عليه، فيبعدهم عنه، ويأمرهم بالاكتفاء بالسير وراءه فقط كما تسير الشمس، وتتراكض حولها الكواكب الدائرة في

منظومتها، وهي تضبطها في فواصل معينة – بقوتي الجاذبية والدافعية: النسـبية العامة – حتى لا تقترب إليها أكثر مما ينبغي فتحترق بأشعتها.

وهذه... درجة عالية من قوة الشخصية، لم تعرف في غيره من الأنبياء والمصلحين والقادة.

حتمية الانسجام مع سنة الله

((سنة الله في الذين خلوا من قبل، ولن تجد لسنة الله تبديلاً)).

[(سورة الأحزاب: الآية ٦٢).

في الكون طاقات جبارة متفاعلة، هي بمثابة شبكة الأعصاب في الجسم، شد الله بها الكون. وللحياة سنن وبرامج، نظم الله بها الحياة، وسـيرها بهذا الشكل الملحوظ. ونسبة طاقات الفرد الواحد من بني الإنسان في مجموعة طاقات الكون، هي – ذاتها – نسـبة حجم الفرد الواحد من بني الإنسان في مجموعة حجم الكون. ونسـبة إرادة الفرد الواحد من بني الإنسان في سنن الحياة، هي – ذاتها – نسبة الفرد الواحد من بني الإنسان في مجموع الحياة.

فعلى الفرد الواحد من بني الإنسـان، أن يؤسـس إرادته على ضوء: نسبة حجمه في حجم الكون، ونسبة طاقته في طاقات الكون، ونسبة ذاته في الحياة، ونسبة إرادته في سنن الحياة.

فإذا أخذ هذه النسـب بنظر الاعتبار، يجد: أنه جزء مسـتهلك في الكون، وأن إرادته مسـتهلكة في سنن الحياة. فيعرف قدَّه ويلزم حده، ولا يحاول احتواء الكون والحياة، وإنما يحاول الانسجام معهما.

وأما إذا جهل هذه النسب، وأطاش به بعض الاستيعاب لبعض الطاقات الموضوعة تحت تصرفه، ووجد أن فـرداً آخر من بني نوعه، وضع قدماً على (القمر) وقدماً على (المريخ)، سـعياً للعروج إلى (المجرة)، والتفاهـم مع الأحياء الآخرين فيها؛ فظن أنه قمـة الكون والحياة، ومن ثم ففي مقدوره الطغيان على الكون وتحريك الحياة، وحتى الخروج على الله؛ فسرعان ما تصدمه طاقة مهملة من طاقات الكون، أو تجرفه سنة بسيطة من سنن الحياة؛ فتحطمه، وتنسف إرادته بأهون مما يعبث السيل بأوراق الخريف.

وكل مراهـق نـزق، يعجبه: أن يتصيد (النجوم)، وينشـرها على رأس صبية ترهقـه. وأن يعتصر مصل (الشمس)، في شرايين وردة ذابلة تغريه... ولا تمر لحظات حتى يشعر بأنه لا يستطيع الاستغناء عن رغيف

يشد معدته، أو كوب ماء يملأ عروق جسمه...

وأخيراً: تفنيه ذبذبة كهرباء، أو خطأة سير، أو ميكروب صغير لا تراه النظائر المشعة... ويؤذيه – كثيراً – أنه ليس في مستوى تحريك الحياة فقط، وإنما الحياة تحركه – بإرادتها القاهرة – كما تشاء؛ وأنه يجند كل طاقاته لاستجداء الحياة، علّها تتجاوب مع بعض رغباته.

فأنت – أيها الفرد من بني الإنسان! – لست في مواجهة مع طاقات الكون وسنن الحياة فحسب، وإنما أنت في مواجهة مع ما هو أعلى وأقوى، أنت في مواجهة مع (سنة الله): الذي أفرز كل طاقات الكون وسنَّ جميع سنن الحياة، فلا تفكر في الاصطدام بها. فليست بين يديك تجربة واحدة، أو تجارب قليلة أو كثيرة، وإنما بين يديك تجارب جميع البشر قبلك، وكل هذه التجارب تشير إلى نتيجة واحدة، هي:

أن سنة الله مكينة، اكتسحت كل الذين حاولوا التمرد عليها. والسنة التي أثبتت نفوذها ((في)) جميع ((الذين خلوا من قبل))، هي سنة لا معنى للتفكير في مقارعتها. فالإنسان لا يكرر تجربة لها نماذج فاشلة، بعدد كل البشر الذين سبقوا على هذا الدرب.

((و)) لا تحسب أن سنة الله تضعف أو تتطور فالانحدار والارتفاع – في سلم التطور – من صفات المتغيرات الخاضعة لتفاعلات الحياة، الدائبة في تجميع وتفريق الذرات الكونية، وتنويع الصور؛ حفاظاً على جدة الحياة وطراوتها.

وأما سنة الله، فهي إرادة الله. وإرادة الله فوق الحياة، فلا تخضع لتطوراتها. وإنما هي ثابتة، تصرف الأشياء، ولا يتصرف فيها شيء. فـ ((لن تجد لسنة الله تبديلاً)).

العمل الصحيح، والعمل الصالح

((يا أيها الذين آمنوا ! اتقوا الله، وقولوا قولاً سديداً، * يصلح – لكم – أعمالكم، ويغفر – لكم

– ذنوبكم . . .)) .

[(سورة الأحزاب : الآيتان ٧٠ – ٧١) .

-١-

قبل الدخول في محاولة فهم هذه الآية، لا بد من أن نعرف العمل، ونفرق بين أقسامه:

١- فالعمل، هو الحركة الفاعلة في الوجود.

٢- وهذه الحركة الفاعلة:

أ. قد تكون غير مدروسة، فتستهلك طاقة دون أن تتكشف عن نتاج، فتكون عملاً ناقصاً.

ب. وربما تكون مدروسة، مستوفية الأجزاء والشرائط، فتكون وحدة متكاملة، تستهلك طاقة وتفرز نتاجاً، فيكون عملاً صحيحاً.

وتبقى ملاحظة هذا العمل الصحيح، من زاوية موقعه في العمل التصاعدي العام للإنسان في الوجود:

ج. فقد يكون العمل الصحيح، متنافراً مع العمل التصاعدي العام، الذي يجب أن يمارسه الإنسان، فيكون عملاً طالحاً.

د. وربما يكون العمل الصحيح منسجماً مع العمل التصاعدي العام، الذي يجب أن يمارسه الإنسان، فيصلح لبنة في الكيان العملي للإنسان، ويكون عملاً صالحاً.

من هنا... يبدو الفارق واضحاً بين العمل الصحيح والعمل الصالح:

فالعمل الصحيح هو الذي يكون متكاملاً، لو نظرنا إليه نظرة مستقلة لم نلاحظ بها موقعه الجغرافي من مخطط العمل الإنساني في الوجود، فهو – بحد ذاته – شيءٌ بلغ نصابه واستكمل مواصفاته، ويمكن أن يكون متناقضاً مع بقية أجزاء العمل الإنساني العام.

بينما العمل الصالح هو الذي استوفى كماله الذاتي، ولوحظت – في إخراجه إلى الوجود – هندسة الكيان العملي للإنسان. فالقنبلة الموقوتة الموضوعة تحت البناء: عمل صحيح، لو نظرنا إليه نظرة مستقلة عن موقعه، لأنه استكمل مواصفاته وأحرز قيمته الذاتية. ولكنه ليس عملاً صالحاً، لأنه – بموقعه – يناقض الهدف الذي من أجله شيد البناء.

بعد هذه المحاولة السريعة لمعرفة العمل، والتمييز بين أقسامه؛ يمكن أن نبدأ المحاولة لفهم الآية، فهي شرائط صلاح العمل، ولخصتها في:

١ـ أن ينطلق العمل من قاعدة (التقوى) لا من قاعدة الشيطان، ولا من قاعدة الشهرة، ولا من قاعدة التجارة بالدين، ولا من أي القواعد ما عدا (التقوى). لأن الله الذي هو مصدر الكون، خطط للعمل الإنساني فيه تخطيطاً منسجماً مع تخطيطه للعمل الكوني.

وتقوى الله تعني الالتزام الكامل بتوجيهاته، التي تضع الإنسان في مجرى ذلك المخطط. وهذا الالتزام، يطمئن الإنسان إلى أنه وضع عمله في الموضع المناسب له، حسب الهندسة المتكاملة لعمل الموضع المناسب في الكون (٢٩٥). وبغير التقوى، يمكن أن يكون عمل الإنسان أشبه بقنبلة موقوتة موضوعة في أساس العمل الإنساني العام في الكون.

ـ ٢ ـ

ينبغي أن يكون العمل خاضعاً لقيادة (الصادقين) من عباد الله، وهم الأنبياء وأوصياؤهم (عليهم السلام)، لأنهم الخبراء بتفاعلات العمل الكوني مع العمل الإنساني. وتأهيلاً لهذه الخبرة، ولمؤهلات نفسية عالية، منحهم الله صلاحية القيمومة على تنفيذ العمل الإنساني العام في الكون. فهم الوحيدون الذين يحددون عمل كل إنسان، بمقتضى المصلحة العامة، التي تنبعث من الرؤية الواضحة لجميع الاعتبارات، التي لها تأثر في تحديد عمل الإنسان؛ تلك المصلحة العامة التي لا يستوعبها غير المعصومين استيعابهم لها، مع صلاحيتهم لتولي تحديد عمل كل إنسان.

والخضوع للقيادة، شرط أساسي لصلاح العمل في كل المجالات الدنيوية، التي قد لا يختلف في استيعابها القائد والمقود؛ فكيف بالمجالات الدينية الدقيقة التي تعتمد على أمور ورائية غامضة، ليس فيها ادعاء لأي إنسان، إلا إذا أمده الله برؤية ماورائية، وعصمه من الزيغ والخطأ والنسيان؟!:

فالجندي، لا يحق له أن يشد على الزناد إلا بأمر القائد، مهما كان عدوه واضح الانحراف. وإلا: ربما

يعرض نفسه وشعبه وبلده، للهلاك والاتهام.

والمهندس، لا يحق له أن يفتح شــارعاً – مهما كانت الضــرورة ملحة إليه – إلا بموافقة زميله المكلف بتخطيط المدينة. وإلا: قد يعاقب بهدم بيوت المواطنين، وإرباك السير، وتشويه المدينة...

ذلك: أن كل فرد يرى الوضع الذي يطل عليه من موقعه، فإذا أراد أن يحكم لا يســتطيع إلا إصدار حكم مســتوحى مــن هذا الوضع بالذات. بينمــا المكلف بأداء واجب عام، يرى هذا الوضــع، ويرى – إلى جانبه – مجموعــة أوضاع متفاعلة مع هذا الوضع. وربما يكون لمجموعها حكم مختلف – تماماً – عن ما يوحي به هذا الوضع لو استوحي على انفراد.

فالعمــل الصالح هو: الذي ينطلق من قاعدة تقوى الله، ويخضع لقيادة الصادقين من عباد الله. وإلا: فليس بعمل صالح يجلب الثواب، وربما يكون طالحاً يعرض للعقاب.

الإرادة الحرة

[إنا عرضنا الأمانة على: السماوات، والأرض، والجبال. فأبين أن يحملنها، وأشفقن منها، وحملها الإنسان. إنه كان ظلوماً جهولاً)).

[(سورة الأحزاب: الآية ٧٢).

إن الله – تعالى – عندما خلق الكون سخره في نظام صارم دقيق:

((وســخر لكم الشــمس والقمر دائبين، وســخر لكم الليل والنهار)) (٢٩٦) ... فالكون كله – ابتداء من وحدات: الأوكســجين، والهيدروجين، وثاني أوكسيد الكربون...؛ وانتهاء بالمجرات الهائلة – كلها تتحرك من خلال نظام فرض عليها، دون أن يملك أي شيء فيها إرادة مستقلة أو حرية في التحرك وعدمه:

((لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار، وكل في فلك يسبحون)) (٢٩٧).

وخلق الله الإنسان:

فجعل قســماً منه مســخراً، يتحرك دون أن يكون له فيه إرادة مســتقلة أو حرية في التحرك أو عدمه:

فيولد من أبوين ما اختارهما أبوين لنفســه، وفي زمان ما فضلــه لميلاده، وفي مكان ما ارتضاه. ويتحرك قلبه، وكبده، ورئته، وكل عضلاته وغدده وعروقه...؛ كل بشكل ما استشير فيه. وتجري الدورة الدموية في جســمه، بشكل لم يعرف عنه شــيئاً ولا أحاط به علماً. وهكذا... كل تطوراته الجسدية. وهذا القسم، مجال التكوين.

كما أن الله جعل القسم الآخر من الإنسان مخيراً، يتحرك بإرادته المستقلة، وله الحرية الكاملة في التحرك وعدمه: فكل فرد يشــعر بأن إرادته هي التي تقرر أن يشــرب الخمر أو أن يصوم، وأنه حر في أن يزني أو أن يصلي، وله مطلق الاختيار في أن يقامر أو أن يتصدق، وهكذا... في كل تصرفاته وتعاملاته مع الله ومع نفسه ومع مجتمعه. وهذا القسم، مجال التشريع.

فالله – تعالى – منح للإنســان الإرادة الحرة ليعرضه للتجربة، تجربة نموه وامتداده. بينما لم يتكرم بهذه المنحة: منحة الإرادة، على الكرات الضخمة والمجرات الهائلة. ولكن هذه المنحة، منحة خطرة جداً:

فطاقة الإرادة – إذا أخذت مجاريها السليمة – يمكن أن تبلور الإنسان خلقاً فريداً يتقرب به الملائكة إلى الله، وتوسعه حتى يحتوي الكون فيتصرف فيه كيف يشاء (٢٩٨)، وتحكمه حتى يستوعب إرادة الله (٢٩٩).

وإذا أخذت مجاري منحرفة، تفجر الإنســان مادة سامة: فلا يلامس شيئاً إلا ويحرقه (٣٠٠)، ويتحدى الله وهو يعلم ماذا تعني كلمة الله (٣٠١).

فالإرادة الحرة أمانة الله لدى الإنسان، التي لا بد أن يحسن التصرف بها. تلك الأمانة الخطرة التي اعتذرت من تحملها الكائنات الضخمة:

((السماوات، والأرض، والجبال))، فلم تحتمل الإرادة الحرة، وفضلت أن تبقى مسخرة يسيرها الله كما يشاء دون أن تتعرض للتجربة، رغم أن أحد الاحتمالين أن تنمو وتتسع بالتجربة، ولكن إشفاقاً على أنفسها أن تفشل التجربة، فتتعرض لعقاب لا قبل لها به.

(٣٤)

سورة سبأ

مكية

وهي أربع وخمسون آية

(٣٥)

سورة فاطر

مكية

وهي خمس وأربعون آية

استقرار سنة الله

((. . . ولن تجد لسنة الله تحويلاً)) .

[(سورة فاطر : الآية ٤٣) .

((و)) لا تمن نفسك بأن سنة الله تتحول عنك إلى غيرك. وهذا الإيحاء الذاتي، الذي يشجع الناس على كثير من الاقتحامات والتطلعات، غير صحيح؛ فالموت، حق للجار. والجندي يتوقع أن يصرع الكثيرون من رفاقه، ولا يتوقع أن تقصده رصاصة. والحاكم الثائر، لا يصدق أن يثار عليه. والشاب الفتي، لا يستطيع أن يتصور نفسه هرماً مهترئاً...

وكل فرد يرى من حقه الاستئثار بينما يرى الإيثار على الآخرين، ويجمع المبررات لنفسه والحجج على الآخرين، حتى كأن كل فرد يظن أن الله يحبه ويحب صفاته وأعماله بمقدار ما يحب – هو – نفسه وصفاته وأعماله، ويعتقد بأن مقاييس الحياة تعامله كما يعامل نفسه، ويتصور بأن موقعه من الكون حيث يحب لا حيث هو...

ولكن هذه الظنون تسولات أنانية يكذبها الواقع القاهر، فجميع الناس واقفون أمام حكم الله سواسية كأسنان المشط، ونظام الحياة لا يعترف بالاستثناء، ولا يعرف الابن المدلل: (... فلو أن أحداً يجد إلى البقاء سلماً، أو إلى دفع الموت سبيلاً؛ لكان ذلك (سليمان بن داود) (عليهما السلام) الذي سخر له ملك الجن والإنس، مع النبوة وعظيم الزلفة. فلما استوفى طعمته، واستكمل مدته؛ رمته قسي الفناء بنبال الموت،

وأصبحت الديار منه خالية، والمساكن معطلة، وورثها قوم آخرون) (٣٠٢).

فالمقاييس العامة تحاسب الجميع حساباً واحداً، فمهما حاولت (لن تجد لسنة الله تحويلاً)).

لحظات التوجه... ولحظات التحدي...

((والذين كفروا ، لهم نار جهنم ، لا يقضى عليهم فيموتوا ، ولا يخفف عنهم من عذابها . كذلك : نجزي كل كفور *

وهم يصطرخون فيها :

- ربنا ! أخرجنا ، نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل .

- أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ، وجاءكم النذير ؟ ؟ ! ! فذوقوا ، فما للظالمين من نصير)) .

[(سورة فاطر : الآيتان ٣٦ – ٣٧) .

((أ ولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر)).

ما هو مقدار زمان تذكر من يتذكر؟

الصواب: أنه يتم في لحظات، وذلك: أن الوصول إلى مستوى الجنة، لا يحتاج إلى: سنة، ولا شهر، ولا يوم. بل يكفي فيه لحظات. لأن لحظات التمركز في التوجه الصحيح، هي التي توصل الإنسان إلى الجنة. كما أن لحظات التحدي للحقيقة، هي التي تردي إلى مستوى النار.

وهل هذه اللحظات، تكون – في عمر إنسان – أكثر من ساعة؟!

أما المعصومون (عليهم السلام): فكانوا يكثرونها، لأنهم يريدون: (أعلى عليين)، لا مجرد مستوى الجنة.

وأما أئمة النار: فكانوا يكثرون منها، لأنهم يلتقون: (أسفل سافلين).

(٣٦)

سور يس (ص)

مكية

وهي ثلاث وثمانون آية

الصراع بين الزمان والموجود

((ومن نعمره، ننكسه في الخلق أفلا يعقلون؟!)).

[(سورة يس: الآية ٦٨).

كل شيء خاضع لنظام الزمان، يبقى في صراع دائب مع الزمان. فالزمان يغالبه ليقهره، وهو يقاوم الزمان لئلا يقهر.

وحيث أن الزمان في تصاعد دائم، فإنه لا يشل عن التأثير، ولا يلغى مفعوله – مهما اشتدت مقاومة الموجودات – فالزمان يستهلك، ويفت فيها، حتى يعجزها عن المقاومة. فيستهلكها، ويحولها إل عناصرها الأولية، لتأخذ صيغة وجودية أخرى.

ومقاومة الموجودات للزمان، ليست بانغلاقها عن الزمان، بحيث يعجز الزمان عن استهلاك شيء منها، وإنما بتصعيد طاقة التغذي فيها. فالصراع، ينقلب بين الزمان الذي يستهلك منها، وطاقة التغذي التي تمدها ببدل ما يستهلك منها الزمان، وتنقلب الموجودات إلى مسارح لهذا الصراع.

وكل موجود – منذ أن يتقمص صيغة وجودية إلى أن يخلعها – يمر الصراع فيه بأربع مراحل:

الأولى: مرحلة غلبة طاقة التغذي في الموجود على طاقة الاستهلاك في الزمان، فيستهلك الموجود من العناصر الحية أكثر مما يستهلك منه الزمان. وهذه: (مرحلة الفتوة) التي ينمو فيها الموجود.

الثانية: مرحلة تساوي طاقة التغذي في الموجود مع طاقة الاستهلاك في الزمان، فيستهلك الموجود من العناصر الحية بمقدار ما يستهلك منه الزمان. وهذه: (مرحلة الكهولة) التي يتوقف فيها الموجود عن النمو.

الثالثة: مرحلة قصور طاقة التغذي في الموجود عن طاقة الاستهلاك في الزمان، فيستهلك الموجود من العناصر الحية أقل مما يستهلك منه الزمان. وهذه: (مرحلة الشيخوخة) التي ينتكس فيها الموجود، فيتضاءل ويتقلص.

الرابعة: مرحلة توقف طاقة التغذي في الموجود، فيستهلك منه الزمان بدون أن يستهلك هو شيئاً من العناصر الحية. وهذه: (مرحلة الموت) التي يخلع فيها الموجود صيغته الوجودية، ليتقمص صيغة وجودية أخرى، أو يستهلك في موجودات أخرى.

فكل من يعمره الله، ينكسه في خلقته.

وليست هذه المراحل الأربع، مسار الإنسان – وحده – في الوجود. وإنما هي مسار كل شيء خاضع لنظام الزمان: فالحيوان، والنبات، والجماد، كلها... تمر بهذه المراحل، مع الفارق في قدراتها على الصمود. فبينما لا يلبث الإنسان – في كل مرحلة – أكثر من (ثلاثين سنة) عادة؛ قد يلبث الحيوان، والنبات... – في كل مرحلة – قروناً، أو أياماً، أو ساعات...

وكما أن هذه المراحل الأربع، مسار الموجودات الحية: هكذا... تكون مسار المعاني الحية، التي تعتمد على الموجودات الحية: كالأنظمة، والأعمال... وكالأحزاب، والشعوب، والأمم...

فكل ما يعتمد – في وجوده – على الإنسان؛ يتصاعد، ثم يتوقف، ثم يتراجع، ثم يتلاشى ليستهلك في غيره.

فالنظام الملكي – مثلاً – أخذ في التصاعد في أوائل التاريخ، حتى شمل أكثر القطاعات البشرية. ثم: توقف قروناً. ثم: بدأ في التراجع ليستهلك في النظامين: الديني، والجمهوري. وثم: يأتي اليوم الذي يتلاشى فيه تماماً، ويغدو من الأنظمة التاريخية.

والعمل التجاري – مثلاً –، سواء أ كان بصفة تجارة فردية أو شركة، فإنه يتصاعد بتصاعد نشاط القيمين عليه. ثم: يتوقف بتوقف نشاطهم. ثم: يتراجع بتراجع نشاطهم. ثم: يموت بموت نشاطهم – في مجاله –.

والحزب النازي – مثلاً – مر بنفس المراحل، حتى لم يبق منه إلا عناصر أشبه بعناصر الميت، التي لا تحمل أكثر من الدلالة على أصلها.

وشــعب الهنود الحمر – مثلاً – مر بنفس المراحل، حتى أصبح من الذكريات البشــرية، التي تعرضها الأفلام للتسلية.

والأمة الإسلامية – مثلاً – عاشت المرحلة الأولى في عهود النبي والوصي عليهما وآلهما السلام، ومرت بالمرحلة الثانية في عهود السلاطين الذين جعلوا الحكم ملكا عضوضاً، وهي – اليوم – في مرحلتها الثالثة، مرحلة الشيخوخة. ولكن الله – تعالى – وعد بأن يظهر من يعيدها إلى المرحلة الأولى.

فكل شــيء له وجود حسي أو ذهني: إذا كان يأخذ من الحياة أكثر مما يعطيها، فهو في المرحلة الأولى، وإذا كان يأخذ منها ويعطيها بقدر ســواء، فهو في المرحلة الثانية. وإذا كان يأخذ منها أقل مما يعطيها، فهو في المرحلة الثالثة. وإذا كان لا يأخذ منها ويعطيها، فهو في المرحلة الرابعة.

الإنسان بين الإنشاء والإحياء

((وضرب – لنا – مثلاً؛ ونسي خلقه.

قال: من يحيي العظام وهي رميم؟! *

قل: يحييها الذي أنشأها – أول مرة – وهو بكل خلق عليم)).

[(سورة يس: الآيتان ٧٨ – ٧٩).

يتســاءل: إذا فتحنا قبر إنسان – بعد سنوات من موته – نجد عضلاته، وأعصابه، وكل مواده الجسدية... فقــدت صيغتها، وتحولت إلى مادة شــبيهة بالتراب، ولا نجد منه إلا هيكلــه العظمي، وهو في طريقه إلى الانسلاخ من صورة العظام، فهي: رميم: عظام نخرة، تتفتت بمجرد أن تلمسها اليد.

وقد يمضي التساؤل – معقداً – فيقول: لو فتحنا قبر إنسان ـ مضى على موته ألف سنة أو أكثر – لا نجد حتــى هيكله العظمي، لأنه قد تحول بكله إلى تراب. وذلــك التراب، لا يبقى – في لحده – إلى الأبد: فقد تخرجه الحفريات. وتذروه الرياح في البحار والفلوات، أو تتصاعد به إلى القمم، أو تهوي به إلى الحفر.

والمطر والشمس والهواء، قد تحوله إلى نبات يأكله الحيوان أو الإنسان، فيجري في عرقه دماً، وفي جسمه خلايا حية... فكيف يجمعها الله – سبحانه وتعالى – ويعيده: ذلك الإنسان السوي – بكل نبضه، وفكره، وأعصابه... ـ حتى يمثل للحساب؟!

وحتى لو اقتصرنا على العظام الرميم؛ فـ ((من يحيي العظام وهي رميم؟!)) والإنسان إذا مات فبمجرد موته، لا يستطيع إنسان أن يحييه، فكيف به إذا صار رميماً؟!

وأجاب القرآن – عن هذا التساؤل – بجوابين: جواب مختصر، وجواب مفصل. فالجواب المختصر:

((نسي خلقه)) فهو خلق، كما يحيي التراب المنتشر في كل مكان.

والجواب المفصل: ((قل: يحييها الذي أنشأها أول مرة)).

فالإنسان خلق من أتربة متلملمة من شتى أصقاع الأرض. إن طريقة الله في خلق الإنسان من شتى أصقاع الأرض، هي طريقة الله في إعادة الإنسان.

ذلك: أن كل فرد، يؤلف كيانه الجسماني:

من غبار ينقله الهواء إلى الماء، فيشربه الإنسان ويصبح جزءاً من جسمه.

ومن تراب كان في مزارع السكر النائية، فامتصتها جذور قصب السكر، وتحولت – في معامل الله الدقيقة البسيطة التي تسمى بالنبات – إلى مادة، تحولت بعدها إلى سكر، أرسله الله – بألف وسيلة ووسيلة – ليأكله الإنسان، فيصبح جزءاً من جسمه.

ومن تراب تحول إلى قمح، ومن تراب تحول إلى فاكهة، ومن تراب ملح... يأكلها الإنسان، فتغدو أجزاء في جسمه.

ومن تراب تحول إلى نبات، أكله الحيوان، فتحول – في معامل الله المعجزة، الداخلة في جسم الحيوان – إلى لحم يأكله الإنسان، ليكون جزءاً من جسمه.

وهكذا...

فلو حللنا جسم الإنسان الذي يقول:

((من يحيي العظام وهي رميم؟!))، لوجدنا جسمه مؤلفاً من عشرات الملايين من الخلايا الترابية، المنقولة من بقاع الأرض، ابتداء بقاعات البحار وانتهاء إلى قمم الجبال.

فكما أن الله ألَّفك من الأتربة المجموعة من شتى أقطار الأرض، هكذا... يجمعك إذا انتشرت في شتى بقاع الأرض بالموت.

فمن يقول: ((من يحيي العظام وهي رميم؟!))، نسي أنه كان رميماً في بطن أمه، فخلقه الله إنساناً.

ومن يقول: (كيف يعاد تأليف الإنسان إذا انتشر؟!)، نسي أنه كان تراباً منتشراً ألفه الله إنساناً. ولو فكر في مبدئه – هو – لعلم: أن الله كما أنشأه يعيده.

لأن الإنشاء أصعب من الإعادة، وحيث أن الله قادر على الإنشاء – بدليله هو – فهو أقدر على الإعادة والإحياء.

(٣٧)

سورة الصافات

مكية

وهي مئة واثنتان وثمانون آية

المنتصر العملاق، عبر التجارب الضخمة

((وإن من شيعته لإبراهيم * إذ جاء – ربه – بقلب سليم * إذ قال – لأبيه، وقومه – : ماذا تعبدون؟! * أ

إفكاً آلهة – دون الله – تريدون؟ ! * فما ظنكم برب العالمين؟ ! *

فنظر نظرة – في النجوم – فقال : إني سقيم . *

فتولوا – عنه – مدبرين . *

فراغ إلى آلهتهم ، فقال : ألا تأكلون؟ ! * ما لكم لا تنطقون؟ ! * فراغ عليهم ضرباً باليمين . *

فأقبلوا – إليه – يزفون . *

قال : أ تعبدون ما تنحتون ؛ * والله خلقكم وما تعملون؟ ! *

قالوا : ابنوا – له – بنياناً ، فألقوه في الجحيم . *

فأرادوا – به – كيداً ، فجعلناهم الأسفلين . *

وقال : إني ذاهب إلى ربي ، سيهدين . *

رب ! هب لي من الصالحين . *

فبشرناه بغلام حليم . *

فلما بلغ – معه السعي – قال : يا بني ! إني أرى – في المنام – أني أذبحك ، فانظر : ماذا ترى؟ قال : يا أبت ! افعل ما تؤمر ، ستجدني – إن شاء الله – من الصابرين . *

فلما أسلما ، وتله للجبين ، * وناديناه – أن – : يا إبراهيم ! * قد صدقت الرؤيا ، إنا – كذلك – نجزي

المحسنين ، *إن هذا . . . لهو البلاء المبين . *

وفديناه بذبح عظيم . *

وتركنا عليه في الآخرين . *

سلام على إبراهيم ، *كذلك : نجزي المحسنين ، *

إنه من عبادنا المؤمنين . *

وبشرناه بـ: (إسحاق) نبياً من الصالحين . *

وباركنا عليه ، وعلى إسحاق .

ومن ذريتهما : محسن ، وظالم – لنفسه – مبين)) .

[(سورة الصافات : الآيات ٨٣ – ١١٣) .

النبي إبراهيم (ع) أعد لرسالة عظيمة، جرت بعده في رسالات: موسى، وعيسى، ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين:

((يا أيها الذين آمنوا! اركعوا، واسجدوا، واعبدوا ربكم، وافعلوا الخير، لعلكم تفلحون. ۞ وجاهدوا – في الله – حق جهاده. هو اجتباكم، وما جعل – عليكم – في الدين من حرج، ملة أبيكم: (إبراهيم)، هو سماكم: (المسلمين) من قبل، وفي هذا. ليكون الرسول شهيداً عليكم، وتكونوا شهداء على الناس. فأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، واعتصموا بالله. هو مولاكم، فنعم المولى، ونعم النصير)) (٣٠٣).

فعليه – إذن – أن ينضج... وينضج – ويسموا أكثر... فأكثر... فتعرض لثلاث تجارب قاسية:

١- تجربة التضحية بالمال: حيث ضحى بماله – كله – في سبيل سماع: (اسم الله)، يوم كان إبراهيم: (المؤمن الوحيد) على الأرض، فكان – وحده – يشكل: (أمة). وقال الله عنه – مؤرخاً تلك الفترة من حياته

ـ:

((إن (إبراهيم) كان: أمة، قانتاً لله، حنيفاً، ولم يك من المشـــركين، ۞ شاكراً لأنعمه، اجتباه، وهداه إلى صراط مســـتقيم. ۞ وآتيناه — في الدنيا — حســـنة، وإنه — في الآخرة — لمن الصالحين. ۞ ثم: أوحينا — إليك — أن اتبع ملة: (إبراهيم) حنيفاً، وما كان من المشركين)) (٣٠٤).

٢- وتجربة التضحية بالنفس: يوم أراد (نمرود) إعدامه حرقاً بالنار، فلم يركع أمامه، وصمد، حتى رماه المنجنيق في النار، ولكن رحمة الله، جعلت — له — النار برداً... وسلاماً.

٣- وتجربة التضحية بالولد: ولعلها أقســـى التجـــارب، ولكن الظروف لم تهيئ له التجربة، فأعد الله به التجربة، بأدنى إشارة وبأصعب أشكالها:

بأدنى إشارة: فلم ينزل عليه ملك بهذه التجربة، ولم يسمع وحياً، وإنما رأى — في المنام — أنه يذبح ولده إسماعيل. ورؤيا الأنبياء وحي، ولكنها أدنى الوحي.

وبأصعب أشكالها: بأن يذبح ابنه الشاب بيده. وما أصعب — على الوالد — ذبح ابنه الشاب بيده!

ونجح إبراهيم في هذه التجربة، ولم يبق بينه وبين موت الولد إلا فري السكين، فلم تغر السكين. وبهذا... أثبت إبراهيم، أنه إنســـان ليس له أوج... وليس له مدى... فكان جديراً بحمل رســـالة، ليس لها بعد قومي... أو زماني... أو مكاني...

هكذا... الإنسان المؤمن، يعرض للتجربة، حتى يبلغ أوجه... ويبلغ مداه... فإذا الأحداث لم تعبر به تجربة تكشف مداه، فلا بد من افتعال تجربة تضعه في حدوده.

(٣٨)

سورة ص

مكية

وهي ثماني وثمانون آية

الحياة... والإنسان...

((وهل أتاك نبأ الخصم؟ إذ تسوروا المحراب . *إذ دخلوا على : (داود) ففزع منهم ، قالوا : لا تخف ، خصمان بغى بعضنا على بعض ، فاحكم – بيننا – بالحق ، ولا تشطط ، واهدنا إلى سواء الصراط : *

إن هذا – أخي – له : (تسع وتسعون نعجة) ولي (نعجة واحدة) ، فقال : أكفلنيها . وعزني في الخطاب؟ *

قال : لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وقليل ما هم .

وظن : (داوود) : أنما فتناه ، فاستغفر ربه ، وخرَّ راكعاً وأناب . *

فغفرنا – له – ذلك ، وإن له – عندنا – لزلفى ، وحسن مآب . *

يا داود ! إنا جعلناك : (خليفة في الأرض) فاحكم – بين الناس – بالحق ، ولا تتبع : (الهوى) فيضلك عن سبيل الله . إن الذين يضلون عن سبيل الله . لهم عذاب شديد ، بما نسوا : يوم الحساب)) .

[(سورة ص : الآيات ٢١ – ٢٦) .

الحياة، مراحل بين: الماضي، والحاضر، والمستقبل. وأطوار بين: الزمان، والمكان، والمجتمع، والإنسان. بينها: فكرة تبحث، ويد تعمل. وإذا كانت الأفكار... والأيدي... كثيرة، فإنها تصنف ثلاثة أصناف:

١- العاملة للخير.

٢- العاملة للشر.

٣- العاملة بلا هدف. مندفعة بالفرديات الأنانية.

(٢٩)

سورة الزمر

مكية

وهي خمس وسبعون آية

غفران الذنوب وخلق النار

((قل:

يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم!

لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعاً. إنه هو الغفور الرحيم)).

[(سورة الزمر: الآية ٥٣)].

س: كيف يغفر الله الذنوب جميعاً؛ وقد هدد عليها بالعقاب؟ وإذا كان الله يغفر جميع الذنوب؛ فلمن خلق النار؟

ج:

١- إن الله قال: ((يغفر الذنوب))، وما قال: يغفر الشرك والكفر. فلعله خلق النار للكفار والمشركين.

٢- إن الله قال: ((يغفر الذنوب)). والمتبادر من كلمة: ((الذنوب)) معاصي الجوارح، أما تمرد القلب: فهو خارج عن مفهوم كلمة الذنوب. وتمرد القلب، هو الجرم الأكبر، الذي أشار إليه القرآن بقوله:

((... فإنه آثم قلبه)) (٣٠٥)، وورد في دعاء كميل بن زياد: (... لولا ما حكمت به من تعذيب جاحديك، وقضيت به من إخلاد معانديك...) (٣٠٦)، فالله حكم بتعذيب جاحديه، وقضى بإخلاد معانديه، فلعله خلق النار لهؤلاء، لا لأصحاب الذنوب، التي لا تنبع من القلوب، ولا تتسرب إلى القلوب.

٣- لعل الله عندما قال:

((إن الله يغفــر الذنوب جميعاً))، كان يعني: أنه لا ذنب يســتعصي على الغفران، وأن رحمة الله تتجاوز غضبه. وما قال بأنه سيغفر جميع الذنوب، لجميع الخلائق، بدليل سبعة قوله تعالى:

((لا تقنطوا من رحمة الله))، فيعني: أن رحمة الله – بالطبع – قادرة على ستر جميع الذنوب.

٤- إن الله لا يخالف وعيده، لأنه لا يفتقر إلى شيء حتى ينكل عن شيء مما أوعد عليه، ولكنه قد يهدد ثم لا ينفذ، لأن رحمته وســعت كل شــيء. فلربما توجد مبررات للرحمة – ولو من غير المذنب، مثلاً: من والديه، أو أبنائه – فتشمله الرحمة، لاعتبارات خارجة عن المعادلة الموضوعية بين الذنب والعقاب، فيكون التهديــد صدقاً وإيقاف التنفيذ حقاً، لأن التهديد يعني: أن أصل هــذا الذنب بطبعه يؤدي إلى ذلك العقاب بطبعه. فإذا وجدت اعتبارات خارجة عن طبيعة الذنب، فإنها يمكن أن تؤدي إلى إيقاف التنفيذ.

وهذا... ما نجده – بوضوح – في كثير من أولياء الأطفال، والحكام العاديين.

٥- هنالك حقيقة نفســية، لا بد من استيعابها، مقدمة لفهم هذه الآية، وهي: أن الإنسان قد يختار طريق الانحراف، بمحض إرادته، وهو يجد أمامه طريق الاســتقامة مفتوحاً، كما قال القرآن: ((وهديناه النجدين)) (٣٠٧). فيرى النجدين، ثم يســلك نجد الشر، عن ســابق تصميم وإصرار. فيكون مذنباً: عند الله، وفي نظر الناس.

وربما تحيطه ظروف خارجة، وأحاســيس داخلة، تسـول له: أن رحاب الدنيا، قد انتهت إلى هذا الطريق الضيق الوعر، الذي هو طريق الشــر، فيســلكه كالمضطر. والذين لا يعرفون العوامل المتفاعلة، حوله وفي داخلــه، يعاقبونه بلغة القانون، لأنهم لا يرونه مضطراً. ولكــن اللطيف الخبير، الذي يعلم دخائل النفوس، يعلم أنه سلك طريق الشر بمشاعر المضطر، فيعامله – برحمته – بلغة الواقع.

- مثلاً: لو حملت إنساناً كيساً من القطن، حجمه يدل على أن وزنه عشركيلوات، وأخفيت فيه كمية من الصلب تزن ألف كيلو، فيســقط الرجل: فأنت الذي تعلم مــا حملته، تعرف أنه انهار، فتعذره. ولكن الذي يرى القطن، ولا يعرف ما في داخله، يحسب أنه سقط تهرباً، فيعاقبه.

- مثلاً: لو دخلت، في عز الصيف، غرفة مبردة، فأشعلت النار لتتدفأ بها: فالذي يعرف أن الغرفة مبردة، يعذرك. والذي لا يعرفها مبردة، يلومك.

هكــذا... ظاهر الآيات والروايات يهدد كل من خالف، والقانــون يعاقبه – بغض النظر عن الاعتبارات الداخلــة – لأن الأعــذار بالاعتبارات الداخلة، لو قبلت لدرء العقاب، لخالــف الكثيرون، وتعذروا كاذبين، فعطــل النظام. ولكن الذي يقيــم كل أوضاع الفرد، أدق منه، قد لا يعاقــب الكثيرين ممن يعتبرهم الناس مجرمين.

ولعل هذا هو السبب، في أن الله يغفر يوم القيامة، حتى أن الشيطان يطمع في مغفرته لأن الشيطان يأخذ بظواهر الأحكام، ومظاهر الناس، فيظنهم مجرمين، وهم – عند الله – معذورون.

وقد نســتطيع أن نفسر – بذلك – ما ورد في الســنة، من أن رسول الله (ص) كان يخطب في يالناس عن الحساب يوم القيامة، فلم يزل يقول حتى وجلت القلوب وجرت الدموع، فقام إليه أعرابي، وقال: (يا رسول الله! من الذي يحاسب الناس يوم القيامة؟!) فقال الرسول: (الله) فقال الأعرابي: (إذن، لا أبالي). وولى خارجاً من المسجد، فقال النبي: (إنه رجل من أهل الجنة) (٣٠٨).

فالأعرابي كان يخشــى من أن يحاســب الناس رجل لا يســتوعب دخائلهم فلما عــرف أن الله هو الذي يحاســب الناس، اطمأن إليه. لأنه كان يعرف – بوعيه الفطري – أن الله، الذي يحيط بنقاط ضعف الإنســان، يقدر كل العوامل التي قد تدفع الفرد إلى ما يكره، فلا يناقشه الحساب.

ولعل النبي قال: (إنه رجل من أهل الجنة)؛ لسلامة تقييمه، وحسن معرفته بالله.

(٤٠)

سورة المؤمن

الغافر

مكية

وهي خمس وثمانون آية

لماذا الخلود في الجحيم؟

((قالوا : ربنا ! أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ، فاعترفنا بذنوبنا ، فهل إلى خروج من سبيل؟ !)) .

[سورة المؤمن : الآية ١١] .

لما يرى المنحرفون أهوال القيامة، وعذاب جهنم، حيث يجدون أنفسهم في حياة فيها حساب ولا عمل؛ يتمنون على الله إعادتهم إلى الدنيا، أو إلى الحياة العملية التي فيها عمل ولا حساب – مهما كانت: كالدنيا، أو كعالم الذر – ويشفعون تمنيهم بما يجعله ممكناً، قائلين:

((ربنا! أمتَّنا اثنتين، وأحييتنا اثنتين))، فقد أمتنا مرتين وأحييتنا مرتين، فلا يصعب عليك إماتتنا مرة ثالثة إحياؤنا مرة ثالثة. وكما أنك صبرت علينا بلطفك، ولم تؤاخذنا بمجرد انحرافنا، بل أتحت لنا مجال التجربة مرتين، هكذا... لا تعاملنا بالحساب، بل اترك لنا مجال التجربة للمرة الثالثة. ولكنهم يرققون دعاءهم فزعاً لا خشوعاً، متسائلين: يا ربنا! كما أمتنا وأحييتنا مرتين، ((فهل إلى خروج)) للمرة الثالثة ((من سبيل))؟.

ولكنهم لا يطرحون هذا السؤال عن تصميم على التغيير، وإنما يطرحونه كمحاولة للتخلص الوقتي من العذاب. فلو كانت فيهم محاولة التغير لم يعجل الله عليهم، ولأتاح لهم فرصة التغير، كما يقول:

((ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون)) (٣٠٩).

ولو كانت فيهم محاولة التغير لتغيروا، فقد عاشوا سنوات... وسنوات... وكل ساعة من هذه السنوات حافلة بتجارب: فلرب حوار يومي مع صديق، يعرض فيه الإنسان لعدة تجارب، إذ يجد فيه نفسه في ملتقى تياري الحق والباطل، فيختار أحدهما على الآخر.

فالحياة في هذه الدنيا، لم تكن تجربة واحدة يمكن أن يفشل فيها الإنسان وينجح في غيرها، وإنما هي مجموعة تجارب كثيرة، تنمي ذاتية كل فرد، وتوصله إلى قمته، التي يصعب عليه تجاوزها، مهما تكررت عليه التجارب، كما تقول الآية الكريمة:

((ولو ترى: إذ وقفوا على النار، فقالوا: يا ليتنا نرد، ولا نكذب بآيات ربنا، ونكون من المؤمنين!. بل:

بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، وإنهم لكاذبون)) (٣١٠).

فعندما يتساءلون:

((فهل إلى خروج من سبيل؟))، يكون جوابهم:

١- إنكم أخذتم دوركم، وبلغتم نهاية مداكم، وأثبتم أن لا مدى لكم بعده حتى تكرروا التجربة:

((والذين كفروا، لهم نار جهنم: لا يقضى عليهم فيموتوا، ولا يخفف عنهم من عذابها. كذلك: نجزي كل كفور. وهم يصطرخون فيها: ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل. أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر، وجاءكم النذير؟؟!! فذوقوا، فما للظالمين من نصير)) (٣١١).

٢- أتتكم الإنذارات تلو الإنذارات، على ألسنة الأنبياء والأوصياء... وفي تجاربكم اليومية. فلم تؤخذوا على حين غرة، حتى تعتذروا بأننا لو علمنا أننا ننتهي بهذا الشكل لالتزمنا بالخط المستقيم.

ولهذا السؤال المطروح بهذه الصيغة، معطيات لا بد من وقفة تأمل أمامها:

١- إنهم لم يفاجؤوا بالعذاب، لأنهم كانوا يعلمون بأن الله سيعذبهم على انحرافهم أشد عقاب، فقد أتم الله عليهم الحجة، فلماذا يطرحون هذا السؤال؟

الجواب:

أ. إنهم لم يفاجأوا بأصل العقاب، وإنما فوجئوا بحجم العقاب. لأن كل ما في الآخرة – من: عقاب، وثواب، وجهنم، وجنة، وعقبات، ومراحل... – أكبر من خيال الإنسان مهما اتسع، فنسبة الآخرة إلى الدنيا كنسبة الدنيا إلى الرحم، فحجم العقاب يفاجئ المنحرفين كما أن حجم الثواب يفاجئ المستقيمين.

ب. إنهم يجدون ارتباكاً في تصوراتهم، نتيجة للمغفرة والشفاعة والعطاء بغير حساب. فيجدون: عصاة يدخلون الجنة. وأصحاب أعمال قليلة يمنحون أكثر من تلك التوقعات. وهم لا يعلمون: لماذا غفر الله لهذا؟ ولماذا أشمل ذاك بالشفاعة؟ ولماذا منح لذلك بغير حساب؟

إنهم لا يعلمون: أن الله عندما يعطي الكثير... الكثير... إنما يعطي بحساب، ولكن العطاء – لكثرته

– يبدو وكأنه عطاء بغير حساب. وعندما يعطي بغير سبب، إنما يعطي بسبب، ولكنه يحصي الأسباب الخفية التي لا يطلع عليها غيره، وربما يجهلها حتى صاحبها فيبدو العطاء بلا سبب، بينما هو بسبب. فترتبك تصورات المنحرفين، ويظنون: أن الله يتصرف في غياب من المقاييس التي وضعها للعقاب والثواب. فيحاولون الانفلات في غياب المقاييس، ويتمنون على الله إعادتهم إلى الحياة العملية؛ لعلها تنجح. ولكن محاولتهم لا تنجح، لأن المقاييس قائمة وإن ارتبكت تصوراتهم لها، فيصدمون بالواقع، ويأتيهم الجواب بالنفي.

ويدل على ارتباك تصوراتهم، العديد من الايات، التي منها:

((وقالوا: ما لنا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار؟! أتخذناهم سخرياً، أم زاغت عنهم الأبصار؟)) (٣١٢).

ومنها:

((فلما رأوه زلفة، سيئت وجوه الذين كفروا، وقيل: هذا الذي كنتم به تدعون)) (٣١٣).

٢- إنهم يمهدون لسؤالهم بقولهم: ((ربنا! أمتنا اثنتين، وأحييتنا اثنتين))، فمتى أماتهم الله مرتين وأحياهم مرتين؟

والجواب:

أ. يمكن أن تكون المرة الأولى في عالم الذر، والمرة الثانية في عالم الدنيا.

ب. يمكن أن تكون المرة الأولى في إشارة إلى الحياة الدنيوية، والمرة الثانية إلى الحياة البرزخية.

ولكن ذلك التمهيد لا يصح، إلا إذا كان في الحياة البرزخية نوع من العمل، أو: إلا إذا كان المقصود مجرد الإشارة إلى قدرة الله على الإماتة والإحياء، وإن لم تكن تلك الحياة حياة عملية.

ج. يمكن أن تكون المرة الأولى في الحياة الدنيا، والمرة الثانية في الحياة الآخرة يوم القيامة.

د. يمكن أن تكون المرتان في الحياة الدنيا: فالمرة الأولى قبل الرجعة، والمرة الثانية بعد الرجعة.

حسب إشارة بعض الآيات، وتصريح كثير من الأحاديث، الدالة على أن كل الناس يرجعون إلى الحياة في الرجعة، حتى يعرضوا لتجربة دنيوية مختلفة عن هذه التجربة (٣١٤).

٣- إنهم يصوغون التمهيد بتقديم الموت على الحياة: ((أمتنا... وأحييتنا...))، فهل الموت سابق على الحياة؟

والجواب:

أ. إن الموت سابق على الحياة، كما يفهم من الآية الكريمة:

((الذي خلق الموت والحياة...)) (٣١٥).

فما من حياة إلا وهي منبثقة من موت، وما من موت إلا وهو منطلق حياة. ما عدا الحياة النواتية الأولى، التي هي نوع من الحياة الغامضة، التي لا أجد الآن نصاً مصدرياً يمكنني من مناقشتها على ضوئه. فتلك الحياة لم يسبقها موت، وإنما سبقها عدم مطلق والعدم ليس موتاً، لأن الموت (عدم ملكة).

ب. إن الموت ليس سابقاً على الحياة في الترتيب الكوني، ولكنهم يقدمون ذكر الموت، لأنهم يستعجلون الموت تخلصاً من الفزع الأكبر.

الإخلاص والإشراك

((فادعوا الله:

مخلصين له الدين، ولو كره الكافرون)).

[(سورة المؤمن: الآية ١٤).

١- خلص من الشيء خلوصاً: نجا منه، وخرج عنه، دون أن يعلق به. وخلص للشيء: نجا إليه بكله، دون أن تشده علائق إلى شيء آخر يقاسم اهتمامه. فالخلوص للشيء هو: التفرغ له. والإخلاص للشيء هو: التفريغ له، للتوفير عليه حتى يؤدى كاملاً.

وإخلاص الدين لله هو: تفريغه لله، حتى لا يشاركه فيه غيره.

٢- الإخلاص للشـيء أهم شـروط النجاح فيه. فالذي يوزع اهتمامه على أكثر من هدف، لا يمكن أن ينجح، مهما تفوقت موهبته المناسبة. والذي يركز اهتمامه على هدف معين، لا بد أن ينجح، مهما تضاءلت موهبته المناسبة.

فالسياسي الناجح، والشاعر الناجح، والرياضي الناجح، والمهندس الناجح، والفنان الناجح، وكل ناجح في الحياة... هو الذي تخصص – عملياً – حتى لم يكن يتحرك دماغه إلا في اتجاه مادة اختصاصه، ولم يكن يفتـر دماغه عن العمل لاختصاصه، حتى وهو متشـاغل بأي عمل آخر. ففـي المكتب، وفي الطريق، وفي السهرة، وفي المقهى، والتاكسي... وأحياناً: حتى في المنام، يبقى اختصاصه شغل دماغه وأعصابه، وملتقى أشواق قلبه ونوازع روحه، فهو عمله وهوايته معاً.

وإذا درسـت تاريخ أي ناجح، وجدته حافلاً بكفاح طويل مكتـوم، ومليئاً بمذكرات غير مألوفة، تتوارد على اشتغاله الدائم بمادة اختصاصه.

فما أطول عمر الإنسان! وما أوفر طاقته! إذا تكرست لهدف واحد. وما أقصر عمر الإنسان! وأشح طاقاته! إذا توزعت على أكثر من هدف.

٣- والإنسـان إذا أخلص الدين لله، فأسلم توجيهه لله، حتى لم يشارك الله غيره في التأثير عليه؛ أصبح الدين طابع حياته وتصرفاته، ومقياسـه لتقييم الأشـخاص والأشـياء، وكان الله وحده مصدر حبه وبغضه، وملهم أمله وألمه؛ بشكل عفوي خال من التكلف والرياء.

وهذا ما يشير إليه الحديث القدسي: (... كنت عينه التي بها يرى، وأذنه التي بها يسمع...).

فالدين الذي يربط الإنسان بالله، ويطور الإنسان، هو: دين المخلصين. ولذلك: يدفع القرآن المؤمنين إلى إخلاص الدين لله:

((مخلصين له الدين))، لأن المخلصين هم المؤمنون، وأما غيرهم: فليسوا بمؤمنين.

وعندما يتفاعل الإنسان مع الدين حتى يصعب عليه أن ينافقه، ويتحول إلى سجية من سجاياه – التي يعبر عنها الفقهاء بملكة العدالة – يصبح هذا الإنسان خطراً على الذين طبعوا حياتهم بطابع آخر، ويريدون أن لا

يخلوا مواقعهم من مصاف المؤمنين، فيحاولون أن يشـاركوا المؤمنين مكاسبهم وأن يشاركوا الملحدين مصالحهم:

((سـتجدون آخرين، يريـدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم...)) (٣١٦)، فيشـترك فيها تياران: تيار إيماني غير خالص، وإنما مكسـبي. وتيار إلحادي خالص، وإنمـا مصلحي. فيصابون بالازدواجية، ويتحولون إلى مشركين: يشركون الدين والإلحاد في توجيههم. وهؤلاء يكرهون المؤمنين والملحدين معاً، لأن المخلصين في الإيمان – أو في الإلحاد – يلقون الضوء الفاضح على الذين يريدون اللعب على حبلين، فينكرون على المؤمنين – والملحدين – المخلصين لتعزيز موقفهم.

فإخـلاص الدين، هو ما كرهه المشـركون القدامـى، الذين عبدوا مع الله إلهاً آخـر، ورثوه من آبائهم، فاعتبـروه جامع كتلتهم، فوزعـوا الدين بينه وبين الله. فالله – في تصورهم –: خالق كل شـيء، ترتفع إليه الأصوات بالتلبية، ويسعى نحو بيته الحجيج. والصنم الحجري الموروث: شفيع إلى الله، ترفع إليه الحوائج، وتقـدم له القرابين. والإخلاص – ذاته – ما يكرهه المشـركون الجدد، الذين يعبدون مع الله إلهاً آخر يؤمن مصالحهم، فيتوزعون الدين بينه وبين الله. فالله – في تصورهم –: خالق كل شـيء، فله الجزء الشـكلي من الدين: التقديس والهوية. والصنم البشـري، أو الفكري، أو النظري: يحقق مطامحهم، فله الجزء الجوهري من الدين، العمل والالتزام.

فالشرك الجديد، هو الصيغة المتطورة للشرك القديم. والمشركون الجدد، هم الصيغ الحديثة للمشركين القدامى. وأما الجوهر فواحد، وهو: تصور أن الله خالق وليس بفاعل، وأما الفاعل – في الوجود – فغيره.

فالمشـركون – جميعـاً – جبهة واحدة في مقابـل المؤمنين، فكان من الضـروري تنبيههم إلى موقف المشركين منهم، وتوجيههم إلى عدم المبالاة به: فلا تخلوا مواقعكم مجاملة لموقفهم، أو خوفاً منه، ((ولو كره المشـركون)) إخلاصكم الدين لله، فإن موقفهم – هـذا – وصولي لا مبدئي، فلا يدفعهم إلى المغامرة لإزاحتكم عن مواقعكم. لأن الفرد المبدئي، هو الذي يضحي بنفسـه في سـبيل مبدئه، وأما الوصولي، فلا يضحي بنفسـه في سبيل أغراضه، لأن قوة الأغراض الخاصة تدور في نطاق المحاولات الإيجابية لتأمينها، ولا ترتفع إلى مستوى الأعمال السلبية التي لا يمكن التكهن بنتائجها.

نصرة الرسل والمؤمنين

((إنا لننصر: رسلنا، والذين آمنوا، في: الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد)).

[(سورة المؤمن: الآية ٥١)].

في هذه الآية أربعة وعود:

١- نصرة الرسل في الدنيا.

٢- نصرة الذين آمنوا في الدنيا.

٣- نصرة الرسل في القيامة.

٤- نصرة الذين آمنوا في القيامة.

فأما الوعد الأول = نصرة الرسل في الدنيا:

كان الرسل – دائماً – مضطهدين.

بعضهم رأى رسـالته تتموج على الأرض، وتسع سطحاً شاسعاً من القطاع البشري، كسليمان ويوسف ومحمد (عليهم الصلاة والسلام).

وبعضهم لم يبارح الآلام حتى خلع الحياة بين أضراس الطواحين: كإبراهيم الذي كان وحده أمة، ثم آمن له لوط، ولم يلتف الناس حول أيهما. وكموسى، الذي مات في التيه، ومثل نوح، الذي لم يؤمن به من الناس حتى بعدد السنوات التي نثرها دعاءً إلى الله.

وآخرون – من الأنبياء – نشروا بالمناشير، وأحرقوا، وقتلوا صبراً...

والذين عاشوا دولة رسالاتهم، كانت حياتهم أزمة معاناة، حتى وهم على قمة المجد؛ أ أولم يقل النبي

محمد (ص): (ما أوذي نبي بمثل ما أوذيت) (٣١٧)؟! لقد اضطهد الأنبياء جميعاً، فجوبهوا بالتصفيات الجسدية، والحملات الدعائية.

وكانت تلف كل واحد منهم، حلقة شائكة من الأعداء والمنافقين، وهو يموت – بينهم – كل لحظة ألف موتة، لا أقسى ولا أمر. ألم يقل القرآن نفسه: ((يا حسرة على العباد! ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون)) (٣١٨). فكيف نصرهم الله؟

وقبل الإجابة على هذا السؤال، لنا أن نتساءل:

هل نصرة الرسل هي نفس نصرة الفارغين؟

فنصرة الفارغين أن: تؤمن لهم الاستقرار النفسي والجسدي، وتترف عليهم حتى يقدروا على تلبية رغباتهم أكثر من نداءاتها، حتى لا يهمهم شيء من أمر غيرهم. ونصرة الرسل: أن تؤمن لرسالاتهم التأثير العميق البعيد، حتى لا يهمهم شيء من أمر أنفسهم. فنصرة البذرة، ليست بحمايتها من السوس، وإنما بتعريضها لتجربة التراب والماء والنور والهواء، حتى تصبح شجرة عاتية على الطوارئ، ونصرة الرصاصة التي يرشق بها العدو، ليست بتمديدها في أحضان القطن، وإنما بنشرها في الجباه والصدور.

وبهذا المقياس، نصر الله رسله نصرة ولم ينصر بمثلها أية مجموعة من خلقه. وقد نستطيع استيعاب مدى هذه النصرة، بالمقارنة بين عدد الرسل وعدد البشر: فالرسل، وهم بضعة ألوف – في أعلى التقادير – أحدثوا دوياً هائلاً في ألوف المليارات من البشر عبر الدنيا كلها، وفرضوا رسالاتهم على الحياة فرضاً، فغيروا مجاري الأفكار والمجتمعات. وليس المهم أنهم رأوا دول رسالاتهم – وهم في عداد الأحياء – أو لم يروها، لأنهم لم ينفصلوا عن الدنيا وهم في عداد الأموات.

وربما كانت الأمور الآن أوضح من ذي قبل: فالصخرة التي تلقى في الماء، قد تغوص في الماء قبل أن تثير موجاً، ولكن الأمواج التي تتوالى بفعلها تقيس مدى فاعليتها. وليس المهم نسبة المؤمنين بهم إلى غير المؤمنين، أو نسبة الملتزمين برسالاتهم إلى غير الملتزمين – في نطاق المؤمنين –، أو أية نسبة مئوية أخرى؛ وإنما المهم أنهم عرضوا الناس كافة لتجربة السماء. فالبوتقة ليست فاشلة إذا كانت نسبة المعدن أقل من الغش، ولا المحك يعتبر ناقصاً إذا كان الذهب المعرض له مغشوشاً.

لقد كانت مهمة الرسل، تعريض الناس لتجربة السماء. وقد أدوها خير أداء، رغم قلة عدد الرسل وكثرة عدد الناس، بما لا يقبل النسبة، وهكذا... نصرهم الله.

والوعد الثاني = نصرة الذين آمنوا في الدنيا:

فالمؤمنون العاملون وإن اضطهدوا، ولكن اضطهادهم كان إحدى أقوى وســائل تأثيرهم. وبنفس مقياس نصرة الرسل، نصر الله المؤمنين نصرة هائلة، لأن الرسل – من خلالهم – خاطبوا البشرية، وعرضوها لتجربة السماء، رغم قلة عدد المؤمنين العاملين في كل زمان.

والوعدان الثالث والرابع = نصرة الرسل في القيامة، ونصرة الذين آمنوا في القيامة:

فتلكما نصرتان، تتضاءل دونهما كل نصرة:

((... يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه. نورهم يســعى بين أيديهم وبأيمانهم. يقولون: ربنا! أتمم لنا نورنا، واغفر لنا، إنك على كل شيء قدير)) (٣١٩).

هوامش الكتاب

(١) سورة التوبة: رقم ٩ الآية ٥.

(٢) سورة التوبة: رقم ٩ الآية ١٢.

(٣) سورة التوبة: رقم ٩ الآية ١٣.

(٤) سورة التوبة: رقم ٩ الآية ٣٠.

(٥) سورة التوبة: رقم ٩ الآية ٣.

(٦) سورة التوبة: رقم ٩ الآية ٣٤.

(٧) سورة التوبة: رقم ٩ الآية ٣٧.

(٨) سورة التوبة: رقم ٩ الآية ١٤.

(٩) سورة التوبة: رقم ٩ الآية ١.

(١٠) سورة التوبة: رقم ٩ الآية ٢٨.

(١١) سورة التوبة: رقم ٩ الآية ٣١.

(١٢) سورة التوبة: رقم ٩ الآية ١.

(١٣) سورة التوبة: رقم ٩ الآية ٤.

(١٤) سورة التوبة: رقم ٩ الآية ٧.

(١٥) سورة التوبة: رقم ٩ الآية ٢.

(١٦) سورة التوبة: رقم ٩ الآية ٥.

(١٧) سورة التوبة: رقم ٩ الآية ٣.

(١٨) سورة التوبة: رقم ٩ الآية ٥.

(١٩) سورة التوبة: رقم ٩ الآية ١١.

(٢٠) سورة التوبة: رقم ٩ الآية ٦.

(٢١) سورة التوبة: رقم ٩ الآية ٣.

(٢٢) سورة التوبة: رقم ٩ الآية ١٣.

(٢٣) بحار الأنوار – ج ١٦ – ص ٤٠٢ – باب (١٢).

(٢٤) سورة الإسراء: رقم ١٧ الآية ٧٤.

(٢٥) سورة الحجر: رقم ١٥ الآية ٩.

(٢٦) بحار الأنوار – ج ٢٣ – باب (٧) – ص ١٠٦ – ١٠٧ – ١٠٨.

(٢٧) سورة النساء: رقم ٤ الآية ١١٣.

(٢٨) سورة طه: رقم ٢٠ الآية ٦٨.

(٢٩) سورة الحج: رقم ٢٢ الآيتان ٣٩ – ٤٠.

(٣٠) سورة الفتح: رقم ٤٨ الآية ٢٦.

(٣١) سورة النساء: رقم ٤ الآية ٦٤.

(٣٢) سورة الفرقان: رقم ٢٥ الآية ٦٧.

(٣٣) أصول الكافي، لثقة الإسلام الكليني: ج ٢ / ٣٧٠.

(٣٤) انظر جامع السعادات: ج٣ فصل اعقل وتوكل ص ٢٢٨.

(٣٥) عوالي الآلي: ج ١ ص ٧٥ ح ١٤٩.

(٣٦) سورة آل عمران: رقم ٣ الآية ٨٩.

(٣٧) سورة التوبة: رقم ٩ الآية ١١٤.

(٣٨) سورة التوبة: رقم ٩ الآية ١١٤.

(٣٩) سورة التوبة: رقم ٩ الآية ٨٤.

(٤٠) سورة التوبة: رقم ٩ الآية ١٠٨.

(٤١) سورة الضحى: رقم ٩٣ الآية ٥.

(٤٢) سورة النجم: رقم ٥٣ الآيتان (٣ – ٤).

(٤٣) سورة التوبة: رقم ٩ الآية ٩٥.

(٤٤) سورة التوبة: رقم ٩ الآية ٩١.

(٤٥) سورة التوبة: رقم ٩ الآية ٩٢.

(٤٦) كلمة (النفاق) مشـتقة من النفق، وهو المسير تحت الأرض. والمنافق هو الذي عمل لنفسه نفقاً يسهل له التحول من موقـف إلى موقف، فبينما هو يظهر لك – أمامـك على الأرض – موادعاً، إذ هو مختبئ – خلفك تحت الأرض – متربصاً. فيما المصارح هو من لم يتخذ لنفسه نفقاً، فهو أمامك – دائما – مسالماً كان أو محارباً. م.

(٤٧) نهج البلاغة، الجزء الرابع، ح٢٥.

(٤٨) هذه الآية تكشف عدم صحة ما ينسب إلى الرسول الأعظم – صلى الله عليه وآله وسلم – من أنه قال: (أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم). فالمقصود من (أهل المدينة) ليس اليهود، فهم يهود، وقد كشف الله مواقفهم في آيات أخرى. ثم: اليهود لم يكونوا منافقين، وإنما كانوا يهوداً لهم موقفهم ككتابيين، دخلوا في الذمة ولم يدخلوا في الإسلام. وإنما المنافقون هم الذين دخلوا في الإسـلام ظاهراً ليكيدوا له واقعاً. ففي الظاهر: كانوا من صحابة الرسـول – لأن الصحابي كل من رأى الرسول وسمع حديثه –، وفي الواقع: كانوا متآمرين على الرسول والإسلام معاً. م.

(٤٩) بحار الأنوار: ج ٢ ص ١٤ ح ٢٦ – ٣٥.

(٥٠) المستدرك – ج ٢ – ص ٢٧١.

(٥١) بحار الأنوار: ج ١٠٠ باب الحث على طلب الرزق ح ١٦ و ١٨ و ٢٤.

(٥٢) نهج البلاغة – صبحي الصالح – الكتاب (٢٧).

(٥٣) عدة الداعي – أحمد بن فهد الحلي، عن كعب الأحبار.

(٥٤) سورة آل عمران: رقم ٣ الآيات ٣٥ – ٣٧.

(٥٥) سورة التوبة: رقم ٩ الآية ٧٢.

(٥٦) سورة حم السجدة: رقم ٤١ الآيات ٣٠ – ٣٢.

(٥٧) سورة فصلت: رقم ٤١ الآية ١١.

(٥٨) انظر مستدرك نهج البلاغة ص ١٧٧ ط دار الأندلس.

(٥٩) الطبقات – ج ١ – ص ٣٦٤، والمستدرك للحاكم – ج ٢ – ص ٣٩٢.

(٦٠) مجمع البيان – للطبرسي، ج٥ – ص٢١٢ – ط دار المعرفة – بيروت – لبنان.

(٦١) سورة فصلت = ٤١ الآيتان ٣٠. ٣١.

(٦٢) سورة طه: رقم ٢٠ الآية ٥٠.

(٦٣) سورة النمل: رقم ٢٧ الآية ٨٨.

(٦٤) سورة عبس: رقم ٨٠ الآية ١٧.

(٦٥) راجع تفسير الآية: ((وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ❖)). [سورة الذاريات: رقم ٥١ الآية ٥٦]. والآية: ((ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ...)) [سورة هود: رقم ١١ الآية ١١٨]. م.

(٦٦) سورة الجاثية: رقم ٤٥ الآية ٢٤.

(٦٧) سورة الطلاق: رقم ٦٥ الآية ١٢.

(٦٨) سورة الذاريات: رقم ٥١ الآية ٥٦.

(٦٩) سورة محمد: رقم ٤٧ الآية ٧.

(٧٠) سورة البقرة: رقم ٢ الآية ٣٠.

(٧١) سورة آل عمران: رقم ٣ الآية ١٣٣.

(٧٢) تفسير نور الثقلين/ ج ٣ / ص ١٤٥ / الحديث ١١٢.

(٧٣) سورة فصلت: الآية ١١.

(٧٤) سورة الإسراء: الآية ٤٤.

(٧٥) سورة فصلت: الآيتان ٢٠ – ٢١.

(٧٦) سورة النور: الآية ٤١.

(٧٧) انظر الاختصاص – للمفيد – ص ٢٥ – ط مؤسسة الوفاء – بيروت.

(٧٨) انظر البحار – ج٧ ص ٢٦٥ ح ٢١٠ .

(٧٩) مجمع البيان/ تفسير هذه الآية من سورة الإسراء.

(٨٠) تفسير نور الثقلين / ج ٣ / ص ١٨٨ / الحديث ٣١٦ / نقلا عن علل الشرائع للصدوق، عن أبيه، عن سعد بن عبد الله، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن علي بن الحكم، عن عبد الله بن سنان – وكلهم ثقات من مصطلح علم الدراية – عن الصادق (ع) قال: ...

(٨١) انظر بحار الأنوار ج ١٨ ص ٣٤٨.

(٨٢) بحار الأنوار ج ٩٧ ص ١٩٨.

(٨٣) سورة النساء: الآية ٢٨.

(٨٤) سورة الإسراء: الآيتان ٣٧ – ٣٨.

(٨٥) سورة الملك: الآية ٥.

(٨٦) نهج الفصاحة / ٤٦.

(٨٧) نهج الفصاحة / ٢٠٦.

(٨٨) سورة طه: الآية ١١٥.

(٨٩) سورة البقرة: الآية ٢٥٣.

(٩٠) سورة الأحزاب: الآية ٣٦.

(٩١) سورة بني إسرائيل: الآيتان ٢٣ – ٢٤.

(٩٢) سورة العنكبوت: الآية ٨.

(٩٣) نهج البلاغة: الخطبة ٢٧.

(٩٤) مفاتح الجنان، للمحدث القمي – ٧٢.

(٩٥) سورة المؤمن: الآية ٥٧.

(٩٦) سورة مريم: الآية ٨.

(٩٧) سورة مريم: الآية ١٠.

(٩٨) سورة مريم: الآية ٢٦.

(٩٩) سورة مريم: الآية ٣٢.

(١٠٠) سورة الروم: الآية ٣٠.

(١٠١) كنز العمال / ٤٣٥٨٨.

(١٠٢) فروع الكافي - ج ٤ - باب (كراهية السرف والتقتير) - حديث (١٠) - ص (٥٦).

(١٠٣) سورة طه: الآية ١٠٢.

(١٠٤) سورة طه: الآيتان ١٢٥ - ١٢٦.

(١٠٥) البحار - ج ٧ - باب صفة المحشر - ص ٨٩.

(١٠٦) تفسير نور الثقلين، للعلامة الحويزي - ج٣ / ٤٠٩.

(١٠٧) سورة النساء: الآية ٧٨.

(١٠٨) سورة العنكبوت: الآية ٣.

(١٠٩) سورة الزمر: الآيتان ٣٦ - ٣٧.

(١١٠) سورة مريم: الآية ٧٥.

(١١١) سورة آل عمران: الآية ١٧٨.

(١١٢) سورة الإسراء: الآية ١٦.

(١١٣) سورة الزخرف: الآية ٣٣.

(١١٤) سورة السجدة: الآية ١٣.

(١١٥) سورة هود: الآية ١١٨.

(١١٦) سورة ق: الآية ٣٠.

(١١٧) سورة البقرة: الآية ٣١.

(١١٨) سورة التوبة: الآية ٥٥.

(١١٩) سورة الرعد: الآية ١٣.

(١٢٠) انظر الجواهر السنية، لمحمد بن الحسن الحر العاملي، ص ١٦٠.

(١٢١) انظر بحار الأنوار، ج ٦٤، الباب ١٢، ح ٥٦ - ٦١.

(١٢٢) انظر بحار الأنوار، ج ٥، باب الطينة والميثاق، ص ٢٣٠.

(١٢٣) انظر الأمالي، للشيخ الطوسي، ص ٥٣١.

(١٢٤) بحار الأنوار - ج ٧ - ص ٢٨٥ - باب ما يحتج الله به على العباد يوم القيامة - ح ١.

(١٢٥) سورة الحج: الآية ١٥.

(١٢٦) سورة الرحمن: الآيات ٣٣ - ٣٥.

(١٢٧) سورة الأعراف: الآية ١٧٢.

(١٢٨) نهج البلاغة - الخطبة (١).

(١٢٩) بحار الأنوار - ج ٧ - ص ١٢٥ - باب (٦) - ط مؤسسة الوفاء.

(١٣٠) أصول الكافي - ج ١ - ص ٢١ - ح ١٦ - ١٠٦.

والخصال - ج ٢ - ص ٥٨٩ - ح ٣.

(١٣١) بحار الأنوار – ج ٤٣ – ص ٢٥١ – ط مؤسسة الوفاء.

(١٣٢) سورة النور: الآية ٤١.

(١٣٣) سورة الحج: الآية ١٨.

(١٣٤) انظر بحار الأنوار – ج ٧ – ص ٢٦٥ – ح ٢١.

(١٣٥) الاختصاص – للمفيد – ص ٢٥ – ط مؤسسة الوفاء.

(١٣٦) سورة الحج: الآية ١٨.

(١٣٧) سورة الرعد: الآية ١٣.

(١٣٨) سورة الإسراء: الآية ٤٤.

(١٣٩) سورة الأحزاب: الآية ٧٢.

(١٤٠) سورة الأنبياء: الآية ٣٣.

(١٤١) وسائل الشيعة – ج ١ – ص ١٥٩ – ح ٣٩٦.

(١٤٢) بحار الأنوار – ج ٢ – ص ٢٢٥ – حديث ٣.

(١٤٣) نهج البلاغة – الخطبة ١٢٧.

(١٤٤) انظر مجمع البحرين – ج ٣ – مادة (شذذ).

(١٤٥) شرح نهج البلاغة – لابن أبي الحديد – ج ٨ – ص ١١٢.

(١٤٦) انظر بحار الأنوار – ج ٢٣ – ص ٢٨٢.

(١٤٧) نهج البلاغة – خطبة ٢٣.

(١٤٨) سورة الحجرات: الآية ١٤.

(١٤٩) سورة البقرة: الآية ١٧٩.

(١٥٠) سورة المائدة: الآية ٤٥.

(١٥١) سورة آل عمران: الآية ١٦٩.

(١٥٢) الروضة من الكافي – ج ٨ – باب (٣٩) . ص (١٧٧)– حديث (١٩٧).

(١٥٣) سورة البلد: الآية ١٠.

(١٥٤) انظر كنز العمال – ج ١٠ – ح ٢٨٧٨٠.

(١٥٥) فقــد ثبت في علم (فقه اللغة) وعلم (أصــول الفقه): أن زيادة المباني تدل على زيادة المعاني. وذلك يعني: أن زيادة الأحرف في كلمة عنها في كلمة أخرى، تدل على زيادة محتوى الكلمة كثيرة الأحرف على محتوى الكلمة قليلة الأحرف. م.

(١٥٦) الفروع من الكافي – ج ٥ – باب (من كد على عياله) – حديث (١).

(١٥٧) ويجدر الإشــارة إلى الفــارق بين كلمتي (الجهاد والثورة) من الناحية اللغوية: فالثورة مشــتقة من (ثار) أي هاج، والهياج يعطي معنى العفوية، فتشبه كلمة (المارد والشقي) من الكلمات التي انعكست عليها حالات من استخدمها، فاكتسبت احتراماً من احترامهم. بعكس كلمة (الاســتعمار) التي كانت محترمة – في وضعها اللغوي – فانطبعت بحقارة من تســتر بها من الأجانب المستغلين. م.

(١٥٨) سورة العنكبوت: الآية ٦٩.

(١٥٩) سورة البقرة: الآية ١٢٨.

(١٦٠) سورة البقرة: الآية ١٢٨.

(١٦١) سورة يس: الآية ١٤.

(١٦٢) مجمع البيان – ج ٨ – ص ٦٥٤، والدر المنثور – ج ٥ – ص ٢٦١، والبرهان في تفسير القرآن – ج ٤ ص ٨.

(١٦٣) بحار الأنوار – ج ٢ – ص ٢٢.

(١٦٤) مصابيح الأنوار من شرح مشكلات الأخبار للحجة المرحوم السيد عبد الله شبر – ج ١ ص ٤٣٤ – ح ٨٣، ط بصيرتي – قم – إيران.

(١٦٥) فالمصالح الخاصة محترمة ما لم تقفز فوق حدود الله، ومن هنا ورد في الحديث: (الكاد لعياله، كالمجاهد في سبيل الله). م.

(١٦٦) هذا البند إطار آخر لنفس ما تقدم في البند الأول بتكييف ثان، فهما صيغتان لموضوع واحد، ترك على حاله لما نبهنا عليه في مفتتح الجزء الأول. م.

(١٦٧) الخصال – للصدوق – ج ٢ – ص ٤١٧ – الباب ٩ – حديث ٩.

(١٦٨) سورة البقرة: الآية ١٢٨.

(١٦٩) سورة البقرة: الآية ١٢٨.

(١٧٠) سورة الأحزاب: الآية ٤٠.

(١٧١) سورة يس: الآية ١٤.

(١٧٢) مجمع البيان – ج ٨ – ص ٦٥٤، وانظر الدر المنثور – ج ٥ – ص ٢٦١، والبرهان في تفسير القرآن – ج ٤ – ص ٨.

(١٧٣) بحار الأنوار – ج ٢ – ص ٢٢.

(١٧٤) سورة الحج: الآية ١٩.

(١٧٥) سورة البقرة: الآية ٢١٩.

(١٧٦) سورة البقرة: الآيات ١٥٥ – ١٥٧.

(١٧٧) سورة التحريم: الآية ١٢.

(١٧٨) سورة مريم: الآيات ٢٨ – ٣٠.

(١٧٩) سورة آل عمران: الآية ١٦١.

(١٨٠) سورة يوسف: الآية ٢٤.

(١٨١) لمزيد من التفصيل، يراجع تفسير آية: (التطهير). م.

(١٨٢) الاحتجاج – ج ٢ – ص ١٩٨ – ٢٢٨.

(١٨٣) سورة الأعراف: الآية ١٥٧.

(١٨٤) ذهب بعض المفسرين إلى أن دور: (الحلم)، هو دور: (الاحتلام) الذي هو أحد أدلة البلوغ الشرعي. وذهب آخرون إلى أن دور: (الحلم)، هو دور الرؤيا الجنسية، وهو يبتدئ قبل دور البلوغ، ولكنه تعبير فني عن دور البلوغ، رغم أن حكم: (الطفل المميز)، هو حكم: (البالغ) في هذا الخصوص، فيعممون الحكم بعموم الملاك. وحجتهم في ذلك: أن الحكم في: ((ليستأذنوا)) موجه إلى ((الأطفال))، ولا يمكن توجيه الحكم إلى غير البالغ.

ولكن لا يوجد مبرر لاعتبار: (الحلم) تعبيراً عن: (البلوغ)، كما لا مبرر لتعميم الحكم بعموم الملاك، وإنما يفضل تفسير: (الحلم) بمعناه اللغوي، ليشمل المميز والبالغ، بدليل:

١- التعبير عنهم بـ: ((الأطفال)).

٢- توجيه الخطاب إلى معايشيهم في: ((منكم)).

و(ليستأذنوا) ليس خطاباً إلى الأطفال، فمثل هذا الكلام يوجه إلى الأولياء لإلزام الأطفال بما يلزمون به فمثلاً يقال:

إذا بلغ الأطفال سبعاً فليصلوا، وإذا بلغوا ستاً فليتعلموا ... م.

(١٨٥) سورة التوبة: الآية ٢٥ - ٢٧.

(١٨٦) سورة البقرة: الآية ٢٠٧.

(١٨٧) سورة النساء: الآية ١٣٧.

(١٨٨) سورة الأحزاب: الآية ٣٠.

(١٨٩) أصول الكافي - ج ١ - ص ٦٧.

(١٩٠) تحف العقول - للمحدث الحراني - ص ٢٢٢.

(١٩١) انظر نهج الفصاحة.

(١٩٢) سورة القصص: الآية ٢٦.

(١٩٣) أكثر المفسرين أرجعوا ضمير الفاعل في: ((يشاء)) إلى الله، أي: أن الله يهدي من يشاء الله هدايته. ولكن مقتضى بعض الآيات، رجوع ضمير الفاعل في: ((يشاء))، إلى: ((من)). فقد قال تعالى: ((... أ نلزمكموها وأنتم لها كارهون؟!)) [سورة هود: الآية ٢٨] فالله - تعالى - لا يلزم أحداً الهداية إذا رغب عنها، ولا يلزم أحداً الضلالة إذا رغب عنها، وإنما الله يهدي إلى النجدين، ويمد السالكين فيهما معاً مداً، كلاً في اتجاهه، لتتكافأ الفرص، فيتحمل كل تبعة اختياره. م.

(١٩٤) مسند أحمد بن حنبل - ج ٢ - ص ٥٠٧.

(١٩٥) انظر مسند أحمد بن حنبل - ج ٢ - ص ٥٠٧.

(١٩٦) سورة فاطر: الآية ٤٣.

(١٩٧) سورة الأعراف: الآيتان ١٧٥ - ١٧٦.

(١٩٨) سورة البلد: الآية ١٠.

(١٩٩) بحار الأنوار – ج ٧٩ – ص ١٩٨.

(٢٠٠) بحار الأنوار – ج ٧٩ – ص ١٩٨ – ط الوفاء.

(٢٠١) سورة الناس: الآية ٤.

(٢٠٢) بحار الأنوار – ج ٧٩ – ص ١٩٨.

(٢٠٣) سورة البقرة: الآية ٢١٣.

(٢٠٤) انظر بحار الأنوار – ج ٦٧ – ص ٣٣ – حديث (١) – وص ٤٤ – حديث (٢).

(٢٠٥) سورة الأنعام: الآيتان ١١٢ – ١١٣.

(٢٠٦) سورة البلد: الآية ١٠.

(٢٠٧) سورة الإسراء: الآية ٢٠.

(٢٠٨) سورة البقرة: الآية ٢٥٧.

(٢٠٩) سورة التحريم: الآية ١٠.

(٢١٠) سورة التحريم: الآية ١١.

(٢١١) سورة الأعراف: الآية ١٧٥.

(٢١٢) سورة آل عمران: الآية ١٦١.

(٢١٣) سورة التحريم: الآية ٦.

(٢١٤) سورة الأنعام: الآية ٢٨.

(٢١٥) عوالي اللآلي – ج ٤ – ص ١٣٢ – ح ٢٢٧.

(٢١٦) سورة طه: الآية ٥٠.

(٢١٧) سورة يس: الآية ٣٨.

(٢١٨) سورة يس: الآية ٣٩.

(٢١٩) سورة النحل: الآية ١٢.

(٢٢٠) سورة الأنبياء: الآية ٣٣.

(٢٢١) سورة الذاريات: الآية ٤٧.

(٢٢٢) مستدرك الوسائل – ج ٢ – كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر – باب ١٥ – حديث ٢.

(٢٢٣) سورة الكهف: الآية ٤٩.

(٢٢٤) سورة يس: الآية ٦٥.

(٢٢٥) سورة طه: الآيتان ٥١ – ٥٢.

(٢٢٦) سورة فصلت: الآيات ١٩ – ٢٣.

(٢٢٧) عيون أخبار الرضا (ع) – للشيخ الصدوق – ج ٢ – باب (٣١) – ص ٧٤ – حديث ٣٤٧.

(٢٢٨) سورة هود: الآية ١١٤.

(٢٢٩) سورة هود: الآية ١٦.

(٢٣٠) نهج البلاغة – الوصية (٣١).

(٢٣١) سورة الحجر: الآية ٩.

(٢٣٢) سورة إبراهيم: الآية ٣٥.

(٢٣٣) سورة البقرة: الآية ١٢٨.

(٢٣٤) مفاتيح الجنان – للشيخ عباس القمي – ص ٤٢٩.

(٢٣٥) مفاتيح الجنان – للشيخ عباس القمي – ص ٤٥١.

(٢٣٦) سورة الشعراء: الآيتان ٢١٨ – ٢١٩.

(٢٣٧) بحار الأنوار – ج ٤٤ – ص ١٤٠.

٢٣٨ بحار الأنوار . ج٢٢ . (صلى الله عليه وآله وسلم)(٥٠٧، ٥٤٢) وفاطمة الزهراء من المهد إلى اللحد ص٤٢٦.

(٢٣٩) مفاتيح الجنان – للشيخ عباس القمي – ص ٤٣٩.

(٢٤٠) سورة الأعراف: الآية ٤٣.

(٢٤١) الأمالي – للشيخ الصدوق – ص (٢٣٣ – ٢٣٤).

(٢٤٢) سورة الكهف: الآية ١١٠.

(٢٤٣) انظر بحار الأنوار – ج ١٥ – ص (٣٦١ – ٣٦٢).

(٢٤٤) سورة يوسف: الآية ٢٤.

(٢٤٥) الوافي – مج ١ – ج ٢ – فص ٤ – ب ١٠٧ – ١٠٨.

(٢٤٦) سورة الأحزاب: الآية ٣٠.

(٢٤٧) سورة الأحزاب: الآية ٣٢.

(٢٤٨) سورة الأحزاب: الآية ٣٠.

(٢٤٩) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

(٢٥٠) سورة التحريم: الآية ٥.

(٢٥١) سورة التحريم: الآية ٥.

(٢٥٢) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

(٢٥٣) سورة الأحزاب: الآية ٣٢.

(٢٥٤) سورة آل عمران: الآية ١٦١.

(٢٥٥) سورة يوسف: الآية ٢٤.

(٢٥٦) سورة التحريم: الآية ١٢.

(٢٥٧) سورة النور: الآية ١١.

(٢٥٨) سورة التحريم: الآية ٥.

(٢٥٩) سورة التحريم: الآية ٥.

(٢٦٠) سورة التحريم: الآية ٥.

(٢٦١) سورة التحريم: الآية ٤.

(٢٦٢) عيون أخبار الرضا – ج ١ – باب (٣١) – ص ٧٢ – حديث (٢٩٩).

(٢٦٣) بحار الأنوار – للعلامة المجلسي – ج ٢٢ – ب ٢ – ص ١٧٠ وما بعدها.

(٢٦٤) سورة الأحزاب: الآية ٣٦.

(٢٦٥) بحار الأنوار – ج ١٦ – ص ٢٢٩.

(٢٦٦) بحار الأنوار – ج ١٦ – ص ٢٢٥.

(٢٦٧) بحار الأنوار – ج ١٩ – ص ٨ و٤٩.

(٢٦٨) سورة الحجرات: الآية ١٧.

(٢٦٩) الموضوعات في الآثار والأخبار – لهاشم معروف الحسني – ص ١٧ – ط دار الكتاب اللبناني.

(٢٧٠) بحار الأنوار – ج ١٨ – ص ١٩٢.

(٢٧١) سورة طه: الآية ١٢٤.

(٢٧٢) سورة الأعلى: الآيتان ١٢ – ١٣.

(٢٧٣) سورة يونس: الآيتان ٥٩.

(٢٧٤) سورة النبأ: الآية ١٣.

(٢٧٥) سورة ق: الآية ٣٨.

(٢٧٦) سورة المؤمن: الآية ٥٧.

(٢٧٧) سورة النور: الآية ٢٥.

(٢٧٨) سورة الإسراء: الآية ٧٠.

(٢٧٩) سورة الأحزاب: الآية ٤٠.

(٢٨٠) سورة الحجرات: الآية ٤.

(٢٨١) سورة المجادلة: الآية ١٢.

(٢٨٢) سورة نوح: الآية ٧.

(٢٨٣) سورة المجادلة: الآية ١٢.

(٢٨٤) صحيح البخاري – ج ٩ – ص ١١٧ – ط دار الجيل – بيروت.

(٢٨٥) عوالي اللآلي – ج ١ – ص ١٠٥ ح ٤٢.

(٢٨٦) عوالي اللآلي – ج ١ ص ١٩٨، وصحيح البخاري – ج ١ ص ١٦٢ – ط دار الجيل.

(٢٨٧) انظر وسائل الشيعة – ج ١ – ص ٢٧٦ – حديث (١٢).

(٢٨٨) سورة الأحزاب: الآية ٢١.

(٢٨٩) سورة طه: الآية ٢.

(٢٩٠) سورة المائدة: الآية ٩٩.

(٢٩١) سورة الأنعام: الآية ٩١.

(٢٩٢) سورة فاطر: الآية ٨.

(٢٩٣) سورة الحجرات: الآية ١٧.

(٢٩٤) سورة الأحزاب: الآية ٣٨.

(٢٩٥) فالمتوسوسون، الذين يمعنون أكثر من المقدار المعتاد في بعض الأجزاء أو الشرائط، إنما يكتفون بصحة العمل عن صلاحه. م.

(٢٩٦) سورة إبراهيم: الآية ٣٣.

(٢٩٧) سورة يس: الآية ٤٠.

(٢٩٨) في الحديث القدسي: (عبدي ! أطعني أجعلك مثلي: أقول للشيء: (كن) فيكون، وتقول للشيء: (كن) فيكون). م. انظر عدة الداعي – لأحمد بن فهد الحلي – عن كعب الأحبار.

(٢٩٩) في الحديث: (إن لله عباداً إذا أرادوا أراد). م.

(٣٠٠) ((وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل، والله لا يحب الفساد)) [سورة البقرة: الآية ٢٠٥]. م.

(٣٠١) ((وجحدوا بها، واستيقنتها أنفسهم ...)) [سورة النمل: الآية ١٤]. م.

(٣٠٢) نهج البلاغة – (فيض الإسلام) – ص ٥٩٣.

(٣٠٣) سورة الحج: الآيتان ٧٧ – ٧٨.

(٣٠٤) سورة النحل: الآيات ١٢٠ – ١٢٣.

(٣٠٥) سورة البقرة: الآية ٢٨٣.

(٣٠٦) مفاتيح الجنان – للشيخ عباس القمي – ص ٦٦.

(٣٠٧) سورة البلد: الآية ١٠.

(٣٠٨) تنبيه الخواطر – ص ٧.

(٣٠٩) سورة الأنفال: الآية ٢٣.

(٣١٠) سورة الأنعام: الآية ٢٧ – ٢٨.

(٣١١) سورة فاطر: الآية ٣٦ – ٣٧.

(٣١٢) سورة ص: الآية ٦٢ – ٦٣.

(٣١٣) سورة الملك: الآية ٢٧.

(٣١٤) راجع: حق اليقين – للعلامة الشبر – ج ٢ – الصفحات الأولى.

(٣١٥) سورة الملك: الآية ٢.

(٣١٦) سورة النساء: الآية ٩١.

(٣١٧) بحار الأنوار – ج ٣٩ – ص ٥٦.

(٣١٨) سورة يس: الآية ٣٠.

(٣١٩) سورة التحريم: الآية ٨.